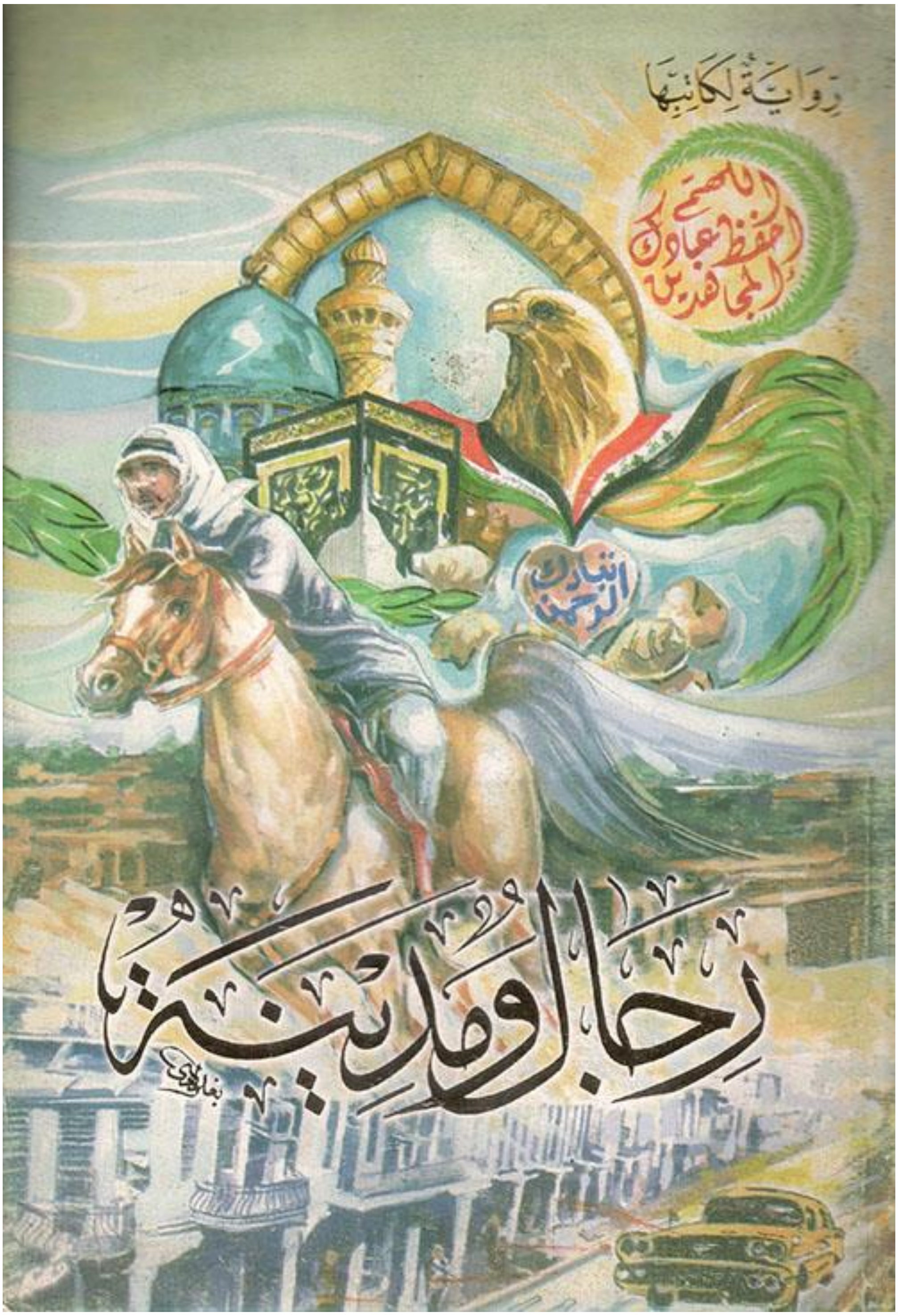
رواية رجال ومدينه لكاتبها

رواية رجال ومدينه لكاتبها الرئيس الشهيد صدام حسين المجيد



Extracted by

G.R.C.V.C.V

From

موقع النهى

https://web.archive.org/web/20190213205819/http://alnoha.com/mu8allat.htm

الجزء الأول

تقديم

من جوف ليل بهيم، ومعاناة روح وجسد، وإصرار على نيل المطالب، تحديا للبغي والطغيان، خرج فارس مغوار غير هيّاب، يلوّح للمجد لكي يدنو منه، بعد أن انتزع قدرة الحركة على طريقهن فما كان من هذا الفارس إلا التحدي والإصرار، ومغالبة ذلك الواقع، وقد قيل أن الدنيا لا تؤخذ إلا غلابا، فراح يخوض الصعاب مستحضرا روح التأريخ، وما ورثه من شجاعة أهله وقومه الفرسان، وتألق بما يملكه من مواهب.

لقد ولد الفارس وهو يحمل على جسده الآم قومه وأمته، وتحمل روحه حفز مصلحة الوطن والشعب والأمة.. ليحوّل المعاناة إلى خزين خبرة، تقيه منزلقات النسيان أو التخلي، لتبقى جذوة الإيمان والصبر داخل نفسه، مثلما هي في فعله، والتحريض على العمل الجمعي الثوري هي بوصلة الطريق، بعد الاتكال على الواحد الأحد، وبما يجعل الماضي والتاريخ عمق مرحلته، وبيرق تطلعه، هما وما يجود به نضج فكرة مرحلته، وليس عبئا على حركته وتصوره.

ولد وهو يحلم بزمن يكون فيه الموقف شرفا، والحياة قضية والعمل جهادا..

هذه ببساطة فكرة (رجال ومدينة)، الرواية التي بين يديك، عزيزي القارئ الكريم.. إنها رواية حافلة برموز حية، لا يزال بعض صنّاها أحياء، وساحات حركتهم خالدة تنطق بتاريخها، وتستذكر أمجاده، حتى بدا سفرها على لسان راوٍ شهد وجودها، وأقام بناءها، وعلاّه، وقدّم لها ما لم تقدمه حقب الزمان المختلفة، فأعزّها هيبة، وكرّمها تطورا، لتصبح قلاع تحدٍ تحكي صور ولادة فارس، ليس ككل الفرسان، وولادة جيل ليس ككل الأجيال، بل ولادة زمن ليس ككل الأزمان.

تقدم لنا الرواية جزءا من حياة نجم سطع في فضاء العراق، حتى كاد، هو وحركة فعله ومعاناته وحياته، أو هو هكذا، يرسم صورة مرحلة كاملة عن المعاناة، وحياة ونضال شعب العراق الوفي الأمين.. ولعل أهم ما يميز هذه الرواية – عزيزي القارئ- أنها تفصح بثقة عن شخصية كاتبها، كون أحداثها لم تكن نصباً من الماضي، أو رمزا تاريخيا مجردا، وإنما هي مسيرة ناطقة لحياة شعب من خلال حياة فارس، تعفف منذ نعومة أظفاره عن التورط في اللامبالاة، وترك الوطن (يحترق)، فكانت

حياته النذر الذي درأ الحريق المنتظر آنذاك.. أو أنها حالت دون استمرارية الحريق الذي كان سيحوّل الحياة رمادا لو استمر وكبت الهمة ومنعها من أن تنطلق.

والرواية بهذا الوصف لا تعبّر عن ترميم مقصود لزمن محدد، وإنما هي هندسة فضاء زمني، يضاهي بآفاقه مكامن النور في التاريخ التليد، كان فيه التنافس على التضحية دربا للفضيلة، وكان الاقتراب من الحقيقة والحق منطلقا لتفعيل ما تختزنه النفس من طاقات وقابليات، حتى إذا ما لاحت أمام الفارس فرصة ليجد ذاته، اغتنمها، لكي يدافع عن حقه، وحق شعبه وأمته في الحياة والحرية ضد كل من استفحل شره، وعجز عن بناء دربه، أو استكبر في رؤية ذاته، فانتزع من القدر دور شعبه القومي، وألقم من يحاول سلب ذلك الدور حجرا، قبل أن تكتشف الجماهير العربية أن الحجارة سلاح ماضٍ ضد سالبي الحياة والحرية والمحتلين المجرمين.

تتدافع أمامك- عزيزي القارئ الكريم- وأنت تقرأ هذه الرواية، مواقف كثيرة، حملت معها مرتسمات خصبة لبناء درامي متميز، صوّرت إلى حد النطق، ظروفا مرّ بها الفارس، دون أن ينثني أمامها.. أو يستسلم لشروطها القاسية، بل حوّلها إلى اندفاعات مبصرة متوالية، ليؤسس منها منافذ يطل منها على حياة شعبه وأمته، وصارت حياته على قياس ما ورد في الرواية، مرآة لما يمر به الشعب والوطن، وفصول نضال وجهاد لم تنته حتى هذه اللحظة، أهم ما فيها رسوخ إيمان في صدر الفارس، ويقين بأن الغد يُصنع لا يُنتظر، وأن الأبواب لا تفتح إلا بالعمل، وأن عافية الدرب المشرّف لا يمكن أن تتم إلا بعد أن يتراجع الوهن داخل النفس، لتتوق لصنع المستقبل بفؤاد لا يعرف الوجل.

وقد حرص كاتب الرواية على أن لا يقع تغيير في شخوصها، أو مسرح بنائها. وكان حدود الحوار تلتقي عند خط شروع واحد، تضيق فيه كل احتمالات النكوص، وتؤسس عنده كل نقاط الانطلاق، وعندها تتهتك الحجب، بعد أن يقدم الشعب قرابين الشهداء على مذابح الحرية، التي شُوّهَت معطياتها بفعل أدعيائها، الذين ما أن رأوا عزم الجماهير، حتى تواروا في زوايا التاريخ، تلاحقهم إشارات الجماهير التي آمنت بأن مستقبلها لا يمكن ضمانه إذا كان الشك يحيط بمستقبل الوطن.

مع كل بناء في معمار الرواية، يبدأ توازي القابليات لدى شخوصها، التي ما تلبث أن تتجمع وتتسق في شخصية ثرة، ماهرة في رؤيتها لمفتاح الخلاص، وجدوى الدفاع عن الفضيلة، والحنو الشديد عليها. ولكي يعمّق الكاتب ذلك الشعور، تراه لم يدّخر وسعا إلا ورسخها بإطار حكمة تلو حكمة، لتصبح فيما بعد قوانين بناء للشخصية التي لا تهاب المنايا، ولا تخشاها، بعد أن يحصّنها من هواجس التراجع والتخاذل.. كأن الكاتب يدعو القارئ ليكون جزءا من شواطئ التاريخ وأعماقه، ليقبض بضميره ووجدانه على قوانينه، وليحقق ألفة بينه وبينها.. يمخر بها عباب الحياة... يحصّن نفسه عبرها، ويقدم الدليل على أن الموروث يمكن أن يكون محفزا لبناء الأمل، لا احتوائه، أو صهره و تذويبه، لتتوارى الخشية من إفساد الآخرين له مهما بلغوا من عتو.

لق جاء أسلوب الرواية، كما سترى عزيزي القارئ الكريم، مع كل الاندفاع الذي امتلكته روح الكاتب، مبتعدا عن أسلوب الحماس الخطابي، الذي اعتادت عليه روايات من هذا النوع، مثلما ابتعد عن الفاصلة بين الذاتي والموضوعي، طالما ظل الإيمان حاضرا، وظلت الإمكانات، منذ بواكير الطفولة، تبحث عن طريق الهداية والخلاص لكي تفعّل، لتتساوق مع لهيب الحماس الذي تنطلق منه، ولأجل

ذلك ترى الرواية، وقد أسست مزية مضافة، تتفاضل بها العبارات، وتتلاقح الأفكار، لتلد عشقا كبيرا بين الكاتب وتاريخه، بين الشعب والوطن، والأهم بين الضمير والواجب.

وبعد كلّ هذا، عزيزي القارئ الكريم، أراك أمام حالة كأنها سيرة تنطق باسم النضال، بعد أن نقّب كاتبها عن منابعه الأصيلة، وتفيّأ بوهج الأمل، لتنفض عن كل خذول دواعي التقوقع، بعد أن تزوده بمهاميز العثور على ذاته... إنها رسالة مفاضلة بين الحق والواجب. وبين الوجود والتضحية، وتلك هي روح الفضيلة، توأم النضال، وبها لا يمكن لزمن، أو لما هو معاكس من رغبات ومناهج غير مشروعة تدجينها. ومتى ما امتلكها فارس وانتزع طريقه إليها، زحف المجد باتجاهه، ليعانقه.. وهكذا هي حال النضال...

ويبقى (كاتبها)، رافضا أن يكتب اسمه على الرواية، تماما كما فعل من قبل مع روايتيه (زبيبة والملك) و(القلعة الحصينة)، فما يبدعه أبناء أباة الضيم في العراق العظيم، دون ذكرٍ لأسمائهم، حريّ بجعله لا يفكر بوضع اسمه على رواية (رجال ومدينة)، مثلما أراد...

الجزء الثاني

إذا أردت لولدك أن يحفظ دارك وحماك، فاسأل عن خاله، وإذا أردته يواجه عدوك باقتدار، فدربه وهيئه، وإذا أردته أن يكون كريما، فأنبه عنك في الكرم، قبل أن يكون له بيت ومال منفصلان عن بيتك ومالك، وإذا أردت أن تجعل نفسه أبية سماء، فعلمه أن يعطي لا أن يأخذ، وعلمه على صعود العاليات، لا الاختباء في جفر"..

توفي والد السيد حسين ولما يزل بعمر يافع..
كان لقب السيد لا يمنح في هذه العائلة دليلا على المرتبة المالية أو العنوان الوظيفي لأبنائها، كما هو حال من يلقب به في هذا الزمان، بل ولا حتى تقديرا لأعمارهم.. ذلك أن عمر السيد حسين كان صغيرا كما قلنا، ولكنه يمنح إشارة إلى النسب، وتقديرا له.

ينتمي السيد حسين إلى عائلة حسينية الأصل، يمتد جذرها إلى سيدنا الحسين بن علي (كرم الله وجهيهما)، وكان يلقب الحسين الصغير، وكان الأصغر سنا من بين أربعة أخوة، تزوج الثلاثة الأكبر منه، قبل أن يتزوج حسين بن مجيد وأعمارهم بين الثالثة والعشرين والخامسة والعشرين، وكان جده رحمه الله، رجلا مباركا في عرف وتعامل أهل المدينة الصغيرة الواقعة على حافة نهر دجلة الخالد، حتى أن من تتعسر ولادتها تستخدم حزامه لتسهل الولادة.
كان أخوة السيد حسين يحبونه حبا كبيرا، كأنهم بهذا الحب أرادوا أن يفرغوا عليه محبتهم وتقديرهم لأمهم وأبيهم وتعبيرا عن حرصهم على أداء الواجب إزاء ما اؤتمنوا عليه.

وقد توفي والدا السيد حسين ولما يشتد عوده بعد لمواجهة الحياة، التي تبدأ صعوبتها من الشاطئ منذ الولادة، حيث الأمراض السارية، بما في ذلك احتمالات الإصابة بالطاعون، و صعوبة الحصول على لقمة العيش، فمن يبحر فيها حتى يصل أعماق بحرها ثم يعود إلى الشاطئ يكون قد تعلم العوم وتطعّم بصعوباتها، ويكون قد سلم، ومن يضعف فيغرق، يغطس في بحرها، قبل أن يعرف العوم ويتعرف على الأعماق فيها.

وكان تعداد أهل العراق حوالي مليون إنسان، وهو مجموع النساء والرجال الذين عاشوا على أرضه في أوائل العشرينات من القرن العشرين، أو لنقل هم كل ما بقي على أرضه، بعد أن كانوا بحدود الثلاثين مليون إنسان في زمن ما، عندما كانت بغداد على عهد الدولة العباسية منارة الدنيا، وقبس إشعاعها الفكري والفني والعلمي، يردفه إشعاعها الروحي، بل يقوده، كأهم تجسيد حضاري وثقافي عميق، وكرمز لمعاني حكم المؤمنين على قياسات ما آمنوا به في الدين الإسلامي بعد الدولة الأموية، التي أحاطها ما أحاطها من إشارات بسبب الصراع الذي حصل بين مؤسسها معاوية بن أبي سفيان وسيدنا علي بن أبي طالب وفق قصتهما المعروفة، رغم أن أي فتح جديد لم يحصل بعد الأمويين أبدا، حتى انتهى حكم الأمويين في عام 132هـ.

إذن، بحدود المليون إنسان هو كل ما بقي (فضلة) الموت وسوء الحياة الذين عمّا بغداد وكل مدن العراق، إضافة إلى تدمير وسائل الري جراء غزوات الأجانب الذين تكالبوا على بغداد بعد أن هزلت.. حيث جاءوها من الأقاصي البعيدة مثل هولاكو، أو انحدروا إليها من الهضاب القريبة من شرقها ومن شمالها، وأحيانا حتى من أبناء جلدتها من العرب.. جاءوا إليها وكلّ يشهر سيفه، أو يتحين فرصته عليها بخنجره، سواء طلبا للمجد، ليشار إلى سيفه أو خنجره كعلم، عندما يقوم إنه أغمده في صدر بغداد التي كانت مشعل هداية للإنسانية، ورمز عبقرية الإنسان فيها، أو جاء من جاء منهم لسود عليها تتويجا لفتوحاته كملك للجهات الأربع، مثلما كان الطامعون يفعلون مع بابل قبل الميلاد بمئات، بل آلاف السنين.

كان البؤس يعمّ العراق من أقصاه إلى أقصاه، ولم يعد فيه أي شيء عدا بقايا ما يستدل منه على عظمة المعاني والدلالات التي تحملها آثاره، التي بالكاد يستدل عليها هي الأخرى، بعد أن عاثت وعبثت بها يد الأجنبي في أوائل العشرينات من القرن العشرين.

ولد حسين بن مجيد.. وصار يتيم الأم والأب بعد ذلك.. وعندما بلغ مبلغ الرجال، راح أشقاؤه يسعون ليخطبوا له من أقاربه بنتا تكافئ نسبه، وفي الوقت نفسه ينبغي أن لا يكون والدها طماعا، لأن ضعف حالهم، وكون أبناء مجيد كلهم من الذكور، عدا بنتا واحدة زوجوها لابن عمهم من قبل، ضيقا عليهم فرصة أن يخطبوا للسيد حسين زوجة، لأن الأساس في خطبة من يخطب آنذاك أن تكون له أخت يبادلها بأخت أحدهم، أو حتى ابنته إذا كان والد الخطيبة يرغب في الزواج من أخرى...

وقع اختيار أشقاء السيد حسين على عم لهم، يلتقون معه بأحد أجدادهم، وخطبوا للسيد حسين ابنته. كانت صبحة هي البنت البكر بين بناته، وكان ترتيبها بين أخوتها الثاني بعد أخيها البكر من أمهما حليمة.. كانت سعادة حسين وأخوته لا توصف عندما أعطاهم والد صبحة موافقته، بعد أن تشاور مع

أمها، حيث أن الأم أعرف برأي ابنتها.. ومن حسن الصدف أن صبحة لم يكن لديها ابن عم جاهز وفي عمر الزواج، وإنما كان لديها أبناء عم أصغر منها.. وكان لها عمّان شقيقان لأبيها..

انتقلت صبحة لتعيش مع حسين، بعد أن تدبروا أمر دارهما الجديد، ليكون لصيقا لدار إحدى عمات حسين، التي ترملت، ولم يعش لها طفل، حيث كان أطفالها يموتون كلما ولدت واحدا منهم، وما أكثر النسوة والرجال الذين كانوا لا ينجبون بسبب عارض بسيط! وما أكثر الأطفال الذين يموتون بعد الولادة لأبسط عارض يواجههمّ بل إن الكبار من الأحياء كانوا يفتقرون إلى أبسط معاني الرعاية الصحية وإمكاناتها عندما يمرضون، ومن باب أولى أن لا يحظى من لديه عائق في الإنجاب من الجنسين بأي رعاية، وكان الأطفال يواجهون مثل ذلك، عندما يمرضون، لأن المدينة كلها كانت تفتقر حتى لو لطبيب واحد، وكان الدواء الجديد لم يجد طريقه إلى العراق بعد، خارج مدينة بغداد، التي هي الأخرى كان الدواء والأطباء فيها على نطاق ضيق، ولا يهتدي إليهما إلا أصحاب المال والسلطان فحسب.

ضوءاً خلقنا، وكان أمنّا القطرُ
الروحُ منا شذاها الطيرُ والزهرُ

كانت محلة السكماني فرحة بذلك اليوم حيث زفاف صبحة إلى حسين.. وكان واحد من بيوتها الأكثر استعدادا وسعادة لاستقبال الحدث

همّ الليلُ ونحنُ فيه النهارُ
لنا الليلُ ونحنُ فيه النهارُ

****

كانت صبحة في (مقطع) طويل، والمقطع غرفة طويلة، لا يزيد عرضها عن ثلاثة أمتار ونصف المتر، وبالكاد تصل أحيانا إلى أربعة أمتار، أما طولها فيمكن أن يمتد حسب الحاجة والقدرة.. ومع أن الأرض في هذه المدينة لا تباع ولا تشترى، وبالتالي ليس لها ثمن، فغن الدور لم تكن تبنى وفق تخطيط مسبق للشوارع، وإنما يبني كل دار على أساس ما يختاره صاحبه من مكان.. وقد اعتاد كل من يبني أن يبني لصيقا لدار أخرى سبق بناؤها، وأن تترك فواصل للطريق بين الدور تسمح بمرور الإنسان والدواب وهي محملة... وكانت الدور تبنى (بالفزعة) في الغالب، والفزعة تعني العمل الجماعي التعاوني الذي يقوم به أهل الحي الواحد لمعاونة من يقرر البناء، من غير أن يتقاضوا على ذلك أجرا، إلا (الأسطة)، أي المشرف الفني على البناء، وكانت الأجور بسطة، وهي في الغالب بصيغة المقايضة، كأن تكون أجرة العمل الذي يقدمه (الأسطة)، طيلة يوم أو أسبوع، خروفا أو عددا من الدجاجات، أو وزنة حنطة، أو عددا من المجيديات على العهد العثماني، وعددا من الدريهمات في بداية العهد الملكي الجديد.

ومع كل ذلك، ولأن الدار لم تكن تبنى باللبن أو قطع الحجر المحلي مع الطين وحسب، وإنما يلزمها الخشب الذي من غيره لا يستقيم السقف، فلم يكن الجميع قادرين على البناء دائما، وفي كل الأحوال

فإن عرض أي فضاء في البناء كان ينبغي أن لا يزيد عن أربعة أمتار، ليتحمل ثقل ما يوضع من طين فوق السقف اتقاء للمطر.

كانت كل البيوت تكاد تكون متشابهة، أو قل متماثلة، فالمدينة ليس فيها إلا اثنان من الأسطوات (جمع أسطة)، وربما أسطة واحد، هو أو هما اللذان يخططان بناء الدار، أما الأساس فهو (المقطع) أي غرفة طولية واحدة، يرافقها جنبيا (خزينة) عرضها متر ونصف المتر، والخزينة عبارة عن غرفة طولها على امتداد الغرفة الأصلية، التي ينخفض ربع مساحتها عند المدخل، فيما يرتفع الباقي من الغرفة ليكون مكان المعيشة، وينتصب في نهاية المقطع، تاركا فراغا خلفه (محمل) من الخشب يوضع عليه الفراش، ويشكل ديكورا في البيت، إذا كان أهل البيت ذوي مقدرة مالية لما يكون عليه من لحف و شفوف(1) وبسط ملونة، أو شف واحد ولحاف واحد، كل حسب مقدرته ومستوى تدبير ربة الدار...
والخزينة هي المكان الذي يوضع فيه الحطب، ويرافق الغرفة (المقطع الرئيس) من الجهة الأخرى (المقطع) أو غرفة أخرى تسمى البيت (الجوه) مماثلة لغرفة المعيشة، تخزن فيه حاجة العائلة من الحنطة والبقوليات والدهن والدبس والتمر والبرغل والرشدة، وإذا كانت العائلة مقتدرة جدا ربما تخزن أيضا بعض الجوز والراشي والعسل، والراشي والعسل لم يدخلا إلا عددا محدودا من بيوت هذه المدينة في الأربعينات...

إذن كان وصف الدار التي زفّت فيها صبحة إلى السيد حسين يتصل بما أسلفنا، وتصطبغ جدرانها و (الباريات) الحصران المصنوعة من القصب وحتى خشب السقف والجدران بلون أسود ذلك ما تكسبه من لون الدخان لنار التدفئة من الحطب في فصل الشتاء، أو من (الهيس) الذي يتركه السراج المصنوع من (التنك) على شكل أسطوانة صغيرة، يوضع فيها نفط، ويبرز من أعلاها أنبوب طوله أقل من طول نصف الأصبع، تبرز منه فتيلة من القطن لكي تضيء، عندما تشعل بعود ثقاب، وحتى الفوانيس النفطية كانت، عندما يلتهب فتيلها، تصبغ سقف الدار والجدران بـ (الهيس) الأسود... إذن، كانت السقوف والجدران مصبوغة بهذا اللون، ولا يسلم من هذا الوصف والمنظر إلا الدار الجديدة قبل أن يمر عليها موسم الشتاء.

كانت سطوح المنازل المشرفة على دار السيد حسين، مثلما هي باحة الدار وغرفة الدار بالوصف الذي ذكرنا، تغص بالنساء اللاتي جئن يتفرجن على العرس، ويهلهلن، ويصفقن بأيديهن ويرددن أغنيات المدينة ابتهاجا ومشاركة بالعرس، وغالبا ما كانت ربات البيوت المجاورة يحاولن تنبيه من هن فوق السطوح إلى خطورة تحميلها بأعداد إضافية من النساء، خشية أن تسقط بهن جراء ثقل خارج قدرة تحمّل الخشب الذي نخرت الأرضة بعضه بعد أن فاتت عليه سنين.

كانت بنات ونساء المحلة يغنين، ويدبكن، متشابكات الأيدي، أو متفرقات متقابلات، وهن يجُلن بعباءاتهن، بعد أن يلوين العباءات، ويضعنها على أكافهن، وهين يناوبن حركة أيديهن ارتفاعا وانخفاضا، ممسكات طرفي العباءة من فوق متونهن، ويغرّدن مع زقزقة العصافير، وطيور السنونو (القره قاش) التي وجدت لأنفسها فرصة لبناء أعشاشها على سقف الدار، حيث توفرت لها فرصة الدخول من (السمي)، وهي فتحة في السطح باتجاه السماء، لتسمح بتبديل الهواء، وغالبا ما يتبدل

الهواء الحار، تاركا الهواء البارد يستقر في الأسفل، أو حتى أن العصافير والطيور، بل وحتى القطط أحيانا يمكنها الدخول من فتحات فوق الباب أو تحته، ذلك لأن الأبواب في ذلك الزمان لا تُحكم بحيث تطبق مع الأرضية في الأسفل، وتطبق مع حالة البناء أو السقف من الأعلى، وإنما تترك فراغات غير منتظمة غالبا من الأعلى والأسفل.. كانت النسوة يرددن وهنّ في هذا المنظر:

ألف هلا يا عيني.. ألف هلا
عباءتك يا حسين كلها كلبدون..
ألف هلا يعيني.. ألف هلا..
لو قابل الحكام، بس أهله يحكون
ألف هلا يا عيني.. ألف هلا
خطّابتك جاءوا.. قومي يا صبحة
ألف هلا يا عيني.. ألف هلا
ما انطي بنت عمي لو أسويها ذبحة
ألف هلا يا عيني.. ألف هلا

كانت هذه هي السمة العامة لفرحة الزفاف، وكانت النسوة يحتفلن بالعروس على هذه الكيفية، فيما يزف الرجال العريس من واحدة من اثنتين من المقاهي البسيطة في وسط المدينة، وهم يطلقون العيارات النارية، ويهزجون ويجولون في رقصاتهم حول العريس، في الوقت الذي يتوسط حسين الخط الأمامي من أصدقائه و معارفه، وينتظم الجمع على طرفيهم وفي الخلف منهم، فيما يتراكض الأطفال إلى الأمام، مستدلين بواحد ممن يعرفون مكان الدار الذي تصير إليه الزفة، ليسبق بعضهم الجمع، والقسم الآخر يتنافس على ظروف الإطلاقات المتساقطة بين الأرجل، أو يلتقط (الملبس) الحلويات من الأرض، إذا ما تبرع أحدهم ليشتريها من بدرة الباصي، أو بيت عمّاش، وينثرها على الزفة، ومن حين لآخر نسمع صرخة طفل تطأه الأقدام، وهو يحاول الحصول على (الملبسة) أو ظرف طلقة فارغ، وبالكاد يخرجونه من بين الأرجل.. وهو (يعوي)..

عند بزوغ صباح اليوم التالي، كانت عديلة السلطان أول من جاءهما لتطرق عليهما الباب، لأنها الأقرب إليهما في المكان والنسب.

كانت عديلة السلطان ممشوقة القوام، طويلة القامة، ولكنها وزوجها صالح خطاب لم يوفقا في الإنجاب، فقد كان أطفالهما يتوفون بعد الولادة.. ومع بساطة ذلك الزمان، كان أعمام صالح ا لخطاب يتندرون على بساطته، وكيف أنه عندما تلد عديلة طفلا يضع اليشماغ على أنه، لكي لا يشم رائحة الخضيرة التي تضر الأطفال، لأنه يعتقد بأنه إذا شمها يموت ابنه، عندما يكون في عمر صغير، بينما لا ينتقل أذى الخضيرة إلا مع حليب الأم إذا شمت رائحتها، أو إذا شمها الطفل بصورة مباشرة، وعبثا حاول من حاول أن يقنع صالح الخطاب بذلك لكنه ظل يعتقد بأنه لو شمّ الخضيرة يضر طفله مثلما تضر الأم طفلها لو شمتها..

أجابتها صبحة، بعد أن كانت قد استيقظت، وظلت خارج الفراش قبل أن تطرق عديلة الباب وتنادي

عليها..
- نعم عمة تفضلي.. الباب مفتوح.. وفي الوقت نفسه نبهت حسين لكي يستيقظ وينهض..
جاءتهم عديلة بعدد من البيض، ومعه تمر خستاوي معجون بالدهن كصبحية للعرس ليأكلا، وبعد أن شكرا عديلة قال حسين لصبحة:
- قومي بنت عمي واقلي (طقي) لنا (البيضات) بالدهن لنتناول إفطارنا، وحبذا لو شاركتنا عمتي عديلة، وانسي، يا بنت العم، ما تضمنه عقد زواجنا بأن يكون لك عبد وعبدة مثلما هي عادة بنات العشيرة من السادة آنذاك، كنوع من تقدير الأزواج لهن، وكإشارة على علوّ اعتبارهن.. نعم، يا بنت العم.. اخدمي نفسك بنفسك، وسأعاونك.. لأننا لا نملك عبدا ولا عبدة ليقوما بذلك، وأنت تعرفين الحال، وإلا لا (تغلا) عليك حتى الأنفس.

تناول حسين طعام الإفطار وحده، لأن صبحة امتنعت عن تناوله معه.. مفضلة تناوله بعد أن يكتفي حسين منه، وبقيت صبحة تحتفظ بعادة عدم تناول الطعام مع الزوج، أو الأخ، أو حتى مع أبنها الكبير صالح فيما بعد، لأنها كانت تجد ما يعيب في أن تتخالف يدها أثناء الأكل مع أيدي من يعينها من الوليان، وهو جمع (ولي الأمر) وفق لهجتهم آنذاك.. بهذا كانت تعلق عندما يلح صالح عليها، لتأكل معه، والشيء نفسه تقوله لشقيقها مال الله.

كان حسين المجيد في إجازة لأغراض الزواج، ذلك لأنه كان يعمل حارسا في منطقة الفتحة على (الفيري)، والفيري عبارة عن (طبقة) مربوطة بسلك كهرباء من الأعلى، مرتبط هو الآخر ببكرات تنقله بين ضفتي نهر دجلة في منطقة الفتحة، وغالبا ما كان الأقوياء المؤثرون في هذه المناطق يتعهدون حراسة مثل هكذا مصالح في تلك الظروف. وبما أن عقر هذه الأرض، وهو عشر المحصول الزراعي، كان مخصصا أصلا لعشيرة السادة الحسينيين في بنت النهر، والسيد حسين منهم، فقد كانت حراستها على أبناء العشيرة، ولذلك كان الإخوان سليمان وحسين، بالإضافة إلى عدد آخر من أبناء عمومتهم، يتولون هذه المهمة.. وعندما انتهت إجازة سيد حسين وعاد إلى العمل، أحست صبحة بفراغ كبير، وأحست الفراغ بغياب حسين أيضا، أختاها ليلى وهيلة، حيث كان حسين، بالإضافة إلى حُسن طلعته، وبهاء شكله، وطوله الممشوق، ولون بشرته الأشقر، وعينيه الشهلاوين، وشاربيه الشقراوين، ذا معشر جميل، وخفيف الظل، مع رزانة خاصة لا تترك ثقلا أو تكلفة على محدثه ومن يعاشره، وكان سعيدا بصبحة، ويحمل لعائلتها، سيما أمها وأبيها، تقديرا خاصا في نفسه، ويتعامل بمحبة ولطف خاص مع شقيقتي صبحة: ليلى، وهيلة..
أما مال الله، أخوهن الكبير، فقد كان يدرس في الكلية العسكرية، بعد أن تخرج معلما في الدورة الريفية بعد السادس الابتدائي.
وكان أمد الدورة الريفية لتخريج المعلمين آنذاك، سنتين أو ثلاث سنوات، وأمد الدورة بعدها في الكلية العسكرية سنتين أيضا

****

مرّت الأيام سراعا في حياة السيد حسين وصبحة.. وكان حسين ينتقل بين الفتحة حيث مكان عمله،

ومنطقة السكماني حيث صبحة في دار الزوجية، وفي أحد الأيام عاد حسين إلى بيته مجازا، فأخبرته صبحة بأنها حامل.. وكانت سعادتهما لا يتسع لها مقطع المعيشة، ولا حتى (البيت الجوة) مثلما كانوا يطلقون على المقطع الذي كان يوازي غرفة المعيشة على الطرف الآخر، الذي يقابل الخزينة من الجهة الأخرى، بل ولا تتسع لها محلة السكماني كلها...

ومن الطبيعي أن تكو أم بحة قد أحيطت علما بذلك، هي وعديلة السلطان أيضا. وهذه عادة النساء آنذاك في أول حمل لهن بعد الزواج، تحسبا لاحتمال أن يموت الزوج بأي عارض مفاجئ، وجبّا لأي تقوّل قد ينال من المرأة الحامل، وعن طريق النساء، كان الرجال، وبخاصة الأب، وربما الأخوة أيضا، يعرفون بأمر الحمل..

كان الزوجان ينتظران الوضع بكل لهفة، وما إن وُضع المولود ذكرا حتى أسمياه أنور.. فرحت عائلة السيد حسين، وفرحت ليلى وهيلة وأم صبحة من أهل صبحة بالمولود أنور، إذ من عادة الرجال أن لا ينظروا آنذاك إلى ابن البنت، حتى عندما يكون زوجها ابن عم لهم، مثلما ينظرون إلى ابن الابن، بل حتى لو فرحوا به، فإنهم لم يكونوا يظهرون هذا جريا على عادة الرجال آنذاك، باعتبار أن عائلتي الزوج والزوجة، لو قدر لهما أن يتعاركا، فإن ابن الابن يقف مع أهله، وابن البنت يقف مع أهله أيضا، أي مع أعمامه (ضد أخواله)، وربما قليل منهم من يقف على الحياد، أو (يحجز) بينهم كفعل خير يحول دون اصطدامهم، بخلاف ما عليه الأمر في الوقت الراهن، بعد أن اتسع تأثير المرأة، وارتفعت مكانتها في المجتمع، ولأن دورها كبير في التربية، حيث ازدادت انشغالات الرجل، ولأن المرأة تحب أهلها، فإنها في العادة تعمل على أن تجعل أبناءها يحبون أخوالهم كأعمامهم، وربما أكثر من ذلك، أو على حساب حبهم لأعمامهم إذا كانت صغيرة عقل... وفي كل الأحوال تعتمد النتيجة النهائية لموقف الأبناء من الأعمام والأخوال، بالإضافة إلى موقف الأم والأب، على سلوك ومستوى تعاملهم مع الأطفال وأمهم وأبيهم، فكلما حسُن التعامل ازدادت العلاقة تشابكا ومحبة، وكلما كانت الأم مؤثرة و (نحسة) في تعاملها مع الأعمام وأبنائهم وزوجاتهم، صار لهذا مكانة في تباعدهم.. ولقد شغل الطفل أنور صبحة عن عمل البيت، رغم أنه كان محدودا للغاية، ذلك أن حسين في العمل وليس في البيت وصبحة وحدها في البيت، ورغم أن صبحة كانت تحاول أن تبقى في بيتها وزوجها غائب عن البيت قبل الولاة، إلا أن أمها ألحّت عليها بالمجيء إلى بيت أبيها.. وهنا تدخل أبوها بصورة حاسمة، عندما عرف أن صبحة تفضل ألا تترك بيتها في غياب حسين.. وقال لها:

- إنها صفة حميدة أن لا تترك المرأة بيتها في غياب زوجها، يا ابنتي، وهي من جوهر تربيتها الدينية، ولكنك الآن وحدك بلا أطفال، وأنت في سن لم تعركه الحياة بعد، لذلك ما إن يغادر زوجك البيت عائدا إلى عمله، حتى تغلقي باب دارك، وتأتي إلينا.. إلى بيت أبيك الذي ربّاك حتى زوّجك..
- على العين والرأس، يا والدي.. أنا أعرف الحكمة التي أردتها في أمرك هذا، وأمرك مطاع، ولكنني قلت في نفسي: ربما يرتاح حسين لبقائي في البيت أكثر، حتى عندما يأتي بإجازة معروفة مسبقا، أو إجازة ترتب على عجل، يجدني في البيت، لكي أفك عنه حرج المجيء إلى بيتكم- واستدركت قائلة: بيتنا- لإشعاري بوصوله.
- إن حسين، يا ابنتي، ابننا، و صار الآن ابننا من كل النواحي، بما في ذلك ناحية الشرع في أمور أساسية.. وهو يفهم إجرائي هذا، ولا اعتقد أنه يتضايق منه، ومع ذلك قولي له، عندما يعود في

الإجازة اجتهادك وقراري، لكي يعرف كل شيء.
- أمرك نافذ يا والدي..
كانت صبحة، حتى بعد الولادة، تحمل (أنور) وتذهب به إلى بيت أبيها، عند غياب حسين، وتعود إلى دارها عندما يعود حسين في إجازة ليسعدا بابنهما أكثر

****

أصيب أنور بمرض بد أن صار عمره أربعة أشهر وهو العمر الذي يبدأ الطفل فيه بملاعبة أهله بما يملأهم سرورا وغبطة.. ورغم كل محاولات أم صبحة وكبيرات السن من صويحباتها تقديم وصفات من الأعشاب لتشفي الطفل، ورغم أن بعض الدراويش قرأوا على رأسه، فقد توفي أنور.. وبسقوط نجمه، انطفأ النور الذي اشتعل بولادته في ذلك البيت.
توفي أنور في الوقت الذي كان حسين في الفتحة، وحيث لا هاتف ولا سيارات توصل الخبر بين الفتحة ومحلة السكماني، فقد بقي حسين لا يعلم بالخبر الحزين.

عاشت صبحة حزنها العميق مع نفسها، وما انفكت تنتحب، تشاركها أمها وأختاها ليلى وهيلة... كانت صبحة تبكي ليل نهار، ولا ينقطع دمعها إلا بعد أن يهدها السهر، ولا يقوى جسمها على الاستمرار من غير نوم... وكانت لا تأكل إلا ما يديم الحياة لكي لا تنطفئ، تحت إلحاح أمها عليها...

- كلي، يا ابنتي، تقول أمها مشجعة، إنه زرع الله يا ابنتي، هو، سبحانه، الذي خلقه، وهو الذي اختار أن يطفئ شمعته، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، سبحان الذي لا يموت، وهو وحده الحيّ القيّوم..
كانت حليمة تقول ذلك لابنتها صبحة، رغم أن النار تلتهب في صدرها هي الأخرى، وبالكاد تستطيع أن تداري دموعها أحيانا قبل أن تطفح من مآقيها.. وتردف قولها..

- إن الأنبياء الذين خُلقت الأرض من أجلهم ماتوا، وكلنا نموت يا ابنتي، وأنت وزوجك ما زلتما في مقتبل العمر، وتبدآن الطريق من أوله، وستنجبان من الأبناء ما يجعلكما عاجزين عن الاستمرار في إنجاب المزيد.
وعندما كانت صبحة تسمع كلام أمها، يشرق بصيص أمل في نفسها كأنه إشعاع ضوء، ومع ذلك تقول لأمها والحسرة تملأ نفسها:

- في بداية الطريق، يا أمي، وقد انكسرت مسحاتنا أو منجلنا، لو استعرنا هذا من وسط حياتنا.
وبعد أن تقول هذا، تحسّ أن حشرجة ما تعتمل داخل نفسها كأنها تخنقها، فتستنجد طلبا للحياة، فلا تجد أفضل من ذكر الله والاستنجاد به:
- إنّا لله، وإنّا إليه راجعون، وصبر جميل، وبه سبحانه نستعين..
عاد حسين من العمل في إجازته بعد عدة أيام وهو في شوق لا يستطيع أن يصفه إلا هو، ليس إلى صبحة والأقرباء فحسب، وإنما إلى أنور، وربما ناف وزن شوقه إلى أنور عليهم، وبدلا من أن يتجه إلى بيته، ذهب إلى بيت والد صبحة، مثلما هي عادته. وعندما طرق الباب، جاء أحد الأطفال ليفتح له

الباب، ولكن قبل أن يفتحها أسرع والد صبحة إلى الباب الخارجي وهو يتساءل:
- من في الباب؟
- أنا، يا عم.. أنا حسين..
- أهلا وسهلا بحسين، أجاب والد صبحة، وهو يهمّ بفتح الباب.
صافح حسين والد صبحة، ولكنه لاحظ أن والد صبحة عانقه هذه المرة، رغم أنه لم يكن يفعل ذلك إلا في الأعياد فحسب، ولم يسبق له أن فعلها في غير ذلك قبل هذا..
ومن غير أن يدعوه لكي يقعد في داره، قال أبو صبحة:
- صبحة وأم صبحة في بيتكم، يا حسين.
أجاب حسين:
- شكرا لك يا عم، لو سمحت، سأذهب إليهم، وقد نعود معا إليك..
- مع السلامة.. أجاب والد صبحة، و عندما أغلق الباب قال والد صبحة بصوت مسموع:
- إنّا لله، وإنّا إليه راجعون..
صارت المسافة كأنها أضعاف حقيقتها بين دار أبي صبحة ودار حسين، حيث صبحة وأم صبحة.. وجثمت على صدر حسين عشرات الصور والتساؤلات..
- لماذا هم هناك على غير العادة الجارية؟.. ترى، هل زعلت صبحة من أبيها، أو أمها، أو أحد ما، فذهبت إلى بيتنا..؟ ثم يعود ويقول: إن عمي، أبا صبحة، لا يسمح بذهابها للبيت وحدها.. ولكن أمها معها، لماذا ذلك؟.. هل ذهبت لترضيها من زعلها..؟ أم أن صبحة مريضة، وأن مرضها يستوجب أن تكون في بيتنا لكي لا تقلق أو تزعج والدها، الذي هو الآخر بحاجة إلى الراحة، وخاصة في الليل، إذا كان مرضها زكاما مع سعال؟
وعندما كان يتحدث عن احتمال أن تكون صبحة مريضة، يقفز إلى ذهنه احتمال أن يكون أنور هو المريض، وليس صبحة.. أما أن يكون أنور قد مات، فلم يخطر في باله..
طرق باب الدار، وفتحه ودخل، وفي اللحظة التي رأى فيها صبحة وعمته عديلة، وأم صبحة، عرف كل شيء. ومن غير كلام، جلس بعد أن سلّم سلاما عاما على الجميع.. جلس وصارت الدموع تنهمر من عينيه، من غير أن يردف الدموع صوت أن نشيج.
كان الرجال لا يبكون إلا آباءهم وإخوانهم الذين هم في سن البلوغ، أما على أبنائهم، فيحجمون أن يظهروا حزنهم عليهم، مخافة أن يحسب عليهم ضعفا.. ومع ذلك بكى حسين بصمت، بكى أنور، وبكى صبحة بعد أن رآها مهدمة، وبكى نفسه بعد أن أكلت الآفة زرعه.. ثم جفل من هذا القول وردد:
- استغفر الله، وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. وإنّا لله، وإنّا إليه راجعون..
ثم يصمت بعد أن يكفكف دموعه بطرف منديل يخرجه من جيبه، أو (كوفية) رأسه، ويجلس صامتا..
ثم تقول عديلة:
-يابة حسين الخلف براسك.. أتلاحظ، يا ولدي، كم ولدا وبنتا دفنت ولم يبق لي منهم أحد.؟ فداك حتى الشايب، وتقصد زوجها.. أما أنت وصبحة فما زلتما في بداية الطريق، وإذا كانت السفرة الأولى لم يصل ثمرها إلى نهاية الشوط، وفق ما أراد الله، فإن السفرة القادمة سيبلغ ثمرها نهاية الشوط، بإذن الله..
- اللي يريده الله يصير، يا عمة، أجاب حسين.. في الوقت الذي كان يرقب دموع صبحة تنحدر كشلال، وهي مطرقة برأسها، تردفها دموع حليمة أيضا..
- تنهد وقال..

- هوّني عليك، يا صبحة، كلنا زرع الله، وما يريده الله لا رادّ له.. حاولنا وزرعنا، وأراد الله ما أراد، وعلينا أن نضع عيوننا بعيون الله، ونترك له سبحانه ما يقرر.
قالت صبحة، بعد أن كفكفت دموعها:
- آمنت بالله، وإنّا إليه راجعون..
قالت عديلة السلطان، وهي ابنة عمة رباح والد صبحة..
- عفية، يابه حسين.. عفية، يمه صبحة.. أنتما في مطلع عمريكما والحياة أمامكما وليس خلفكما.. مثلما هو حال عمتكم عديلة.. حيث ترملت وليس لي ولد.. لقد أرادهم الله طيورا لجنته.. وها أنا، مثلما ترون، أكل وأشرب وأعيش..
قال لها حسين:
- فيك البركة، يا عمة..
أخذ حسين إجازة طويلة نسبيا، ليبقى إلى جانب صبحة، لأنها وفق ما قدّر بحاجة إلى من يعاونها على وحشة المكان، بعد أن فقدا ابنهما.
أفضت صبحة لحسين:
- عندما كنت اختلي بنفسي أعد خشب الدار، يا حسين.. بل أتصول ألوان الخشب كأنها أشكال، بعضها لوحوش تتحين الفرصة علينا، وبعضها كأنه أشكال شياطين، وأرى بعض الأشكال كأنها وجه أنور.. ويتحول صفير الريح، سواء في دار أهلي أو في بيتنا هذا، إلى أصوات تأتي أحيانا أنيسة كجناجل أنور، وبعضها موحشة بما يذكّر بحالة شؤم، فبارك الله فيك أن أخذت إجازة لتكون إلى جانبي.

----

(1) شفوف: مفردها شف، نسيج من الصوف، يستخدم غطاء مثل اللحاف

الجزء الثالث

من لا ينتبه، و تكون لديه عصا طويلة، تطمع فيه الكلاب، وتعضّه".. "
كان الجار غير المباشر لدار حسين رجل بين الكهولة والشيخوخة، متزوج من امرأة أصغر منه بكثير.. وكان أحد الأشرار من خارج محلتهم غالبا ما يستغل فراق العمر بين الزوج وزوجته، ليظهر نوعا من (الحرشة) بالزوجة، وقد شكته الزوجة إلى زوجها، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا، ذلك لأن المشكو منه رجل في مقتبل العمر، ورغم أنه متزوج، لم يكن يرعوي، إذا ما فتحت أمامه فرصة أن يضع عينه على إحداهن، وبخاصة إذا لم يكن لها والٍ قوي يخافه، وكان يعتبر من أشقياء المدينة.. كان الزوج جار الجار لدار حسين، وكان لا يستطيع أن يفعل شيئا بعد أن اشتكت له زوجته من ذاك الشقاوة (الشقي)، ورغم أنه قال لها: تجاهليه ولا تخرجي إلى الشط لجلب الماء (بالصرفية)، والصفرية هي المشربة وعبارة عن وعاء من الصفر (البرونز) على هيئة جرة، كانت بنات المدينة التي سنطلق عليها اسم (بنت النهر) ونساؤها يتزودن بالماء بها من النهر إلى البيوت على أكتافهن.. ولكنه ظلّ يشعر بأنه مقهور في داخله، لأنه لم يستطع أن يرد على تحرش 1لك الوحش الكاسر، ثم تساءل مع نفسه:
- أليس من لا يستطيع أن يحمي زوجته، لا يخيفها، إذا ما سوّلت لها نفسها الزلل؟.. بل، أليس من لا

يجد عقابا على فعل مشين يطمعه أكثر ليرتكب الفعل المشين؟ ثم أليس الإلحاح قد يجد ثغرته في نفس زوجتي إن لم أضع له حداً وأربّيه؟

ثم يقول مع نفسه:

- وكيف لي أن أربي هذا الوحش، مع ما لديه من إسناد عشائري وعدد إخوة، وأنا على ما أنا عليه من حال شبه مقطوع عن الإسناد إلا من رحمة الله، وأنا ما أنا عليه من ضعف؟ وتغرورق عيناه بالدموع، ويقول بصوت مسموع مع نفسه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

وعندها ينفتح أمامه الأمل كأنه إشعاع ضوء، يكشف له العتمة، ويطرد الظلام من نفسه وأمامه، ويقول مع نفسه:

- ليس أمامي إلا أن أشكوه إلى رباح، أبي مال الله وصبحه، فهو رجل شجاع، ألم يذبح ضباط وجنود (العصملي) فيما سمي (بدقة) عملة البيكات بعد أن تجبّروا على أهل مدينتنا..؟ ثم يتوقف ويقول:

- الله أكبر.. كيف نسيت حسين أبا (عمشة)- والقرب في الريف يكنون كل من يحمل اسم حسين بأبي عمشة، أو أبي علي، ولكنه إذا ما تزوج وأنجب، وسُميّ المولود، كنيّ به- إنه جار جاري، والرسول الكريم أوصى خيرا بجار الجار مثلما أوصى بالجار.. وحسين رجل شهم وشجاع، أليس هو الذي تغلّب على الذئاب الكاسرة في الشعاب الجنوبية لمدينتنا بخنجر وعصا (كلنك) – عصا في رأسها قطعة حديد مستطيلة تثبت عرضيا في الربد- عندما هاجمته خارج المدينة العام الماضي؟ ألم يضع حدا لواحد من الذين حاولوا في العيد الماضي مضايقة النسوة المتجمعات، مخترقا تجمعهن قرب المزار بفرسه المغيرة؟ ألم يلحق به حسين مغيرا هو الآخر، على فرسه، فأوسعه ضربا بعصا على ظهره ورأسه حتى أدماه، وجعل منه هزءاً أمام كل الناس، بحيث أن ذاك الشرير لم يعد يحضر على فرسه في العيد الكبير، ولا في الأعراس منذ ذلك الوقت، وتحلى بالأدب معه كل من كانت في نفسه نية فعل سيء إزاء النساء والرجال؟

كان الناس يحسون بالأمان عندما يحضر حسين أبو عمشة على ظهر فرسه أي مكان فيه تجمع فرح..

- نعم أبو عمشة (كدها)، يا الله ما أغباني!

يقول الرجل، ثم يضرب مقدمة جبينه بيده..

- كيف أنساه؟.. وماذا كنت سأفعل، أو أقول له، لو تخطيته وذهبت إلى رباح أستفزعه في هذا الأمر؟ بل وما الذي يقوله رباح عني وعن زوج ابنته وابن عمه، لو كنت قد استفزعته من غير أن أستفزع أبا عمشة؟ الحمد لله أنني اهتديت إلى معالجة الداء بالدواء المناسب له: أبو عمشة.. نعم إن إخوة هدلة، ومنهم أبو عمشة، أهل نخوة وغيرة، وهم سادة العرب، مثلما هم سادتنا، ويعرفون حق الجيرة، وحقوق الناس..

ولكنه عاد ليقول مع نفسه:

- ولكن كيف لي أن أستفزعه الآن في أمر كهذا، ولم يمضِ على وفاة ابنه إلا أقل من شهرين؟

ثم يعود ليقول:

- ولكن صاحب الحاجة أعمى، ومن في (عبه) نار لا يستطيع أن ينتظر، في الوقت الذي يرى المطفأة قربه.. لأذهب إلى حسين.. إن حسين شاب عاقل.. وسوف يعذرني لأنه يعرف ما يعنيه حال من يشعر بضعف أمام متجبر في أمر يخص عرضه.. نعم سيعذرني، وليس غيره من هو أفضل منه ليأخذ بثأري من هذا النذل..

ظل أمام الباب الخارجي لداره ينتظر حتى خرج حسين من بيته، وصار أمامه.. وبعد أن حياه حسين

وفق التقليد الصحيح بأن يحيي الماشي الواقف أو الجالس، وردّ عليه التحية، قال:
- لو سمحت، أبو عمشة، عندي حاجة سأقولها لك..
وبعد مقدمة إطراء مما استذكره عن حسين وأهله وعمومته وكل العشيرة.. قال لحسين:
- نحن جيرانكم، وضمن مسؤولية حمايتكم..
قال حسين:
- خير.. قل يا رجل، أنا عندك، وعين عيونك.. وهي نخوة أهل الريف إذا ما أرادوا أن يشدوا أزر أحد..
قال الرجل:
- والله، يا أبا عمشة، وقع عليّ ظلم لا أستطيع أن أرده.. بل ليس عيبا أمامك، وأمام نخوتكم وقدرتكم، أن أقول أنني أحس بضعف إزاء رجل ظلمني، ولا أستطيع الرد على ظلمه..
وعندما حكى قصته، وذكر اسم من ظلمه وضايق زوجته واستمر في ذلك، تطاير الشرر من عيني حسين، وتحول لون وجهه الأشقر إلى ما يقرب من لون (كبدة!) واحمرّت عيناه، وعضّ على شاربه.. وهو يصفق يدا بيد:
- أيابه.. باطل.. أنا أعرف أن هذا الذي تحدثت عنه نذل.. ولكن كيف تجرأ على أن يأتي إلى محلة السكماني وهو ليس منها؟.. بل كيف تجرأ على أن يتحرش بعائلة تحت حمانا؟ والأدهى أنكم جيراننا؟ أي إهانة كبيرة يوجهها إلينا كلنا نحن السادة في السكماني؟.. بل وإليّ مباشرة!؟
وعندما استفسر منه حسين أكثر، قال إنه رأى زوجته في طريقها إلى نهر دجلة، لتملأ صفريتها من هناك، وتبعها في الغدو والإياب، وتعقبها إلى أن دخلت الدار.. وبعد أن عرف دارنا.. صار يفعل ذلك يوميا.. بل الأكثر من هذا.. صار يأتي في الليل.. ويمر أمام الدار، ثم يصفر مرة أو مرتين.. ويذهب.. وقد منعت زوجتي منذ أيام من أن تذهب إلى النهر، وصرت أقوم بذلك على ظهر دابة..
قال حسين:
- هل يحتمل أن يأتي الدنئ اليوم؟
أجاب الرجل:
- نعم..
- أرجوك، إذا جاء، اصعد من فوق سطح دارك على سطح دار عمتي عديلة، ثم على سطح دارنا، وادبك برجلك على سطح دارنا، وسأتولى أمره..
قال الرجل:
- أرجو حلمك عليّ، أبو عمشة، كيف تريدني أن أتجاسر على سطح دار عمتك، ثم على سطح داركم؟ وماذا يمكن أن يقول عني الجيران لو رأوني وهم لا يعرفون شيئا عن الحال الذي أقوله لك الآن!؟ وماذا يمكن أن يتكون في نفوسهم ضدي سراً أو علانية؟ وماذا يقولون عني غير لص غادر؟
تأمله حسين وهو يداور كلامه في نفسه، ووجد أنه محق في ما قاله، وأنه يعرف معانيه، ولكن نخوته وحماسته جعلته لا يتوقف أمام مثل هذه الاحتمالات.. اخرج حسرة وزفرة من صدره، ثم قال:
- إنك رجل شريف.. أسألك، أليس لديكم سراج أو فانوس؟
- نعم، لدينا سراج.
- هذا جيد.. راقب (الدربونة) الزقاق أمام داركم من فوق سطح الدار، وليكن السراج قريبا منك، وإذا لاحظت ذلك الدنيء يمر من أمام بيتكم، أشّر لي بالسراج، وسأكون أنا- قال حسين- منذ غروب الشمس على سطح الدار، حتى أنني سأؤدي صلاة المغرب هناك، وستكون عيني على ستارة داركم،

وسأجعل حتى صبحة تعاونني وتناوبني في هذا. وبعد ذلك سأتدبر الأمر..
شكره الرجل، وهمّ بأن يلتقط يده ليقبلها، لولا أن سحبها حسين وهو يقول:
- أستغفر الله، عيب يا رجل، نحن أهل إلا ما حرّم الله، ما دمنا أبناء محلة واحدة، فكيف إذا كنا جيرانا!؟
قال الرجل:
- لا خاب من هو جاركم، يا أبا عمشة، وتعدتك المنية..
كان حسين يراقب الحال من فوق السطح، هو وصبحة بالتناوب، أو كلاهما معا، وظلا يراقبان طيلة تلك الليلة، ولكن عندما حكى حسين لصبحة موضوع الدنيء مع جيرانهم لتعاونه في مهمته.. قالت صبحة:
- كيف تجرأ هذا الكلب العقور على هذا الفعل؟ وإذا كان قد توهم لأول وهلة، فكيف تجرأ ليديم تحرشه بامرأة لم تعطه وجها!؟
قال حسين:
- وماذا تظنين؟
- أعوذ بالله من الظن، يا ابن العم، ولكن أردت فقط أن أنبهك إلى ما يجب.. لأن النساء ثلاثة أشكال- وتقصد أنواع- واحد من الثلاثة المرأة الحشيمة – تقصد صاحبة الحشمة- ومن تتذكر نفسها وتذكرها بما لا يجعلها تنسى أن اعتبارها واعتبار أهلها هو سياجها داخل نفسها لتكون حصينة، والنوع الثاني هي التي لا ترتقي بها الحصانة إلى داخل نفسها، ولا تقيم في ذاتها تلك الاعتبارات التي عليها النوع الأول، ولكنها تخاف (وليانها)، فتحجم عن عمل السوء، أما النوع الثالث، فهو الذي لا يتوفر فيه الحد المقبول من الحصانة الذاتية، ولا الاعتزاز بالمعاني العالية، ولا تخاف من (وليانها)، إذا كانت تظن أنهم ليسوا بالمستوى الذي يقطع دابر السوء ويدفنه عندما تظهر جيفته.. فأي نوع ترى امرأة جارنا، هذا الرجل المسكين، يا حسين؟
- لا أعرف تفاصيل كثيرة عنها لأجيبك بدقة، ولكن زوجها رجل مستور، وليس قويا بما فيه الكفاية، وهي يتيمة، وإخوتها صغار في السن..
- على أية حال، لا بد أن تقوم بواجبك تجاه هذا الكلب، لأنه تجاسر على جيراننا.
ولم يحصل أن أوقد السراج في تلك الليلة.. حتى أن حسين، خشي أن الرجل لم يتمكن من إيقاد السراج، أو أنه أوقده وأطفأه الهواء، أو أنه لم يشاهده عندما اتقد، ولذلك ذهب إلى بيت جاره قبل أن ينام.. وبعد أن طرق الباب خرج إليه الرجل وسأله:
- ألم يأتِ الدنيء؟
قال:
- لا، لم يأتِ، ولكنه سيأتي حتما مساء غد، إن لم يأتِ ظهرا. ثم أردف قائلا:
- لا.. لن يأتي ظهرا، بعد أن عرف أن زوجتي لم تعد تخرج إلى الماء..
قال حسين:
- على أية حال، لنبق نتصرف وفق ما اتفقنا عليه..
- نعم، أمرك أبو عمشة..
وفي اليوم التالي، بعد صلاة المغرب، لاحظ حسين السراج وهو يتقد على ستارة سطح جاره، وكان يتحزم بحزام، ووضع على جنبه خنجره، وقربه عصا غليظة أعدها لهذا الغرض.. وبدلا من أن ينزل من السلم إلى داخل الحوش، ومن ثم يفتح الباب الخارجي ويستدير في الدربونة إلى حيث مكان جاره

(جار الجار)، قدّر حسين أن هذا قد يضيع عليه فرصة الظفر بالدنيء، فقفز من فوق سطح منزله إلى الأرض من الخلف، وجاء سقوطه على القسم الأسفل من ظهره في منطقة (العصعص).. وشعر بعينيه تقدحان نارا، وآلمه ظهره ألما شديدا، ولكنه نهض والتقط العصا التي سقطت من يده أثناء ذلك، وتحسس خنجره، فوجده في مكانه.. وركض رغم الألم الشديد الذي كاد يسقطه على الأرض مغميا عليه، ولكنه تحامل على نفسه وهو ينتخي:

- أنا أخو هدلة..

وصل إلى الدنيء، وصاح به بقوة:

- ما الذي جاء بك إلى هنا، أيها الخاسيء؟

وقبل أن يتحسس الخاسيء خنجره في وسط حزامه، عاجله حسين بضربة على رأسه، وأخرى على رقبته، فوقع على الأرض مضرجا بدمائه وهو يصيح ويولول:

- دخيلك أخو هدلة.. دخيلك أبو عمشة

- أيها الغادر، أجابه حسين، تريد أن تكون تحت حمايتي، ممن؟ أتريد أن أحميك بالباطل على الحق، يا خاسيء!؟

جاء جار حسين يركض، وبيده عصا غليظة، وهمّ بأن يضربه على رأسه، وه8و ممتد، لولا أن عاجله حسين، فوضع عصاه أمام عصاه، فجاءت الضربة على عصا حسين، والتقط حسين عصا جاره ليقول له:

- ما فعلته به يكفي، يا صاحبي، اجعل نفسك كما الآخرين، ولا تظهر بالصورة، لكي أتدبر أمر هذا الدنيء..

فتح الجيران أبواب دورهم، وخرج كثر من أهل المحلة، وسألوا حسين عن الأمر فقال لهم:

- إنه حرامي (1) (لص) جاء يسرق دار جاري، فأمسكت به، بعد أن استغاث جاري بي، وكذا همس في أذن الملعون، قبل أن يحضر أهل المحلة.. وقد كثرت على الحرامي (النعل) من النساء،ورماه الأطفال بالحجارة، وراح الرجال يبصقون عليه، وصاح أحدهم مخاطبا حسين:

- لنذهب به إلى (الحفيز) يا أخو هدلة.. (والحفيز) معربة محلية من (الأوفيس) الإنكليزية.

قال حسين:

- نعم نذهب به إلى هناك ليحاكم كلص، أو يتعهد أمامكن بأنه لن يأتي ثانية إلى محلة السكماني أبدا، ولن يحاول سرقة أحد من أهل مدينتنا، وإذا تعهد بهذا أطلقنا سراحه، وإلا فإنه بعد ذلك يعرف عقابه.

وغمز الدنيء بطرف عينه، وقد فهم الدنيء ذلك، وقام وتناول يد حسين وقبّلها.. وقال له:

- حذاؤك، أخو هدلة، على رأسي، لن تطأ رجلي محلتكم بعد الآن، ولن أحاول أن أضع.. أراد أن يكمل ليقول: عيني على امرأة.. عفوكم، أقول لن أحاول أن أسرق أحدا.. أرجوك اعفني، أخو هدلة.. أنا دخيلك، بعد أن نلت ما أستحقه..

عند ذلك أطلق حسين سراحه، وبذلك ستر العائلة الكريمة من محاولته، وما يمكن أن تبني عليها عقول الجهلاء ومن يحبون الكلام والتأويل، وفي الوقت نفسه جازاه بما يستحق..

تصولُ الليالي والسيوفُ تطاول
ستعقرها حتما وتبقى الفضائلُ

ويؤخذُ مغلوباً بها كلّ عاصفٍ
إذا أوهموهُ أن ينجيه باطلُ

ففي كل ساحٍ تشرقُ الشمسُ عندنا
ويروي ثراناً كلما شاءَ هاطلُ

فنحن أُباةُ الضيمِ بيضٌ أكفنا
وحتفٌ مخيفٌ إن تجاسرَ سافلُ

يردُّ عليه سهلنا وجبالنا
ونهرٌ وشطٌّ من ربانا وساحلُ

وما همّنا يومٌ ثقيلٌ وإنما
يصدُّ بحق كل ما هو باطلُ

****

ازداد الألم على حسين في أسفل ظهره وجنبه، وبدأت صحته تتدهور.. غير أنه اعتدل في غضون أيام، عندما أسرّته صبحة بأنها حامل، ولكن سروره بطفل موعود لم يغيّر شيئا في جوهر حاله، واستمرت صحته تتردى عن مستواها.. بلد ازدادت ترديا حتى بعد أن مضى على حادث الدنيء ثلاثة أشهر، وهو ينتقل بين الفتحة والبيت، وكثرت إجازاته على غير عادته.. أملا في أن تكون الراحة وسيلة إنقاذ لصحته.. ولكن مع الزمن الذي لم يزد عن عدد من الأشهر صارت الأيام التي ينقطع بها حسين عن العمل أكثر من الأيام التي يكون فيها في العمل، وعندما أفضى إلى أحد أبناء عمومته في العمل بتفاصيل ما كان يحس به من ظواهر المرض، ومن بين ذلك أنه بدأ عندما يتبول يلاحظ أن الإدرار صار تدريجيا يأخذ لون اللبن تخالطه سمره..
عندها قال له:
- أخشى أن تكون كليتيك قد أصابهما سوء، لا بد أنك تتذكر فلانا العبيدي.
- نعم، أتذكره، رحمه الله..
- كان صديق كثر من الولد (يقصد شباب الديرة) عندما وقع من على ظهر فرسه وأصابه الشيء الذي تشير إليه الآن، وقد عرض على أحد الصلبة دون جدوى (والصلبة اسم يطلق على قسم من الناس، يشبهون الغجر، وقد أسماهم أهل الريف بالصلبة وقد يكونون من بقايا الصليبيين من جيوش الغرب التي جاشت على فلسطين، وسحق العرب جيوشهم بقيادة صلاح الدين الأيوبي، في سلسلة معارك كانت الحاسمة فيها معركة حطين، وهم، على أية حال، غالبا ما ينقلون الأخبار من مكان إلى آخر، وهم يمتطون الحمير لا غير.. لا يركبون الخيل أو الجمال، وفي نفس الوقت يعرفون بمهنة التطبيب والمعالجة بالأعشاب، أو الإبر، أو الحجامة أو الكي).
عاود محدث حسين ليقول:
- عندما عرض ذاك الرجل العبيدي على الصلبي قال له: إن سقطتك من فوق الفرس جعلت إحدى

كليتيك تتمزق، ولهذا السبب صار إدرارك أبيض كاللبن، مائلا إلى السمرة.
عندها قال حسين:
- نعم لقد سقطت فعلا على جانبي الأيمن، وأنا أقفز من السطح، وأخشى أن تكون كليتاي قد أصابهما أذى، بالإضافة إلى الألم في العمود الفقري.. ولكن هل بإمكاننا أن نحصل على صلبي لأعرض نفسي عليه؟
أجاب محدثه:
- لا أعرف، ولكن سأضع عيني عليهم إذا مرّوا للعبور من الفتحة، وسأوصي آخرين ليبحثوا عن واحد منهم، ولكنهم، مثلما تعرف، لا يستقرون في مكان، ولا يعرف لهم سكن، ولذلك ما علينا إلا أن ننتظر الفرصة والصدفة.. ولم تحصل الفرصة، ولم تنجح المصادفة لترجيح ذلك، ولم يستطع حسين أن يستمر في العمل حتى وفق الوجود الرمزي، وقد نصحه شقيقه سليمان، الذي كان يعمل في الفتحة أيضا، بالعودة إلى المدينة لكي يرتاح هناك، قائلا أنه سوف يتدبر أمر معيشة العائلتين، عائلته وعائلة حسين.
- ومن راتبي، هكذا قال سليمان، إلى أن تعود إلينا بالسلامة، يا أخي، مشافى معافى بعون الله..
كان قلق صبحة يزداد من تدهور صحة حسين، ورغم أنها لم تلاحظه يولول من المرض، ولكنها كانت تلاحظ أن كل شيء في صحته ينهار، وتفضي إلى والدتها بذلك، وكان والد حليمة من بين قلائل في المدينة ممن يعرفون القراءة والكتابة، لكنه لم يكن من عشيرة رباح والد صبحة، وكان (يخطخط) يكتب أحجية تتضمن أدعية لمن يطلبها، وهي عبارة عن آيات قرآنية وأدعية مما يعرفه، بينما كان أبناء عشيرة حسين ورباح لا يقومون بذلك لأنهم سادة، بل ربما كانوا لا يقومون بذلك لأنهم يعرفون أن السادة الحقيقيين ينبغي أن يتجهوا إلى الله، ولا يضعوا أنفسهم موضع وسيط، أو موضوع تصور بأنهم يمكن أن يشفوا من يشفونهم من داء أو مرض.. وربما يكون سبب شفاء من يكتب له الشفاء من بعض الأمراض، ومن بينها الاحتباس الجنسي، أو العجز الجنسي، نفسيا، ذلك أن من يدخل نفسه أن صاحب الوسيلة يشفيه فعلا، يكون حاله النفسي على هذا التصور، ولأن كثرا من الأمراض ذات منشأ نفسي، كان هذا الشعور الأساس الذي يلعب دوره في النتيجة، وليس أصحاب الشعوذة والسحر والقراءات الخاصة والأدعية والأحجبة.. على أية حال من يغرق وليس لديه وسيلة يعتمد عليها لإنقاذه، يتوسل بالقشة، وفي ظنه أنها قد تنقذه من الغرق. وعندما يقول لهم حسين وهو يبتسم:
- عمة، ما الذي يمكن أن يفعله ماء ينفع عليه والدك؟
تقول:
- لنحاول، يا ولدي، فقد جعل الله لكل شيء سببا.
وعندها تقول صبحة:
- آمنت بالله..، نعم يا حسين لنحاول..
وعندما تستدير حليمة مبتعدة عنهما، يهمس وهو يبتسم من شعور بالألم:
- وما الذي فعله جدك مع أنور؟ ألم يمت أنور رغم أنه (عزّم) على رأسه مثلما تقولون؟.. الحي حي والميت ميت، يا صبحة..
- توكل على الله، يا حسين، واطرد الوساوس من صدرك.
- نعم، يا صبحة، على الله نتوكل أولا وأخير، وهو ربنا، وبه نستعين، افعلا ما تريان أنت والعمة حليمة أنه يفيد..
****

في أحد الأيام استيقظت صبحة مرعوبة من رؤيا قصتها على حسين والدموع تنهمر من عينيها..
- رأيت نسرا أسود، بشع المنظر، ليس كالنسور أو الحدآن التي نراها في الكهوف المطلة على شواطئ النهر أو في الريف، وإنما منقاره طويل.. ومخالبه طويلة ومعقوفة.. رأيته يحط على (ستارة) دارنا، ثم انقض على خنجرك، والتقطه بمخالبه من قرب رأسك، وعبثا حاولت أن أطرده لأمنعه من ذلك، وكنت أصيح بأعلى صوتي، بأمل أن تسمعني وتعاونني عليه.. ولكن صوتي لم يعاونّي ليظهر.. وها قد استيقظت على صوتك وأنت تئن..
- متى كنت أئن؟
- نعم، لقد سمعتك تئن، يا ابن العم.. لماذا تكابر!؟
- لا والله، لا أقصد المكابرة، أو أضم عليك شيئا، ولكنني استيقظت على صوتك وجلوسك على الفراش..
- أنا خائفة من هذه الرؤيا. قالت صبحة
- ضعي الله بين عينيك، يا بنت العم
أراد حسين أن يغير على صبحة تركيزها على الرؤيا، رغم أنه في داخله لم يرتح لتلك الرؤيا..
- ماذا سنسمي ابننا، إذا رزقنا الله بولد؟ وماذا نسميها لو جاءت بنتا؟
- على كيفك.. قالت صبحة.. ولكن الأعراض التي لاحظتها عندما حملت بأنور ألاحظها الآن، مع أن العلم عند الله، ولكن اليقين داخل نفسي يقول لي إنه ولد ليعوضنا الله به عن أنور.. ولا بد أن أقول لك، يا حسين، أنني لم أعد أفكر الآن في أنور الذي توفاه الله، ولا حتى في من في بطني، إن الأساس الذي يهمني هو أنت، إذ بدونك، ماذا يفيدنا الولد؟.. وماذا يعني من غير أن يكون أبوه حيا؟
عندها قال حسين.. وكأنه يهيئ صبحة لاستقبال أمر واقع لا محالة مثلما يظنه..
- إنك أمه.. أخت مال الله.. وإن رباح أبوه مثلما أنا أبوه.. وإن سليمان أبوه.. وراح يعدّ إخوته الثلاثة.. ثم قال.. وإن خاله مال الله أبوه أيضا.
وعندها أحسّ بما يضيق عليه حنجرته من عبرة حزينة، لكنه حاول أن يغالبها، لكي لا تظهر على صوته، فلم يجد ما يداريها ليخفيها غير السكوت والاستدارة بوجهه ناحية الجدار الذي وضع فراشه بموازاته، ولكنه لاحظ وهو يهمّ بأن يستدير أن عيني صبحة كانتا تسكبان الدمع مدرارا.. فقال:
- أنا أخو هدلة، صبحة!!؟ ما الذي حصل معك لتبكي؟ توكلي على الله.. فما هي إلا أيام حتى أنهض وأكون بأفضل حال، ونحن نستقبل مولودك الجديد.. كم بقي له.. إذا سهّل الله؟
أجابته صبحة:
- ثلاثة أشهر، ربما..
- على أية حال، إذا كان ولدا نسميه مثلما اقترح عمه حسن، عندما زارنا البارحة.. نسميه صالحا، جعله الله من الأبناء الصالحين لنا ولكل أهله وشعبه، وإذا كانت بنتا فسمّها أنتِ، يا صبحة..
قال ذلك وتبسّم، وتبسمّت صبحة، ووضعت طرف فوطتها على فمها لتخفي ابتسامتها مثلما هي عادتها.. وأردف حسين:
- أما إذا أخذت برأيي، فأنا أحب أن نسميها فاطمة.
- يا حسين، أم أحمد فاطمة، وقد توفاها الله.. فهل يجوز أن أسمي ابنتي باسم عمتي أم أحمد؟
- وماذا في ذلك؟ أليس الاسم أحياء لذكر الميت!؟
- ولكن، ألا تعتقد أن اسم فاطمة كبير على طفلة؟ وأن من يناديها باسمها ستحضر في باله المقارنة بينها وبين عمتي أم أحمد؟ وأنت تعرف، يا حسين، كم هي غالية عليّ، وكف هي (خاتون) النساء

بحق! (وكلمة (خاتون) أعجمية تعني بلهجة ذلك الزمان، المرأة الحصينة الحصيفة الحبابة)..
عندها قال حسين:
- إنها ابنة صبحة، وستكون هي الأخرى خاتونا وحبابة.. أليست أمها صبحة، وجدتاها حليمة لأمها، وياسة لأبيها؟
قالت صبحة:
- وأبوها حسين.. ثم ضحكا
- أخشى أن نتحول إلى كوخات كرد يمدح كل منها الآخر. قال حسين، وضحكا مرة أخرى حتى بانت نواجذهما

****

عندما عرفت العشيرة بمرض حسين، توافد الرجال والنساء على داره ليعودوه، وكان أكثرهم من كبار السن من الجنسين، أعمام وأخوال حسين وصبحة، وآخرين من أعمامهم الأبعدين، ومنهم بخاصة الذين يلتقون بما لا يزيد عن خمسة أظهر مع عمر الوسطاني، مثلما أسموه، وهو واحد من ثلاثة أجداد كلهم سمّي عمرا، من عشيرة السادة في مدينة بنت النهر، أو في القرية المجاورة لها والمسماة رمز القرى.. ولكن أغلبيتهم، وبخاصة الموجودون منهم في قرية رمز القرى، والعدد القليل الإضافي الساكنون في بنت النهر ومنهم حسين، يلتقون عند عمر الثاني (الوسطاني).. كانت صبحة إذا ما زاره واحد من كبار السن من أعمامهم وأخوالهم، لبست عباءتها، ورفعت فوطتها لتغطي فمها ومقدمة أنفها، وجلست معهم، أو وقفت قربهم لتقدم ما يلزم، وهو نزل يسير، ولترحب بهم، وتجيب عن أسئلتهم عن حالة حسين الصحية وأسبابها، مثلما هي عادة من يعود مريضا في السابق أو الآن.. وإذا جاء شبان لزيارته، وغالبا ما كانوا يتجنبون ذلك لكي لا يحرجوا صبحة أو حسين نظرا لضيق المكان، ذهبت إلى البيت (الجوة)، وتولّت عديلة السلطان عنها واجب الضيافة أو الإجابة عن الأسئلة.. أما إذا ما كان الزائر من النساء، تبقى صبحة إلى جانب حسين لتلبي له طلباته، وما يحتاجه المريض، إما لتغيير وضعية جسمه أثناء النوم، أو لنقل الوسادة من طرف الفراش إلى الطرف الآخر، أو وضعها خلف ظهره، عندما يقعد متكئا بظهره إلى الجدار، أو رفع (الشف) وإنزاله على ساقيه، أو رفعه حتى لا يبان إلا وجهه بعد دقائق، وكل ذلك يحصل تعبيرا عن (لوبة) الروح، بمعنى الضجر، أو استجابة لمتغيرات حال الجسم، عندما يكون مريضا..
هكذا بقي حال حسين، وبقيت معه صبحة ليلا ونهارا، تستجيب بيقظة دائمة لكل همسة أو التفاتة، وتتفاعل مع كل حسرة أو تأوه (آه)، ومع كل طلب مما ذكرنا..
****

اشتد مرض حسين في شتاء تلك السنة، حتى صار واضحا أن نجمه قارب نهاية الأفق البعيد.. كانت صبحة تذرف الدموع من غير انقطاع، ولكنها كانت تفعل ذلك بصمت لكي لا تعصر قلب حسين عليها.. كانت تفعل هذا عندما ينام، وقليلا ما كان ينام في الأيام الأخيرة من حياته، بسبب الآلام التي كانت تعتصره جرّاء مرضه، الذي لم يعرف على وجه التحديد.. وكيف لهم أن يعرفوا مرض من يمرض آنذاك في مدينة بنت النهر، أو حتى في مدن العراق وقراه من أقصاه إلى أقصاه؟ وأين هم الأطباء الذين لم يكن عددهم يزيد عن أصابع اليد من الإنكليز، الذين جاءوا مرافقين لجيش الاحتلال عام

1917 عندما دخل الإنكليز بغداد ليحلوّا محل العثمانيين الذين هزموا في الحرب العالمية الأولى، أو أولئك الذين جاءوا لتطبيب الأجانب من الإنكليز والفرنسيين والهولنديين والأمريكان العاملين في نفط كركوك، وكانوا أحيانا يقدمون خدمة محدودة كجزء من صورة الدعاية العامة لما يحاول عليه المستعمرون، فيفحصون ويداوون هذا أو ذاك، وربما كان معهم عدد قليل من الأطباء العراقيين، ولكن هل يمكن أن يهتدوا إلى بنت النهر، أو إلى مريض فيها؟ أم إلى رجالهم وأصحاب الجاه والسلطان!؟ وهل تقدم الرشوة إلى لمن تكون نفسه مهيأة لأن يستجيب لها، ويكون متهافتا على تأدية خدمة!؟ وماذا يمكن أن يفيدهم حسين ليقدموا له خدمة كهذه!؟ وهو من عشيرة معروفة بأنها حاربت الأتراك، وقتلت ضباطا وجنودا منهم، وكان رباح في مقدمة من صال عليهم، وكان (حوش) عديلة السلطان، و(دربونة) السكماني أبرز شاهدين على الكيفية التي صرع بها أعمام حسين ووالد صبحة سبعة منهم في يوم واحد، في ذلك المكان، ومنهم من كان برتبة (يوز باشي)، وابن أحد قادة جيشهم، الذي على إثرها أحرق كل بيوت أعمام حسين وصبحة من الساكنين في بنت النهر، بعد أن وجوهم قد هربوا باتجاه الجزيرة على ظهور خيولهم، وظل رجال العشيرة يغيرون عليهم، ويقطعون عليهم الحركة في دجلة، حيث كانت (الأطواف) تنقل المؤن بين أعالي العراق من الموصل وأربيل إلى بغداد، بالإضافة إلى ما معروف عن هذه العشيرة التي جاءت من الحافة الشمالية لوسط العراق حيث بنت النهر على الضفة اليمنى لنهر دجلة، لتشارك الثوار العراقيين في ثورة العشرين، التي اشتعلت شرارتها في الفرات الأوسط، وامتدت إلى جنوب العراق، ومن بعد ذلك إلى العراق كله، وتسبب ذلك في اعتقال عدد منهم ومن ثم نفيهم إلى الهند، ومن بين أولئك شيخ العشيرة أحمد الخطاب وعمه حسن العمر.. بل هل يمكن أن تدل فلوس حسين، أو فلوس أهله، على طبيب؟ ومن أين لهم بالفلوس في بنت النهر؟ وكيف تجد طريقها إلى بيت حسين الذي انقطع عن العمل منذ عدة أشهر!؟ وهل يمكن لعامل، أو فلاح، أو حارس، أو من هو في مقامهم أن يهتدي إلى طبيب، أو يهتدي إليه طبيب في ذلك الزمن، ومن مِن أولئك الحاكمين يعرف الله، ويقدر أحكامه حق قدرها، ويعيش الشعب في ضميره، وقد تحرر من المستعمر، ليعرف الشعب، حتى يهتدي إلى بيت حسين ليعالجه؟

أوشكت الشمعة التي كان نورها ساطعا في ركن من أركان محلة السكماني أن تنطفيء، وعندما لم تبق إلا ذؤابة أو ذؤابتين من تلك النجمة قبل أن تنطمس نهائيا في الأفق، كان حسين في شبه غيبوبة في ذلك اليوم، ولكنه كان يفتح عينيه من حين لآخر، ليسأل عن سليمان، الذي كان مؤملا أن يحضر إلى بيت حسين، بعد أن أوصلوا إليه رغبة حسين أن يراه، قبل أن يغادر إلى الدار الآخرة.. ولكن سليمان تأخر، بينما رأى حسين كل إخوته الآخرين، وأقاربه نساء ورجالا على ما أسلفنا..

كان حسين يفتح عينيه بعد أن يلتفت برأسه باتجاه الجالسين على يمينه، ويسأل:

- ألم يحضر سليمان؟

وعندما يجيبه أخوه حسن: إنه لم يحضر، ينفث حسرة كأنها حشرجة.. ثم يقول:

- لقد تأخر سليمان!!..

وغابت آخر ذؤابات النجمة الساطعة.. مات حسين، وبموته غرقت محلة السكماني في عزاء كامل، شمل مدينة بنت النهر كلها، ومعها رمز القرى.. وخرج الناس خلف جنازته رجالا ونساء، يتقدم الرجال النساء وهم يحملون نعشه، ويتركون المقبرة للنساء بعد الدفن، لكي تقول إحداهن بحق المتوفى ما تقوله، وتردد النساء مقاطع مما تقوله، ثم تصيح إحداهن بصوت يرتفع على ما حوله: يا خوية.. أو يا عمي.. ويعقبها صوت " يبووه.. بعد مد (الواوين) وتسكين الهاء"، ثم تردد اثنتان من (العدادات) من أهل المدينة، وليس من أهل حسين، وصدراهما شبه مكشوفين، بعد أن تزيحا

فوطتيهما قليلا، وهما يضربان صدريهما بمجمع أيديهما كل على انفراد، صوت: حو... حو... حو...

أعاين ممزوجا من الماء والسنا
لتزهو من فوق الجراح نفوسنا

حريق هو الحب الذي إن أردتهُ
وجربتهُ صارت لك النار ديدنا

وتلتهبُ النارُ التي من لهيبها
تحول فيها قدرة المرء للونى

إذا ما أتى مجدا يريد حياته
ليسقي عطاشى أو ليروي من ضنى

إذا ما دنا منك احترقت بناره
وإنك إن أبعدته زادك العنا

تخالط فيه مره مثل حلوه
كما جاور الرمضاء درّ لمن دنا

جاء وصف حرامي للسارق في العامية من معنى أنه يحوز المال الحرام بالسطو، أو بانتهاز غفلة غير مشروعة

الجزء الرابع

" كلّ يرى وفق ما بذر، ويحصد على قدر همته، ويجمع من المحصول وفق ما اعتنى به"..

بقيت النساء يجلن بعباءاتهن، وأيديهن اليمنى تتناوب مع اليسرى، في صعود وهبوط متخالف، وأخريات (يخمشن) الخدود، أو يلطمن على الصدور حتى يدمينها تعبيراً عن المأساة.. وبعد ساعتين أو نحو ذلك، قامت الأكثر تأثيرا وقربى فيهن، لتقول:

- يا الله يا نسوان (نساء)، يا الله يمّة نروح للبيت.

ثم ينتقل معهن إلى البيت المنظر ذاته، وأحيانا بدرجة أخرى من الحماسة وإيذاء النفس، أما أصوات الـ (يبووه) و (الجولة) وضرب الصدور وترديد كلمة (حو.. حو.. حو).. فتستمر، ولكن هذه المرة قد تجول إحداهن مولولة مع من تقابلها من غير عباءة لأنهن في الدار.. وأما صبحة فقد قصت شعر رأسها، وازرّق ما حول عينيها من اللطم (الكفخ) عليهما.. وكانت قبل أن تذهب إلى البيت معهن قد تهالكت على القبر وهي تبكي وتنوح، وكلما حاولت إحدى عماتها أن تبعدها عن القبر لتعود معهن إلى البيت، تشبثت بالقبر، وهي تقول:

- اتركنني.. أرجوكن.. أليس في قلوبكن رحمة؟ اتركنني أموت هنا إلى جواره..

وتأتيها الأكبر سنا من بين عماتها، هي عديلة السلطان، لتقول لها:

- ابنتي صبحة، الميت لا يعود، عليك بحملك إذا كنت تحبين حسين.

وتجفل صبحة، وتنظر إليها باستنكار مع سماعها عبارة (عليك بحملك إذا كنت تحبين حسين) وتهمّ بأن تقول لها كلاما قاسيا، لولا أنها تذكرت في آخر لحظة أن من قالت تلك العبارة هي عمتها أو خالتها، وأنها تحبها كما تحب حسين، ولكن الحرص على الطفل الذي في بطن صبحة هو الذي دفع عمتها لتقول ذلك، مع أن الكل يعرف مستوى حب صبحة لحسين وإخلاصها له..

وهنا تذكر ابنها صالح، الذي كبر وصار رجال، وقال في نفسه ولكن بصوت مسموع:

- أرجو أن تسامحيني، يا والدتي الحبيبة، لأنني تحدثت عن الولادة والحمل، مع أنني أعرف مدى استنكارك لذلك، ولكن ما عساي أن أفعل.. وهناك من يلحّ عليّ لكي أقول وأكتب شيئا عن هذا الموضوع، حتى لو جاء في رواية؟.. أرجو صفحك، وأرجو مغفرة الربّ الرحيم لك ولوالدي.. تغمد الله روحيكما الطاهرتين بحنوه، وأسكنكما فسيح جناته.

****

" من يستعجل قطف العنب قبل نضوجه، يأكله حامضا حصرم"..

انتقلت صبحة إلى دار أبيها بعد انتهاء العدة، بعد أن كانت أمها رافقتها لتسكن معها في دارها، دار حسين، طيلة فترة إمساك العدة، وكانت عديلة السلطان ترافقهما حتى أثناء النوم كل فترة العدة.

وبعد أن عادت صبحة وأمها إلى بيت أبيها، كان مال الله قد تخرج من الكلية العسكرية برتبة ملازم في الجيش، وكان في صنف الخيالة، وعندما استورد العراق أول سرية دبابات، كان مال الله واحدا من فرسانها، وقد سكن ما الله في بغداد، لأن وحدته كانت فيها، وكان قد تزوج منذ تخرجه من المدرسة الريفية كمعلم من السيدة لؤلؤ.

كانت لؤلؤ جميلة الشكل، عفيفة، نظيفة، أصيلة.. ولكنها لم تكن سلسة الطباع، ولم تألف حياة (بنت النهر) ولا نوع طباع أهل ما الله، الذين تغلب على حياتهم وطباعهم حياة أهل الريف، مع فوارق نسبية خاصة أدخلتها في حياتهم حليمة، أم مال الله، بوصفها بنت مدينة أساسا، وأدخلها مال الله عليهم، بعد أن درس في المدرسة الريفية وفي الكلية العسكرية حتى تخرج منهما على التعاقب، وكانت العائلة المؤلفة من الأم والأب وخمس أخوات وأخ صغير تسكن نفس الدار الذي تسكن فيه لؤلؤ أيضا، وهو دار رباح الذي أنشأ فيه مال الله غرفة منعزلة نسبيا، لتستقل فيها لؤلؤ أثناء النوم فحسب، وكانت كل هذه العائلة تعيش على مورد ما الله، ولكم أن تتصوروا مستوى ونوع الحساسية التي يمكن أن تصبغ حياة وعلاقات كنّة تأتي من بغداد، وعائلة في (بنت النهر) بالوصف الذي أشرنا إليه، مع ما يقابل عدم سلاسة لؤلؤ بما يماثلها من أخوات زوجها، أو قل أغلبهن..

ورغم كل ذلك، كانت الحياة تسير سيرا طبيعيا في حياة رباح، أثناء غياب مال الله خلال الدراسة في الكلية العسكرية، أو حتى بعد أن تخرج منها، وكان قادرا بحكمته، تعاونه حليمة، على أن يفك أي عقد قبل أن تتكون لتنشأ بينهم، وما لم يحلّه المنطق، يحلّه التهديد لمن يستحقه، أو الفعل الذي ينفذ التهديد الذي يسبقه..

ولد صالح، وبولادته بدت السماء كأنها تضحك لصبحة بعد مطر سخي بانت بعده الشمس، ولكن، هل يمكن أن يفرح القلب المجروح؟ ألا يذكر المولود صبحة، يوميا، بأن والده أفل كنجمة، دون أن يترك في نفسها إلا الذكريات الحبيبة الأنيسة إلى نفس شابة أطلت لأول مرة من خلال زواجها على حياة، فتصورت أنها ستمتد بها إلى مدى أبعد من ذلك الزمن القليل.

فرح أهل صالح، وأعمامه، وفرح خالاه، ما الله وعبد اللطيف، وكان عبد اللطيف بعمر لا يزيد على سبع سنوات، والأخ الوحيد لما الله، وفرح جده لأمه، ألن صالح حول الحياة مما يشبه المأتم إلى سعادة في بيته، ومع الغصة التي كانت تنافس الفرحة في صدر صبحة، فقد بدأت حياتها تأخذ لونا جديدا، أليس صالح فلذة كبدها الوحيد، بعد أن مات أنور قبله، وأعقبه حسين؟ أليس هو (خلفة) حسين، وهو الوحيد (خضرة) داره؟ ولكن الحزن بقي جاثما على صدر صبحة، وتنفس عنه عندما تهز مهد صالح وهي تقول:

- دللول، يا بني دللول.. عدوك عليل وساكن الجول (الأرض الفلاة)..

ومع إكمال ذلك تتدفق الدموع من عينيها، ويرتفع صوت نشيجها.

وعندما صار عمر الطفل صالح عدة أشهر، راح يزم شفتيه، ويهمّ أن يبكي مع بكاء والدته، وهي (تعدّد) أو تبكي.. وربما كان المنشأ الأساس للبكاء العاطفي للكثير من الرجال العراقيين هو هذه الصلة بين من (تعدّد) على مهد الطفل، أو تجرش وتطحن الحنطة أو الذرة أو الشعير برحى حجرية بيتية، وكانت الرحى الوسيلة الأساسية لتهيئة الجريش ليطبخ، أو الحنطة أو الشعير، ليستخرج منها الطحين، ليعجن ويخبز في مدن وقرى العراق، وبقيت إلى الأربعينات، وحتى الخمسينات، وسيلة العراقيين الأساسية في الأقضية والنواحي وكل ريف العراق، ثم حلّت محلها المطاحن الحديثة، مبتدئة بالمدن، اعتبارا من نهاية الثلاثينات من القرن الماضي، وتصاعد وجودها

في ريف العراق حتى حلّت فيه بقوة كاملة، وصارت الرحى لا تذكر كوسيلة للطحن والجرش، وإنما كتعبير أدبي، أو كتعبير عن صراع وحرب..

أضحت دِمانا فائراتٍ في الوغى نفني العداةَ وعلقماً نسقيها

دارت رحانا طاحناتٍ حنطةً حيناً، ودوماً للعِدا نبقيها

****

ولدت لمال الله ابنته البكر عابدة، وكان عمر صالح دون السنتين، وقطع رباح جد صالح لأمه، وجد عابدة لأبيها (ردن) عابدة، وقال:

- إن عابدة لصالح.. وهي من نصيبه، زوجة له، إذا كتب لهما الحياة.

كان هذا هو التقليد السائد لدى أغلبية الناس آنذاك، وقبل ذلك الوقت، وبقي إلى خمسينات القرن الماضي ذا وزن خاص عند العوائل، يقوم على أساس قول مشهور كأنه حكم فاصل: عطيّة الجد لا ترد.. شكرت صبحة والدها، وشكرت مال الله، لأنه أقرّ عطيّة أبيه.

كان مال الله، عندما يعود في إجازته من بغداد إلى (بنت النهر) حيث والده وأمه وزوجته وأخواته، وأخوه، يقضي الكثير من الوقت يتسلى مع صالح، حتى أنه كان يحمله معه بالمنشفة إلى خارج باب دارهم، إذا جاء شاب من العشيرة ليسلم عليه، من غير ما يدخله إلى البيت، أو إلى ديوان والده، وعندما كان مال الله يحمل صالح بيد واحدة بالمنشفة، يطير قلب صبحة معه، خشية سقوطه على الأرض، ثم تلحق بمال الله بضع خطوات، وهي تقول:

- أرجوك، يا خيي، ضع عينك عليه لئلا يطفر من المنشفة إلى الأرض..

ويضحك مال الله وهو يقول:

- لا تخشي عليه، ألا ترين كم هو هادئ؟ ثم، هل تخافي عليه يا صبحة، وأنا أتعهده!؟

تسكت صبحة، ولكنها تبقى قلقة في داخلها، حتى يعود مال الله بصالح وهو نائم، أو لما يزل يقظا أحيانا.

كان تخرّج مال الله من الكلية العسكرية ليصبح ضابطا في الجيش، وولادة صالح، ومن بعده عابدة.. وزواج هيلة من ابن خالتها الذي تربّى في كنف رباح، بعد أن توفيت والدته، وهو ما زال صغيرا،

وزواج أبيه في الريف، وزواج ليلى من ابن عمها، كان ذلك كأنه فتح على العائلة مداخل جديدة لتتعامل مع الحياة بصورة طبيعية، بل وبحالة من حالات السعادة بوجه عام، عدا ما كان يعتمل داخل صدر صبحة، ولكن القدر يطبق أحكامه التي لا توقفها سعادة هذا أو بؤس ذاك.. وجاءت الفجيعة الكبيرة: مات رباح أخو هدلة، وسيف العشيرة، وعمره لم يبلغ الستين عاما.. وبموت رباح صار حزن العائلة عاما، وشاملا، بل تعداهم إلى كل من يقدّر للرجال المتميزين أدوارهم وفعلهم، وكان توت رباح كأنه قد أحيا في نفس صبحة حزنين.. حزنها على حسين، وحزنها على أبيها الذي كانت تقدمه على نفسها، وتعتزّ به بما لا يمكن وصفه، ورغم أن مال الله كان طيبا في موقفه وتصرفه، فقد أحسّت صبحة كأن سقف الدار سقط على رأسها ورأس ابنها الطفل صالح، فهل يمكن أن تركن البنت إلى أخيها مثلما تركن إلى أبيها الذي جرّبته أكثر مما جرّبت أخاها، وبخاصة بعد أن تزوج أخوها وصارت له بنت؟

حزن الجميع حزنا ثقيلا في مظهره وجوهره، حتى أن صبحة جعلت ابنها صالح يحزن معها، إذ لم تكتفِ بأن تحزن.. وإنما ألبست صالح، أو صبغت (دشداشته) بالسواد، وقالت تخاطبه دون أن يعي شيئا مما تقول:

ـ الآن، وليس قبل الآن، مات أبوك، يا صالح.. لقد مات حسين وتعهدّك جدك.. وجدك غانم، ولكنه مات الآن، ولم يبقَ لك أب..

كانت تقول ذلك وهي تنتحب، والعينان تتدفقان بما تجودان به في ضوء حرارة اللوعة، ويبكي صالح معها، ولا تتوقف دموعه إلا عندما تتوقف دموع صبحة، فتمسح الدموع من عينيه بطرف (دشداشته)، أو بطرف (ملفعها)، ثم تمسح بيدها على وجهه وجبينه..

****

بعد أن انتهى العزاء الرسمي، أكملت حليمة أشهر العدة التي تبقى فيها الزوجة في بيتها ولا تخرج منه إلا بعدها، وهي أربعة قروء وعشرة، وفق ما جاء في القرآن الكريم، أي أربعة أشهر وعشرة أيام. جاءهم مال الله من بغداد في إجازة بعد أن استأجر لهم بيتا في سوق الجديد (محلة خضر إلياس) وقال لأمه ولصبحة ولزوجته أن هيئوا أنفسكم لننتقل إلى بغداد، لقد استأجرت لكم بيتا هناك نسكنه معا..

قالت والدته:

ـ هل انتقالنا ضروري، يا بني؟

قال مال الله:

ـ وهل بقي ما يستوجب أن تبقوا هنا، وأنا في بغداد، يا والدتي؟ ألا تحتاج العائلة إلى رجل على رأسها؟ لقد كان والدي، رحمه الله، لا يرغب في الذهاب إلى بغداد وترك الديرة، أما الآن فلم يعد هناك مسوّغ لنبقى منقسمين بين بغداد وبنت النهر.

همّت صبحة لتقول شيئا والدموع في عينيها، ولكن مال الله عاجلها بالقول:

- أما زيارة قبر والدي وقبر حسين فبإمكانكما أنتِ وصبحة أن تأتيا ومعكما عبد اللطيف، أو أن أكون معكما، إذا ما أتيحت لي فرصة ذلك من حين إلى آخر، وأن تبقيا للأيام التي تريدانها في بيت ابن عمنا أحمد، زوج ليلى، ثم تعودان إلى بغداد..

وبعد قول مال الله ذلك، لم يبقَ من يبدي ملاحظة على قراره، أما طليعة وبدرة وعبد اللطيف، أخوة مال الله في البيت، فإنهم في حقيقتهم فرحوا بالسفر إلى بغداد، و من ذا الذي لا يفرح بأن يكون من أهل بغداد، العاصمة الخالدة؟ إلا من يكون خلفه من يشده إلى اتجاه معاكس.

وضوءٌ إلى بغداد صوتٌ ينافسهُ وصعبٌ لمن يختارَ شيئاً يعاكسهُ

لقد كان هذا حال صبحة، أما حليمة فإنها أم البيت وأم مال الله، ورغم حزنها على رباح، فإن المحافظة على (لمّة) أهل البيت: مال الله وزوجته، وبناتها، ومنهم صبحة وابنها صالح، وشقيق مال الله عبد اللطيف، كانت هدفا ثمينا، ومن أجل هذا الهدف، وعلى أساس الترتيب الذي بيّنه مال الله من أن بإمكانها هي وابنتها صبحة زيارة بنت النهر قادمتين من بغداد، فقد سدّ لها ما هو أساس من رغبتها لزيارة قبر رباح في المناسبات، ومنها الأعياد بوجه خاص..

****

حملت لؤلؤ بعدنان، وولدته في بغداد، بعد أن انتقلت العائلة إليها من بنت النهر..

****

انتقلت العائلة كلها إلى بغداد، ومنهم صبحة وصالح، وسكنوا في (خضر إلياس)، ورغم أن بغداد عالم جديد على قياس الحال، والظرف، والحياة، والعادات، وجانب من التقاليد، في بنت النهر، إلا أن الفروقات لم تكن متباعدة إلى الحد الذي لا يكون بإمكان المرء الذي يعيش على شاطئها أن لا يرى شواطئ النواحي والأقضية التي يأتي منها إلى بغداد، بل حتى جانبا من حافات القرى لو جاء منها..

كانت بغداد آنذاك بين العم 1936، حيث تخرج مال الله من الكلية العسكرية، والعام 1941، أشبه بقرية كبيرة، مهملة الشوارع والأزقة، لا فروقات جوهرية بينها وبين مدن العراق الأخرى، إلا عندما يزور من يأتيها من المدن الأخرى بعض شوامخ الآثار القديمة، ومنها المدرسة المستنصرية التي أنشأها المستنصر بالله، المنصور بن الظاهر، الخليفة العباسي السادس والثلاثون، وشارع الرشيد وسط بغداد، وهو شارع عريض على قياس أزقة المدن القديمة، وعلى قياس أزقة بغداد آنذاك، تعرض فيه بضائع من الأنواع التي تذكر الإنسان بأن عالم بغداد يمكن، من زوايا بعينها، وفي بعض الجوانب المظهرية في الأقل، أن يجد له إطلالة على عالم القرن العشرين، ومنه (الكاري) أو (الترام واي) الذي كان ينقل الركاب في الزيارات بين الكاظمية والكرخ، تجرّه الخيول، ويدق جرسه في كل محطة وقوف، لينبه من ينزل منه أو يصعد إليه.. ومنه المأكل أيضا، ففي حين أن بنت النهر تفتقر إلى وجود

صمون، هنا في بغداد نوع منه لمن يشتهيه ويبذل مجهودا للعثور عليه، أما (القيمر) الذي ينعدم وجوده في المناطق الشمالية والوسطى من العراق إلا في جنوبه، فإنه هو الآخر موجود في بغداد، ولعلّ أكثر ما وجدته عائلة مال الله من تغيير في حياتها هو ركوبها العربة التي تجرّها الخيول في بغداد، وعند سفر أي من أفرادها بالقطار إلى بنت النهر، أو التنقل برفقة مال الله لشراء حاجيات بعينها من سوق الشورجة، بالإضافة إلى القيمر والجبن عند تناول وجبة الإفطار.. وأما سعادة لؤلؤ فكانت أكثر من سعادة أي من أفراد العائلة الآخرين، ذلك لأن والدها ووالدتها وأخويها الاثنين موجودون جميعا في بغداد..

إن ما جعل العائلة لا تجد نفسها في غربة، رغم أنها تركت بنت النهر، التي كانت ناحية قبل أن تصبح قضاء في الخمسينات، هو أن حي سوق الجديد في جانب الكرخ، ومنه محلة خضر إلياس، يضم في أغلبيته أناسا جاؤوا طلبا للرزق من سامراء والدور وتكريت، وكلهم بالأساس ضمن حدود المنطقة الجغرافية لبنت النهر، وتتقارب عاداتهم وطباعهم وتقاليدهم مع القادمين الجدد إلى حد بعيد، مما أضاف اعتبارا آخر إلى جعل الذين يسكنون في خضر إلياس، لا يكادون يبتعدون في تقاليدهم، ولا في سمة حياتهم العامة، عن المدن التي جاءوا منها، إضافة إلى أنهم كانوا جميعا باستثناءات بسيطة في كل جانب الكرخ، ومثله الرصافة، محدودي الدخل، فمنهم من يقوم بمهنة التجديف وتسهيل عبورا لناس بين حافتي دجلة، نظرا لان بغداد لم يكن فيها آنذاك غير جسرين خشبيين متحركين، وكلما هبّ هواء عالٍ، أو ارتفع الماء عن مستوى معين في نهر دجلة، فلتت (الطبقات) الأطواف الخشبية من مكانها فرادى، وأحيانا مجتمعة، وعندما تفلت مجموعة يذهب من يكلّف بإرجاعها بعد أن يبتعد بها تيار الماء، ويذهب معه كثر من الناس، بينهم دراويش يضربون على الدفوف ليرضوا الجسر المنفلت، الزعلان من اجتيازه بحمولة كبيرة، أو ممن كان على نجاسة، عندما اجتاز الجسر، ومنهم من يظن أن جنيا سحره فقطع الجسر وأفلته من مكانه..

كان هذا هو الحال غير المستقر للجسرين، اللذين كان مكان أحدهما وسط العاصمة، التي كانت على مساحة محدودة آنذاك، ليربط الكرخ بالرصافة، والآخر في مكان ما قرب الكاظمية، على مقربة من ضريح سيدنا موسى الكاظم، يربط المنطقة هناك مع الأعظمية، حيث ضريح أبي حنيفة النعمان..

كان عدم استقرار الجسرين، وتباعدهما، قد أوجدا أعدادا كبيرة من الناس الذين تقترب مساكنهم من دجلة على طرفيه الشرقي حيث الرصافة، والغربي حيث (صوب) الكرخ، ومنه حي سوق الجديد، ومنه محلة خضر إلياس، يعيشون على ما يجود به النهر من سمك، وما ينقل من خلاله من شمال وحتى من جنوب بغداد.. وهكذا كانت الزوارق موزعة بين مالكيها، أو مشغّليها، ولكن ملكية غالبيتها لغير أهل خضر إلياس، أما الآخرون فموزعون على مهن يدوية شتى، وكان في محلة خضر إلياس دكانان لا غير، أحدهما لبيع أشياء بسيطة لا تتعدى الإبر والخيوط، وعلكة الماء، وأشرطة شعر الرأس لطالبات المدارس، بعد أن صارت في المدارس طالبات لاحقا، وفصّا أو فصّين من الجبن، وقليلا من القيمر في الصباح، وأشياء بسيطة من هذا القبيل، لا تتعدى عناوينها ما هو حاجة عابرة وبسيطة، وكان الدكان عبارة عن غرفة صغيرة داخل البيت، تشق منه فتحة للتعامل مع المشترين من الخارج، وآخر مثله يحتوي على (عطارية) بسيطة، أغلبها من (الكركم والفلفل والسماق والبابونج) وأوراق ورد يابسة، تغلى وتسقى لمن يراد إطفاء التأثير السلبي عنه بعد زعل أو (عركة) وما هو شبيه بذلك، وتحتكر المحلة امرأة تحمل على رأسها صينية واحدة من القيمر، تأتي من خارج المنطقة،

وتنادي لترويج بضاعتها بصوتها الجميل، ذي اللحن الخاص الذي يعرفه كل أهل المحلة عندما يسمعونه.. " كيمر يوخ يا حبايب" (1) وكانت في الغالب لا تبيع كل ما تحتويه صينيتها من القيمر، لأن أهل المحلة، أو حتى نصفهم، أو ربعهم لا يتناولون جبنا أو قيمرا في الإفطار، وإنما كل حسب حاله، فمنهم من يقلي طماطم وباذنجان، أو ما يمكن أن توفره ربة المنزل، وهناك منظر مألوف أيضا هو منظر من يبيع الباقلاء في قدر يغلي فوق (بريمز) أو لمبة، ويأتيه من يريد أن (يشرّب) باقلاء بخبز يابس وصح، وبعد أن ينقع الخبز اليابس في ماء الباقلاء، يخرج الخبز ليضعه في صحن صاحبه مع عدد من حبات الباقلاء ويرش عليه (بطنج).. أما إذا تزاحم على بائع الباقلاء عدد من المشترين، فإنه يشد خبز كل واحد منهم بخيط، مثلما يفعل أهل الحلة، ويطلب من صاحبه أن يحفظ لون خيطه لكي لا تختلط على البائع الخيوط، وبعد أن ينقع الخبز اليابس لكل المشترين يبدأ يصيح على أصحابه فيقول لهذا أو ذاك متسائلا: ما هو لون خيطك؟ وعندما يقول له أحمر، يخرج له الخبز المشدود بالخيط الأحمر، وهكذا لصاحب الخيط الأسود والأبيض والأصفر.. الخ.. وليس غريبا أن تجد من لا يأكل إلا خبزا عاديا مع الشاي في الصباح..

أما بائع القماش، فهو في الأغلب يهودي، كان يحمل على كتفه عددا من قطع، أو أطوال (مفردها طول) القماش، ويحمل في يده آلة قياسه، وهي ذراع من حديد، في الوقت الذي يسند القماش على كتفه بيده الأخرى، وينادي على بضاعته هو الآخر بصوت معروف (للحبايب)، والحبايب هنّ نساء المحلة، ولخبرته الطويلة صار يعرف من منهن تنوي الشراء وقادرة عليه، ومن منهن لا تنوي إلا التفرّج، وجمع معلومات عن أنواع الأقمشة وأثمانها، لأن جيبها من جيب زوجها، فإذا كان زوجها بخيلا، أو كان دخله لا يسمح لها بالشراء، تفرّجت فحسب، وإذا كانت قادرة على الشراء، ومحتجة له فعلا، وليس بطرا، مثلما يحصل عند كثر من النساء الآن، ومثلما كان يحصل قبل الحصار لكل النسا، والاستثناء حالة بطولة تسجّل لصاحبتها، اشترت من ذاك القماش ما يعجبها، وكان اليهودي يعرف من تريد أن تشتري فعلا، ومن تريد أن تتفرج، ولا يرمي القماش من على كتفه إلا أمام الباب الذي يخمّن أن من نادته، أو همّت لتوقفه أمامه، تنوي ذلك فعلا.. ومن أكثر من ا ليهود يعرف من أين تؤكل الكتف؟ ومتى؟.. وكتف من أكثرها هشاشة أو سمنة؟ خاصة وأن خضر إلياس فيها قلة نادرة من الموظفين، لم يكن بينهم ضابط آنذاك إلا مال الله، خال صالح، ومثل هذه الوظيفة والرتبة، بالإضافة إلى مستوى أخلاق العائلة، وحشمتها العالية، وأصولها الحميدة، جعلها محل احترام، بل ومحبة أهل خضر إلياس كلهم..

كانت الفواكه والخضار واللحم والدجاج والسمك كلها تحضر على مقربة من دور ساكني خضر إلياس، وبعضها يحضر حسب الطلب.. وكانت التسهيلات محلية: فالسمك يصيده الصيادون من نهر دجلة، والدجاج يعرض في سوق قريبة، أو حتى يشترى من سكان المحلة ممن يربون في بيوتهم، أو على سطوح دورهم عددا من الدجاج ويكثرونه، أو يبيعون بيضه لسد حاجاتهم من المال.

ولم يكن، في ضواحي بغداد، ولا في العراق كله، مداجن لتربية الدجاج مثلما هي الحال الآن، لذلك كان الدجاج والسمك أغلى قياسا بسعر اللحم، ومن هذا كانت العوائل المقتدرة تأكل الدجاج أو السمك في أيام الجمع في الغالب.

مرت سنوات قليلة على تخرج مال الله من الكلية العسكرية، وظلت الحياة مثلما هي في العراق بوجه عام، أو قريبة مما كانت عليه في أوائل العشرينات، حين نصّب الملك فيصل الأول ملكا على العراق

عام **1921**، ولكن فيصل الأول ما لبث أن مات، وخلفه ابنه غازي على عرش العراق، ولكنه ما لبث أيضا أن قتل في حادث سيارة، وفق ما كان يتناقل ذلك أهل بغداد، ليوجهوا التهمة إلى خاله عبد الإله، وربما شاركته في الجريمة أخته، زوجة الملك غازي، حيث صار عبد الإله، وصيا على العرش، نظرا لأن عمر الملك فيصل الثاني، ابن الملك غازي، كان أربع سنوات في حينه، هذا ما كان أهل بغداد يتداولونه بعد الحادث، ولا يعرف الحقيقة إلا الله، ذلك لأن كره أهل العراق للإنكليز، وعميلهم عبد الإله، قد جعل بعضهم يرمي الكلام على عواهنه، وما جعل أهل بغداد يذهبون إلى هذا الاعتقاد، أن الملك غازي كان يوجه نداءات من إذاعة لا يغطي بثها مدينة بغداد الصغيرة إلى الشعب في الكويت يذكره بأن يقوم بدوره ليعود إلى حيث أصله وصلته كجزء لا يتجزأ من العراق، أرضا وشعبا، ويهاجم الإنكليز، ويشجع الفلسطينيين على مقاومة الصهاينة في الأرض المحتلة، التي ذرّت مؤامراتهم بقرونها آنذاك، في مطلع الأربعينات، وصاروا يشكّلون، في ظل الاحتلال البريطاني، جمعيات وتشكيلات مسلحة تهاجم العرب، لتفرض عليهم ترك أرضهم، أو بيع قسم منها توطئة لبناء كيانهم البغيض..

وقد نساعد في التوصل إلى الاستنتاج الصحيح، إذا ما أضفنا إلى ما قلناه بعض الوثائق التي يمكن أن تلقي بضوئها على طبيعة علاقة الملك غازي بالعائلة الحاكمة في الكويت، والإنكليز، وآخرين غيرهم، وربما تلقي الضوء على جانب من أسباب مقتل الملك غازي، كما يأتي:

المملكة العراقية

البلاط الملكي

إن مرحلة ضم الكويت إلى العراق قد وصلت حد النضوج حيث تم كسب تأييد عشرة إلى اثني عشر عضوا من المجلس التأسيسي الكويتي حيث قاموا بدعوة أمير الكويت بالانضمام إلى المملكة العراقية وإنهاء الوضع الشاذ في هذه الإمارة العراقية والتي كانت تابعة إلى العراق أيام الحكم العثماني كقضاء، وبما أن المملكة العراقية باعتبارها الوارثة للدولة العثمانية، لذا فلها الحق بإنهاء الوضع الذي فرضه الأجنبي بسبب مصالحه، وقد قام هذا الأمير بأمر من الأجنبي باعتقال أعضاء المجلس وحلّه وإلغاء القرار الذي اتخذوه بالأكثرية، حيث لم يوافق عليه ثلاثة فقط من مجموع الأربعة عشر.

إنني يجب أن أساند أحرار شعبي في الكويت والمطالبين بالحرية والخلاص من ربقة الأجنبي.

إن الاجتماعات التي تم عقدها بين أحرار الكويت في قصر الزهور جعلتني أطمئن على أنه لني تمكن ضغط الأجانب ولا عملائهم في الكويت من تغيير حقيقة أن الكويت جزء لا يتجزأ من المملكة العراقية وأن محاولة الأجنبي التدخل وإضعاف التجمع الوطني الكويتي يجعلنا متحفزين ومصممين أكثر من السابق على معاونة إخوتنا أحرار الكويت الذين كانت توجيهاتنا لهم بواسطة إذاعة قصر الزهور خير دليل ومرشد..

إنني سوف أجعل لهم حصة في تقديم خطب وبرامج على نفس المستوى، أو أكثر مما نقدمه إلى بلاد الشام.

أعاننا الله على تقديم الخير والرفاه للجميع.[2]

غازي

21/12/1938

إني أرى نفسي (سجين محترم) جدا..

فقد نقل كافة من قررت تقريبهم والوثوق بهم، ومنع الأصدقاء والأعزاء من الحضور إليّ خاصة صديقنا عبد الرسول صادق، والصديق يونس بحري.

إن ذلك لن يدون أبدا.. يجب إيجاد الصيغ الكفيلة بتجديد الإدارة ونبذ المحسوبية، وإنهاء التوسط والرشوة، سأحاول جهدي ذلك، إن وضع عزلي هذا آمل أن لا يدوم أبدا إن شاء الله.

إن ياسين والعسكري يحاولان (جهدهم) الاستئثار بالسلطة (بمآزرة) من نوري وهذه المجموعة والخليط العجيب مجموعة تأتمر بأمر الأجنبي، ليس غير، وتنفذ سياسته ومصالحه.. سوف أكون لهم بالمرصاد.(3)

غازي

25/تموز/1936

إني أرى حلما من الأحلام العديدة يتحقق فبعد أيام سيتم استعراض عام للفتوة في عاصمة ملكنا بغداد التاريخ، بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد العروبة الهاشمية، سوف يتم استعراض سبعة آلاف شاب في شوارع العاصمة الأزلية بغداد، وقد أكملوا تدريباتهم وأتموا استعداداتهم العسكرية والفنية.

إنهم النواة.. والظهير والسند لجيشهم الأبي.

إن الرعاية والاهتمام التي أرى أن يحظى بها هؤلاء الشباب (واجبا وطنيا)، تفرضه علينا خدمة الوطن وحمايته، إن هؤلاء الشباب بحماسهم العربي شاهد، واندفاعهم يجعل العملاء والإنكليز يحسبون لشعبنا الحساب.

لذا سوف أستمر بدعم الجيش وأهتم به شخصيا.. وظهيره الفصائل المسلحة، الفتوة والكشافة.

إنهم ينظرون إلينا بعين الريبة والحذر، ولكن الله معنا.(4)

غازي

7/ أيار/1936

الخميس: 9 شوال سنة 1325هـ

25 كانون الثاني 1934

اليوم، الخميس عصرا، تم عقد قراني على بنت عمي الأميرة عالية، وبحضور عدد غير قليل من الأقارب والأصدقاء، وقد قررت عدم إقامة أي مراسيم، احتراما لكبير الأسرة الهاشمية في العراق، والدي، الذي لم تتم بعد أيام الحداد على روحه الطاهرة، ولكن للظروف أحكام.

وفي الساعة التاسعة تم عقد القرآن المنتظر، من قبل الشيخ يوسف العطا، مفتي العاصمة، وقد شهد على عقد قرآني كل من الأفاضل السيد الجليل محمد الصدر، رشيد الخوجة، صالح جبر، نصرت الفارسي، جميل المدفعي، جمال بابان، ناجي شوكت ونوري السعيد.

وقد قام بالحديث معي السيد محمد الصدر، وكان بحق حديثا طيبا شيقا، لقد كنت بحاجة لمن يتحدث معي في مثل هذه الأمور الخاصة والمحرجة، فكان أن عالج السيد الجليل هذا الإشكال الذي أعانيه بكل حنكة ورؤية واقتناع وبعد ذلك دعوتهم إلى تناول طعام العشاء بهذه المناسبة. وقبل انتهاء دعوة الطعام، كنت قد غادرت الحفلة والدعوة.(5)

غازي

25/1/2934

كان كل ذلك سببا من أسباب اتهام عبد الإله كعميل للإنكليز، وطامع في الحكم بعد مقتل غازي، أما لماذا امتد الاتهام، وإن جاء من مصادر قليلة، إلى أن زوجة الملك كشريكة في الجريمة، فإن السبب هو عدم استقرار العلاقة الزوجية بينهما، وهذا ما أكده مرافقه فؤاد عارف عندما سأله أحد المسؤولين في مجلس قيادة الثورة في السبعينات، وعلى وجه الدقة في عام **1974**، حيث أكد أن العلاقة الزوجية ما كانت حسنة..

على أية حال، هكذا كان حال العراق آنذاك: فقر مدقع، وتخلف يضرب إطنابه في كل مكان، بما في ذلك الحياة ومظاهرها في بغداد، وفق ما أشرنا إليه.. وكان الفقر والمرض والتخلف العام عن موارد العصر.. هي الحالة التي تشكل السمة العامة للعراق، رغم غنى العراق بالماء والأرض والتراث والمعاني الحضارية العميقة، وذكاء الإنسان.. والنفط، ولكن هل يمكن لجسم كبير.. لشعب.. لبلد.. لأمة.. أن ينهض، من غير أن يكون له محرك من داخله، ورأس، وعيون تدلّه إلى الطريق، وأهداف تجتذبه إليه، وعقل يحركه ضمير مؤمن بالشعب لتجديد الدور، وسيف مرهف لا يلتوي، يحمي مسيرته، ويظللها ببرق عال؟ وهل يمكن لهذا أن يكون من غير قيادة ونموذج يزرع الإقدام مكان التردد، والثبات مكان القلق، والهداية، التي تجعل مرتسم الطريق واضحا في بدايته، وإلى حيث يتجه، أو يتفرع.. مكان الضياع!؟

----

(1) يوخ، كلمة أعجمية تعني (جيد)

المملكة العراقية
البلاط الملكي

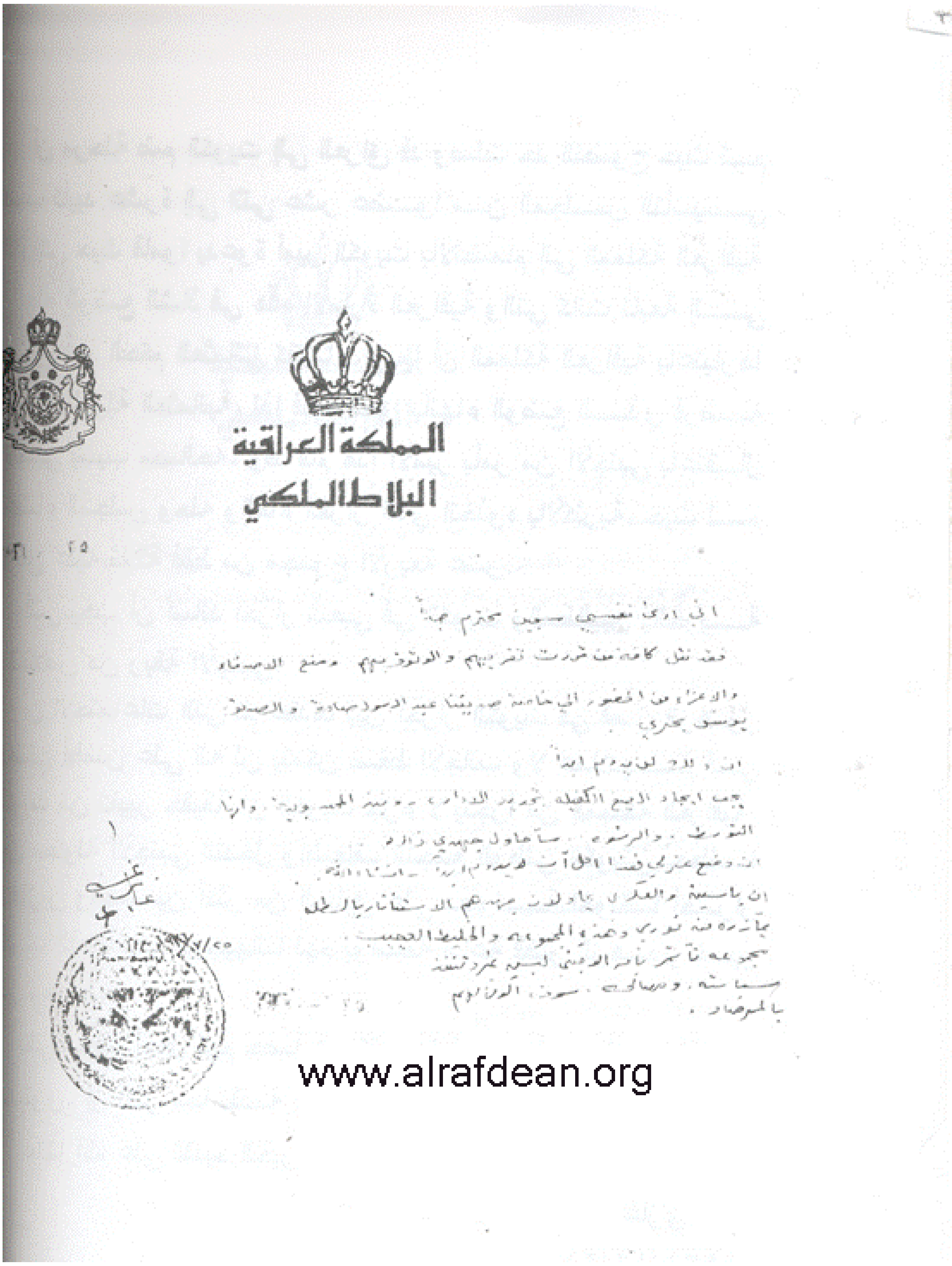
ان مرحلة ضم الكويت الى العراق قد وصلت حد النضوج حيث تم كسب تأييد عشرة الى اثنى عشر عضواً من المجلس التشريعي الكويتي حيث قاموا بدعوة امير الكويت بالانضمام الى المملكة العراقية وانها الوضع الشاذ في هذه الامارة العراقية والتي كانت تابعة الى البصرة ايام الحكم العثماني كقضاء وعليه ان المملكة العراقية باعتبارها الوارثة للدولة العثمانية .

لذا فلها الحق بانهاء الوضع الذي فرضه الاجنبي بسبب مصالحه . وقد قام هذا الامير بأمر من الاجنبي باعتقال اعضاء المجلس وحله والغاء القرار الذي اتخذه بالاكثرية حيث لم يوافق عليه ثلاثة فقط من مجموع الاربعة عشر الذي يعد من اسانذة احرار شعبي في الكويت والمطالبين بالحرية والخلاص من وصاية الاجنبي .

ان المقابلات التي تم عقدها بين احرار الكويت في قصر الزهور جعلني اطلع على انه لن يكفيه ضغط من جانب [illegible] في الكويت من تغيير حقيقة ان الكويت جزء لا يتجزأ من المملكة العراقية وان محاولة الاجنبي التدخل واضعاف الشعور الوطني الكويتي جعلت [illegible] اكثر من السابق على [illegible] احرار الكويت [illegible] انني سوف اعمل لهم [illegible] في تقديم [illegible] الشؤون . [illegible] بلادهم .

اعاننا الله على تقديم الخير والرفاه للشعب .

(2)



المملكة العراقية

البلاط الملكي

٢٥

اني ارى نفسي سجين محترم جداً

فقد نقل كافة من قدمت تقريبهم والوثوق بهم ومنع الاصدقاء

والاعزاء من الحضور الى خاصة صديقنا عبد الاسود صادق و الاصدقاء
يوسف بحري

ان الاخ لن يدوم ابداً

يجب ايجاد الايدي الكفيلة بتحرير الدائرة من المحسوبية وازالة

التزوير والرشوة. ساحاول جهدي ذلك

ان وضع عزلي هذا الى الآن ... لا استطيع

ان ياسين والعسكري يحاولون جهدهم الاستئثار بالحكم

بحاشية تقرب ... والمحسوبية والخليط العجيب.

مجموعة تأثير ناجي السويدي لسبب تجرد ثقته

سياسته. وصالحه. ... الرأي ولوم

بالمرصاد.

غازي

(3)

المملكة العراقية
البلاط الملكي

اني ارى حلماً من الاحلام السعيدة يتحقق . بعد ايام سيتم استعراضه
عامة للقوة .
في ساحة سكك بغداد التأريخ بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية بغداد
العربية الهاشمية سوف يتم استعراض سبعة الاف شاب في
شوارع العاصمة الذليلة بغداد حيث اكملوا تدريباتهم واتموا استعداداتهم
العسكرية والفنية
انهم النواة ... والفجر والسند لجيشهم الابي .
ان الرعاية والاهتمام التي ارى ان يحظون بها هؤلاء الشباب
واجباً وطنياً يفرضه علينا خدمة الوطن وحمايته . ان هؤلاء الشباب
يحملون الذي اشاهد . واندفاعهم يجعل العرب والانكليز
يحسبون لنا الف حساب
لذا سوف استمر بدعم وحثهم شخصياً بالجيش . . وتزويده
العتائد المسلحة الخفيفة مع الكتائب
انهم ليضربون البناء عن الريبة والحذر .
وكلمة الثكر معنا .

غازي

٢ ايار ١٩٣٦

(4)



المملكة العراقية
البلاط الملكي

الخميس: ٩ شوال سنة [illegible]هـ
٢٥ كانون الثاني سنة ١٩[illegible]م

اليوم الخميس عصراً تم عقد قران [illegible] عائلية وبحضور
عدد من [illegible] من الأقارب والأصدقاء . وقد تقرر عدم اقامة اي مراسيم
[illegible] الهاشمية في العراق [illegible] تم بعد ايام الحداد على
[illegible] . ولكن للظروف [illegible] .
وفي الساعة التاسعة تم عقد القران المنتظر .
من قبل الشيخ يوسف العطا مفتي العاصمة . وقد شهد على عقد قران [illegible]
[illegible] السيد الجليل محمد الصدر / رشيد الخوجه / صالح جبر / [illegible]
جميل المدفعي / جمال بابان / ناجي شوكت / نوري السعيد .
وقد قام بالحديث معي السيد محمد الصدر . وكان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
كما ان [illegible] .

(5)

الجزء الخامس

كان بعض ضباط الجيش قد درس الأركان خارج العراق، وعرفوا الكثير عن إيجابيات وسلبيات غيرهم، ومنها، وعن طريق المقارنة، حتى لو جاءت مجتزأة، وغير موضوعية في قياساتها واستنتاجاتها، عرفوا عورات الحاكمين في بلادهم، وما لم يعرفوه، ولم يستنتجوه، أغناهم عن

الاهتداء إليه سلوك الحاكمين، كإمعات وتابعين للأجنبي، وعصاه الغليظة ضد الشعب وتطلعاته التي كانت تعبر عن جانب منها الحركات الوطنية وبعض المثقفين والمتعلمين، وكل واعٍ أصيل من العراقيين، ومثلما كان حال أهل بغداد، كان الحال في خضر إلياس، في تطور جزئيٍ بسيط جدا، حتى يكاد لا يرى بين سنة وأخرى، إلا تطورا واحدا حصل في بيت مال الله، حيث جاءهم ابن عمتهم إبراهيم في زيارة إلى بغداد، وفاتح عمته أم مال الله، قبل أن يحكي مع مال الله، الذي كان في المعسكر، برغبته بخطبة صبحة، وعندما قالت له:

- وماذا عن ابنة عمها أمينة؟

قال:

- وماذا يهم في ذلك؟ إن كون أبي أمينة وأبي صبحة ابني عم يسهل جمعهما في بيت واحد، رغم أن أمينة في قرية رمز القرى الآن، وسوف أستأجر لصبحة دارا في بنت النهر تسكنه هي وابنها صالح، وسيكون وجودي الأساس في المدينة، حيث طبيعة عملي.

كان أبو همام هذا رجلا شهما من العائلة، فخاله رباح، وصبحة بنت خاله، وكان رجال بهيا، جميل الطلعة، طويل القامة، قوي البنية، محل ثقة أهل صبحة، لأنه مجرب لديهم في مناسبات سابقة، ذا عينين صفراوين، يميلان إلى الخضرة، وكانت تفاصيله جميلة كلها، إضافة إلى أنه رجل شجاع وغيور..

ومع أن حليمة، أم مال الله، كانت تجد صعوبة في أن تنزل صبحة على ضرة، خاصة وأن هذه الضرة من بنات أعمامهم، فقد كانت تدرك أنهم لو رفضوا أبا همام، فإن أيا من أبناء العشيرة لن يتجرأ ليخطب صبحة، إذ سيتكون لديهم انطباع بأن صبحة وأهلها لا يرغبون بتزويجها، وكون صبحة لا ترغب في الزواج ولا تسمح لأحد بأن يتحدث به حقيقة معروفة في العشيرة، ولكن رفض خطوبة أبي همام لصبحة يعني أن أهلها أيضا لا يريدون لها الزواج، وعندما لاحظت أن لديها ثلاث بنات وولدا قاصرا، وأن لمال الله ولدين، إضافة لها ولزوجته، وأن العدد يصير تسعة، وأن تسعة يعيشون في بغداد على راتب مال الله وحده يعتبر حملا ثقيلا، صارت حليمة تقول في نفسها:

- وماذا لو تزوج أبو همام من صبحة، وصارت أمينة ضرتها؟ ألم يتزوج فلان وفلان وفلان بأكثر من واحدة من بنات عمومتهم، وهم من نفس العشيرة؟ بل ألم تكن حليمة نفسها الزوجة الثانية لرباح، بعد موت زوجته الأولى؟. الخ

على أية حال، فاتحت حليمة ابنها مال الله عندما جاء من المعسكر، وعلق قائلا:

- أنت تعرفين، يا والدتي، أن صبحة غالية جدا على نفسي، لذلك لن أكسر خاطرها وأسألها رأيها في الزواج، وأنا أعرف رأيها مسبقا، فهي ترفض الزواج كفكرة، ورغم أنني أعرف أبا همام كرجل محل ثقة، وابن عمتنا وابن عمنا، لذلك بإمكاننا أن نطمئن على صبحة وعلى ابنها صالح إذا صارا عنده.. أن لم نجبر من أعمامه ليأخذوه لديهم، مع أنني أتذكر عندما جاء عماه سليمان وحسن، وأبديا رغبتهما في أن يعهد إليهما بتربيته، أن صبحة اعترضت بلطف.. وكيف قالا عندما عرفا موقفها أن صبحة التي أرضت أخانا، وأرضتنا كلنا في موقفها منه وهو مريض، لن نجعل دمعتها تسيل بأن نأخذ

صالح من غير رضاها، لذلك متى ما وجدت أن من مصلحتها ومصلحة صالح أن ينتقل ليعيش بين أولاد أعمامه، لها تقدير ذلك، ونكون ممتنين وشاكرين لها.. أقول – قال مال الله- رغم أنني أعرف هذا، ولكن لا أعرف كيف سيتصرف سليمان وحسن وشقيقهما نفيس إزاء بقاء صالح مع صبحة لو تزوجت، رغم أن أبا همام ابن عمهم وليس بعيدا عنهم، على أية حال اترك لك، يا والدتي، التصرف في هذا بعد المذاكرة مع صبحة.

وعندما رأي إصرارها على تزويج صبحة، قال:

- أرجو صبرك عليها وأنت تحاولين إقناعها.. أما أنا فلن أفعل شيئا، لأنني إذا حاولت إقناعها، قد تتصور، رغم أنها امرأة عاقلة وحصيفة، أنني متثاقل منها ومن ابنها، ومن معيشتهما، وأن تتصور أن زوجتي لا تريدها في البيت، وأن موافقتنا على الزواج إنما هي لهذه الأسباب أو لأي منها..

****

عندما فاتحت حليمة صبحة بالزواج وقالت لها:

- يمّة صبحة، أخوك مال الله ضابط، والدنيا، كما ترين، لا نعرف ماذا يمكن أن تلد..

أجابتها صبحة:

- إن شاء الله تكون ولادتها خير، حفظ الله مال الله.

ورغم أن صبحة لم تكن تعرف ما يدور في صدر وعقل أمها حليمة، فقد قالت ذلك جوابا لأمها، وفي ظنها أن أمها كانت قلقة على ابنها مال الله من التطورات المحتملة من الناحيتين السياسية والعسكرية، وخاصة مع شيوع أخبار الضباط القادة الأربعة بقيادة فهمي سعيد، وصلاح الدين الصباغ، وعدم رضا الجيش على الوصي، واتهام الوطنيين الوصي بتدبير مقتل الملك غازي، وما اصطدام سيارة غازي بعمود كهرباء غلا تمثيلية فحسب، وأن مال الله يحكي بهذا لأصدقائه وعائلته أيضا، ولكن حليمة لم تكتفِ بإجابة صبحة، وإنما قالت بوضوح هذه المرة:

- إن ابن عمك أبا همام جاء يخطبك. ولذلك نأمل – ولم تقل آمل بالمفرد، لتوحي لها بأن هذه هي رغبة العائلة كلها- أن توافقي، وهو في كل الأحوال ابن عمتك قنديل، وأنت تعرفينه، وهو أبو همام، والله من الرجال (الزينة) يا بنتي، وأنت شابة، وفي كل الأحوال، فإن خير من يصلح لرعاية صالح بوجودك هو أبو همام.

انهمرت دموع صبحة.. وقالت:

- يمّة، هل هذا رأيك وحدك، أم رأي مال الله أيضا؟

- شوفي، يا صبحة بنتي، مال الله وحيد.. وأخوك عبد اللطيف، ما زال في عمر صغير.. وعددنا الآن تسعة في رقبة مال الله.. فهل هذا إنصاف يا بنتي!!... القسمة جيدة، ونحن لا نرضى أن تبقى بنت بعمرك في الدار من غير زواج..

عندما رأت صبحة إصرار أمها، عرفت أن رفضها لن يكون له معنى، وأنها ستكون بعد الآن ثقيلة على أهلها.. وصبحة ذات النفس العالية، والحساسة حتى من نفسها، ولأبسط الأمور، لا تتحمل أن تكون عالة على أحد أو ثقيلة وجود في بيت أحد.. عندها قالت لأمها بزعل:

- يبدو أنني أصبحت ثقيلة عليكم، افعلوا ما قررتم أن تفعلوه.. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. وكأنها في هذا نعت نفسها، واستذكرت في هذا وفاة حسين ونعته أيضا.. رغم أنها لم تكن تحمل تجاه أبي همام غير ما تعرفه عنه من خلال أهلها، بأنه وفق ما وصفته أمها.. قالت صبحة ذلك، وسحبت نفسها من المكان الذي فيه أمها إلى مكان آخر في البيت، وراحت تبكي بكاء مرا..

بعد أن عُقد قرآن صبحة على إبراهيم، سافرت هي وإبراهيم ومعهما صالح إلى بنت النهر، وهكذا عادت صبحة وصالح إلى بنت النهر، بعد أن تركاها منذ أكثر من سنة ليكونا في بغداد..

كان صالح آنذاك بعمر يناهز الثلاث سنوات، وقد سكنوا في دار استأجروه في الحارة، تجاورهم عائلة طيبة، تكن لعائلة صبحة احتراما لا حدود له، وكان ربّ هذه العائلة ياسين الرحيم يعمل على كل ما يجعل عائلة رباح وإخوته وذريتهم يرضون عنه، نظرا لسمعة أهل صبحة الطيبة في المدينة، ولما يحمله أهل المدينة عن والدها رباح كسيف صائل ورمح طويل في المدينة، وحيث كان هو وإخوته وأعمامه ناموس المدينة، وحماتها في الملمات.. وكانت عملة (دكة) اليوز باشي مع عسكره الترك ما زالت أخبارها لا تتعدى الثلاثين سنة الماضية، حينها، بالإضافة إلى موقف العشيرة من الإنكليز في ثورة العشرين، كلها مع عوامل وأسباب أخرى تشكل خلفية احترام الناس في بنت النهر لعشيرة السادة الحسينيين، وتكّن تقديرا خاصا لأهل صبحة..

كان ياسين الرحيم، الجار اللصيق للبيت الذي استأجره أبو همام، وكانت عائلة ياسين الرحيم تقوم بأي أمر تراه صبحة أو يكلفهم به إبراهيم، ويركض أمامهم في هذا الرجال والنساء، صغارا وكبارا، وحتى ياسين الرحيم الطاعن في السن.. كان يحلب البقرة لأم صالح قبل أن تتعلم حلبها..

كانت بنت النهر تسمى مدينة، وكانت في الثلاثينات تحمل درجة ناحية في سلم الترتيب الإداري للمدن الكبيرة، وكانت سبعا في العراق، ستا بالإضافة إلى العاصمة بغداد، كان كل منها يحمل تسمية ومرتبة لواء بدلا من اسم محافظة وفق التسمية الحديثة لهذه المدن، وأصبحت أربع عشرة محافظة بعد ثورة تموز عام **1958**، وأضيفت بعد ثورة **17-30** تموز أربع محافظات أخرى لتصبح ثماني عشرة محافظة، وأن المحافظات المضافة بعد ثورة **17-30** تموز هي محافظات صلاح الدين، والنجف، ودهوك، والمثنى.. وبذلك صارت ثماني عشرة محافظة، هي مجموع محافظات العراق حتى العام **2001**، وكانت القائم مقامية هي الحلة الوسطية بين اللواء على ما كانت التسمية عليه في العهد الملكي، والمحافظة، على ما صارت عليه بعد عام **1958**.. والقضاء أو القائم مقامية أكبر وأوسع من الناحية، ويضم ضمن دائرته الإدارية عددا من النواحي.

إذن، كانت بنت النهر ناحية، ورغم أنها مدينة عريقة موغلة في القدم، وتضم كنيسة أثرية على الضفة الشرقية المقابلة للمدينة على نهر دجلة، شيدّت في حوالي سنة **550** ميلادية، وتضم واحدا من أقدم الجوامع، إن لم تكن أقدمها في العراق، حيث تأسس في العام **16** للهجرة بعد الفتح الإسلامي لبنت النهر، وتضم واحدة من أكثر القلاع قدما، يمتد زمنها إلى العهد البابلي الوسيط (**1307-1275**

قبل الميلاد) فقد كانت مدينة بالاسم، رغم أنها أقرب إلى القرية المهملة في العراق آنذاك منها إلى المدينة.. وليس فيها إلا عدد قليل من الدكاكين التي تعرض قماشا، أو دلاء لأصحاب الآبار، وحبالا ومساحي ومناجل حصاد، وأعمدة خشب لبيوت الشعر، وبعض القدور وأواني شرب الماء (طوس) من (الصفر)، وربما تجرأ بعضهم ليبيع أباريق شاي متواضعة من المعدن أو الخزف، وأقداح شاي على شاكلتها، وفيها علوتان لشراء وبيع الحبوب والتمر والدبس وما شابه ذلك، وفيها دكانان، أو ثلاثة تبيع أقمشة، حتى أن الريفي عندما كان يتسوق من أي من هذه الدكاكين، لا يشتري القماش على وفق اختياره، وإنما يطلب من صاحب الدكان أن يختار له ذلك، بعد أن يذكر له عدد أفراد العائلة وأعمارهم وجنسهم، ومعه يوصي صاحب الدكان بإعطائه قماشا يتحمل الوسخ، غذ لم يكن يهمه منظر القماش، ولا كونه وسخا أو نظيفا بعد أن يلبس، وإنما الأهم لديه أن لا يظهر للعيان متسخا، وهذا يعني أن يكون لون القماش داكنا، أسود في الغالب، لكل النساء، وقريبا من ذلك للبنات في أعمار أخرى، ذلك لأن اللون الداكن لا يظهر عليه الوسخ بسرعة أمام العين، وضروري للنساء لكي يحجب أعين الرجال عنهن، ولا تنكشف من خلاله عوراتهن أو (خيال) أجسامهن، حتى أمام محارمهن، مثلما لو كان القماش فاتحا.

أما الرجال فإنهم يلبسون ما هو داكن أثناء العمل، ويلبسون الأبيض للمظهر في المناسبات، ولكنهم يلبسون تحته سروالا داخليا طويلا يصل إلى كعب القدم.. ولم يكن من بين العربيات من يلبس الألبسة الحديثة، ومن الطبيعي أن نقول أن أيا منهم لم تكن تلبس البنطال، مثلما هو حال كثر من بنات هذا الجيل، ففي ذلك الزمان وقبله، كانت المرأة لا تخرج عن دائرة عمل زوجها في الريف، حيث الزراعة ورعي المواشي والأنعام، ولذلك كانت الملابس الفضفاضة الداكنة تكفي لسترها، وإذا ما أضيف إلى ذلك العباءة حيثما وجد رجل غير محرم، تكون حال المرأة في كامل الحشمة، أما الآن فقد اختلف موقع المرأة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وصار بعضهن يعتمد على نفسه في مورد أساس من موارد البيت، فمنهن من تعمل في الدوائر الحكومية، أو في أنشطة أخرى، وفي السابق لم تكن مظاهر قوم تنقل إلى قوم آخرين، بما في ذلك نوع ألبستهم ومأكلهم، إلا مع الحروب والغزو، أما الآن فإن شاشة التلفاز وما يماثلها صارت خير صديق، إذا أحسن التصرف القائمون عليها، وأسوأ جليس لو لم يفعلوا، وفي السابق كان البنطال يعد لباسا للأعاجم، حيث يحتاجونه لمقاومة البرد وتسلق الجبال والتعامل مع أشجار غاباتهم.. وعلى هذا جاء قول جد صبحة، أبي رباح، عندما أخبر وهو يسكن قرية الدور هربا من ملاحقة الأتراك له، بأن مفرزة من الجندرمة تنوي الهجوم عليه وعلى أبنائه عند أو ضياء من اليوم التالي:

- أنا أخو هدلة، هل أهرب من مواجهة أولاد أمهات السراويل؟

ويقصد الأعجميات. وبقي يقاتلهم حتى استُشهد، هو وعم صبحة مولان في نفس المكان، ثم استُشهد ابنه محمد، وكان شابا في مقتبل العمر، في معركة أخرى طاردهم فيها العسكر العثماني، على الضفة الشرقية لنهر دجلة، المقابلة لبنت النهر، بعد أن دارت معركة اشترك فيها هو وأخواه عبد ورباح من جهة، والجندرمة من جهة أخرى.

وعلى وفق هذه الخلفية اشتدت العداوة بين العثمانيين الأتراك، وبين عشيرة السادة الحسينيين في بنت النهر، وخلف الحسينيين ويعضدهم أبناء مدينة بنت النهر كلهم ضد الأتراك العثمانيين، وعلى هذه الخلفية، اصطدموا بالأتراك ونال منهم رباح وأخوته وأبناء عمومته في معركة في مدينة بنت النهر،

قتلوا فيها اليوز باشي ومعه ستة أو سبعة من عسكره، وأدى ذلك إلى إحراق بيوت العشيرة، وهروب العشيرة من المدينة، حتى صدر عنهم عفو عام، من الباب العالي في اسطنبول، على وفق قصتهم الشهيرة في المدينة..

وهناك حادثة أخرى نبين عند ذكرها، كيف كان جندرمة الأتراك يتصرفون:

كان طه الخطاب شابا في مقتبل العمر.. تزاحم أثناء العبور مع اثنين من الجندرمة الأتراك، كانوا كلهم ينوون العبور إلى الضفة الثانية في الزورق الكبير المخصص لـ (العبرة)، فتلاسنا مع طه الخطاب، فما كان من أحدهما إلا أن وجّه بندقيته على طه وأرداه قتيلا في الحال، على الشاطئ القريب لبنت النهر، وقبل أن يركبا في الزورق، وصل الخبر إلى أخيه أحمد الخطاب، فجاء راكضا وهو يخفي خنجره تحت ملابسه، وقال لصاحب الزورق، الذي امتنع عن العبور بالجندرمة الترك إلى الضفة الثانية بعد أن قبل طه: " اعبر بالجندرمة" وغمزه بطرف عينه، حين قال: " وسأكون معهما".. وما إن توسطا الماء حتى هجم على القاتل بخنجره وأرداه قتيلا، ولم يكفِ بهذا، بل راح يقطع أوصاله، وهو (يحدي) وكلما قطع جزءا من أوصاله بالخنجر، رماه في الماء، ولم يبق شيئا منها.. وعندما أنجز واجبه، عاد بالزورق مع صاحبه إلى ضفة المدينة، بعد أن أوصلا الجندرمة الآخر إلى الضفة البعيدة.

عود على بدء، كانت بنت النهر مدينة تحمل صفة ناحية في السلم الإداري، ولكنها كانت أشبه بقرية مهملة من القرى العراقية آنذاك، وكانت فيها (علوتان) فحسب، وأمر طبيعي أن نقول، إن كل، أو جل معاملات البيع للفلاحين كانت تجري بالآجل، سواء في الدكاكين، أو العلوتين، بين موسم وموسم، حيث كانت النقود نادرة، وكان أغلب البيع والشراء بين الفلاحين، ومن يبيعهم أو يشتري منهم، يجري بما يشبه المقايضة، حتى ذلك الحين...

وكان في المدينة حلاقان أو ثلاثة، أحدهم كامل الحلاق (كامل المزيّن) حتى أن الطرف الذي فيه (كامل المزيّن) كان يسمى (محلة المزاينة) ذلك أن أحدا من أهل المدينة لم يكن يمتهن مهنة الحلاق، إلا من بين من هم في تلك المحلة.. وكان كامل المزين يذهب إلى رمز القرى من حين إلى آخر، ولكنه لم يكن يتقاضى ممن يحلق لهم أجورا فورية، وإنما أجورا عينية مؤجلة الدفع، يأخذها في الموسم حنطة وشعيرا، غالبا ما تكون (تنكة) حنطة أو (تنكتين) عن كل رجل بالغ، وكان المكيال للحبوب في بنت النهر وما جاورها هو (التنكة) الفارغة، أي صفيحة الدبس الفارغة، وكانت وزنة الحنطة عبارة عن ثلاث كيلات بصفيحة الدبس، وكان سبب عدم تقاضي كامل المزين أجورا نقدية هي ندرة النقود، وكان من يتعامل نقدا مع الفلاحين لا يبيعهم مثلما لو تعامل معهم بالآجل.

ولم يكن في المدينة كلها متر واحد مبلط بالإسفلت، أو ما شابه ذلك، حتى قيام ثورة تموز عام 1958، وكانت أبرز الأبنية فيها: الأربعين ولي، التي تقول الروايات أنهم الصحابة الذين استُشهدوا في معارك تحرير بنت النهر من الفرس، ومواجهة من قاوم جيش المسلمين العرب بقيادة عبد الله بن الأعتم في العام 16 للهجرة، الموافق للعام 637 للميلاد، وقبول الذين هربوا قبل وصول جيش المسلمين، الذي حاصر المدينة أربعين يوما، حتى تم الاتفاق على فتحها سلما مع قبائل إياد وتغلب وبكر ونمر، إلا أميرا من قبيلة إياد رفض أن يستسلم لجيش المسلمين وفق قصة معروفة في أهم تفاصيلها، وبناية الحفيز، وهي (الأوفيس) وفق التعبير الأجنبي الإنكليزي، وهو بناء متواضع يضم

مركزا للشرطة وبعض الدوائر الحكومية، يجاورها الحاكم (القاضي) الذي جاء وجوده في بنت النهر متأخرا.

ولم يكن في المدينة من يتصور أن تبليط الشوارع والأزقة من مسؤولية الحكومة، وكانت المياه الآسنة، التي تخرج من البيوت إلى الطرقات، قد حفرت مجراها وسط كل زقاق، أو طريق لتتجه كلها لتصب في نهر دجلة، وهناك كان صيادو السمك يجدون ضالتهم باصطياد السمك بالخيط، حيث يكون تجمع المياه الآسنة، وهي تنحدر من أعالي المدينة إلى النهر، وربما يحمل الماء الآسن معه ما يمكن أن يحمله من بقايا الطعام، فيتجمع السمك عند مصب الماء الآسن، مع أنه لم يكن يسيرا أن تجد قطعة خبز، أو حبة حنطة، وما شابه ذلك فرصة لتنحدر مع الماء الآسن إلى النهر في مدينة يعيش أهلها على الكفاف بوجه عام..

كانت المدينة خالية من الفنادق تماما، ولكن دواوين وجوه المدينة، ومنها دواوين السادة، تقدم خدمة الضيافة لكل زائر للمدينة، ولمن ليس له بيت يأوي إليه، وفي هذه الدواوين تقدم الضيافة كاملة، ومنها النوم والطعام، بصورة مجانية، على عادة العرب والعراقيين المعروفة.

وكان فصل زراعة الشواطئ أهم متنفس للمدينة في الصيف، حيث ينتقل أهل المدينة كلهم تقريبا إلى (السوابيط)، ومفردتها (سوباط) بينما تسمى وفق لهجة أهل المنطقة (سيباط) وجمعها (سيابيط)، ويزرعون الرقّي والبطيخ واللوبياء في الأرض المخصصة لكل منهم، بمحاذاة النهر، مبتدئين من الحافة الجنوبية للقلعة، حتى آخر مساحة شاطئ من الجنوب وتسمى (الجبلة)، ولعلها الزاوية النهائية في شاطئ تكريت التي تكون أمام المصلين عند اتجاههم للقبلة، وتشكل خط الاتجاه العمودي على القبلة باتجاه مكة المكرمة. وكان المتنفس الآخر هو وقت الربيع، حيث يخرج الأهالي زرافات زرافات، إلى الأربعين ولي، أو إلى مرقد أحد الصالحين الذين قاوموا الاحتلال الفارسي للمدينة في عام 1733، ويسمى ضريح محمد البدر.. ينتشرون حول المزارين أو الشعاب القريبة من المدينة، حيث تكون مياه الأمطار قد حفرت مجراها وهي تنحدر من الأرض المرتفعة في غرب المدينة باتجاه الشرق، حيث نهر دجلة الخالد.. أو يخرجون في الأعياد إلى هذين المزارين، نساء ورجالا، وكان الشباب يتسابقون على ظهور الخيل كأنهم فرسان في معركة، يسبق من في الأمام من خلفه، ويحاول أن لا يعطيه فرصة عليه، ويلمس الخلفي من هو أمامه كأنه في هذا طعنه، وتكون المطاردة، في العادة، بين نقطتين على الأرض، متفق عليهما، بحيث من يكون مطرودا يتحول إلى طارد عند وصوله النقطة المعلومة على الأرض وهكذا.. فيما (تفقع الهلاهل) الزغاريد من النسوة، ويطلق من لديه بندقية النار من على ظهر فرسه، وهي مغيرة، أو وهو على الأرض.

وكان السيد حسين يحضر السباق أو (المطاردة) في هذا المكان مع الشباب، على وفق ما أسلفنا.. وإذا أريد وصف لبنت النهر آنذاك، فقد كانت بيوتها كلها من اللبن والطين، أو من اللبن والجص الذي يأتيها من الأرض المجاورة، بعد أن تحرق الأرض بروث الدواب لعدة أيام، وأرض بنت النهر جبسية صالحة كلها لأن تتحول إلى جص (مادة النورة).. وتقع المدينة على أرض مرتفعة على حافة النهر وتطل عليه، وشكلها العام أشبه بكلية تراب رطب لفظته كيلة (شفل) أو كيلة حفارة غير منتظمة.

****

كانت صبحة تزور قبر والدها رباح كل جمعة، عندما صارت تعيش في بنت النهر، وتزور قبر حسين، وتقرأ سورة الفاتحة على قبور والدها وحسين وأعمامها، واحدا واحدا، وكانت في كثير من الأحيان تصطحب صالح إلى المقبرة، وهناك تقول له:

- هذا قبر جد، وهذا قبر أبيك، وهذا الذي قربه قبر أخيك أنور..

- أهو أصغر مني، يا والدتي؟ يعقّب صالح مستفسرا من أمه.

- نعم، عندما توفي كان أصغر منك، لأن عمره كان بين الأربعة وخمسة أشهر، بينما أنت، ولك العمر الطويل، يا ولدي، بعمر يزيد على ثلاث سنوات..

- ولماذا مات، يا أماه!؟

- أخذه الله إلى جواره.

- وهي يأخذ الله الجميع إلى جواره..

- نعم، يا ولدي..

وقبل أن يكمل ليقول: وأنت أكبر مني، وعمي إبراهيم أيضا؟ ضمته والدته إلى حضنها وهي تقول:

- أبعد الله الشر عنك، يا ولد، لقد مات أنور بعد أن مرض، ولم تكن لدينا إمكانية أن نأخذه إلى الطبيب، بل لم يكن هناك طبيب أصلا، بينما لم تمرض أنت.. وقد نشأت قويا والحمد لله..

وعندما يسألها عن النجوم في وقت ليل، تقول له:

- إن النجوم كبيرة، بقدر حجم الجمل، أو أكبر، وربما بحكم بيت، ولكنها بعيدة عنا، لذلك تبدو صغيرة لمن ينظر إليها من الأرض.

وعندما يسألها:

- كيف ذاك؟

تقول:

- إن الله أراد ذلك.

وعندما يسألها صالح:

- لماذا لا يقرب الله إلينا النجوم لتضئ لنا بصورة أفضل عن قرب؟

تجيبه أمه:

- إنه أمر الله، يا ولدي.

ورغم أن صالح لم يكن يفهم معنى هذا، إلا أنه يسكت..

ومع كل قبر تتعرف صبحة على صاحبه، تسرد لصالح قصته.. هذا قبر جدك مولان، شقيق جدك رباح.. قتله الأتراك في مدينة الدور، وقتل معه مسلط والده، وهذا قبر عمي محمد، قتله الأتراك أيضا في زمن لاحق، ربما بعد عدة أشهر من مقتل مسلط وابنه مولان، قتل مطاردة على ظهور الجياد مع الأتراك أيضا، بعد أن قاومهم ببسالة وهو في عمر لا يزيد عن ثماني عشرة سنة، واستطاع شقيقاه بعد ذلك، وهما جداك رباح وعبد، أن يتخلصا من شرهم... و... الخ، ثم تجلس بعد أن تكون قد مشت طويلا هي وصالح، أو وقوفا أمام كل قبر لتقرأ الفاتحة، وكان صالح يراقبها من غير أن يفهم لذلك معنى، ثم تجلس وتبكي مرتين، مرة أمام قبر والدها رباح، وأخرى أمام قبر حسين والد صالح، وكان صالح عندما تبكي يجد أن دموع عينيه تنهمر من مآقيها في أغلب الأحيان.

ليسَ المسمى بها من راحَ يشجيها

وإنما روحهُ إن شحَّ ساقيها

أحاورُ النفسَ منها كلّما هدأتْ

والدمعُ يهطلُ من سفلى مآقيها

أقاومُ الضعفَ فيها كلّما هزلتْ

فتنتخي ذاتها حباً لباريها

تسافرُ الروحُ مني في الفلاةِ فلا

جبراً تعاودُ بل طوعاً لحاديها

ولا تقصرُ عنها كلّما عصفتْ

تهدي الدماء على قدرٍ لمهديها

تسمو وتسمو نقاءً كلّما خفقتْ

وترتقي خبباً فاضت معانيها

زادتْ يدانا اشتباكاً في حرارتها

من فرطِ حبٍّ تديننا وندنيها

ليسَ العناقُ لها قد كان ضائرُها

بل كانَ ما كانَ بغياً صار يخزيها

سحّت دموعاً وحتى أن أرجلنا

حجلى تراءت وقد فاضت سواقيها

الجزء السادس

" عندما لا تفكر، يصدأ دماغك، وإن لم تعتنِ بعينيك، هرشها القذا، والزند الذي لا يقدح، لا ترجو منه خيرا، وعندما لا يهيأ ليلاوي، يخذل صاحبه إذا اقتضى الأمر استخدامه في صراع، ومن ينشد الشر يحصد نتائجه"..

وضعت صبحة أدهم، وكان أول ابن لها من إبراهيم، وفرح صالح بالطفل الجديد، مثلما فرحت به صبحة وإبراهيم، ولكن هل تقع حرب من غير خسائر**!**؟ أليس صراع الإنسان العراقي في حال كالذي أشرنا إلى جانب منه في مدينة بنت النهر، حربا مستديمة للإنسان ضد المرض والجهل والجوع والتخلف، مثلما هي الحرب ضد كل أجنبي محتل..؟ أليس كل عنوان من هذه العناوين قادرا على أن يلحق خسائر جسيمة بالإنسان، عندما لا تكون وسائله وتهيؤه في الوعي، والتحسب، والتحوط، على وفق ما ينبغي**!**؟**.** بل لو لم يكن الإنسان العراقي ذا صلابة خاصة، ألم تكن قادرة، لو اجتمعت، على أن تفتك به وتخرجه من حلبة الصراع مهزوما**!**؟ ألم تتحالف هذه الوحوش الأربعة **(** الفقر والجهل والمرض والتخلف**)**، مرجفة فعل الأجنبي المحتل، ضد العراق مدة سبعمائة عام؟ وتتعامل مع شعبه وهي تحمل كامل عدة التدمير **(** كفرط**)**، أي بالمفرد، وليس ككتلة يواجهها.. وأقصى ما يمكن أن يكون عليه حاله الجمعي من تضامن غير واعٍ، أن يحصل على مستوى العائلة، أو الأقرباء الأقربين من العائلة، أو على مستوى العشيرة، والقبيلة؟ أليس مثل هكذا مواجهة، حيث يحشد العدو للعراق بكل ما معروف عنه كشعب عريق وكبير على عهد الدولة، عندما ازدهرت في زمن العباسيين، حتى صار الشعب ثلاثين مليون إنسان، بينما يواجهه شعب العراق بمقاومات فردية من هذا أو ذاك ممن لم يقع عليه المرض، وهو معصوب العينين والعقل، ولا يعرف كيف يتخندق أمامه، ليقلل أ ضراره، ولا يعرف كيف يختار وسائل المواجهة المؤثرة ليدرأ عنه شر العدوان؟ أليس هذا هو الذي جعل المرض

والجهل والتخلف، بالإضافة إلى غزوات جيوش الأجانب، تقضي على تسعة وعشرين مليون إنسان، وكل نسب الزيادة في الولادات، حتى بقي من ذلك العدد بحدود المليون إنسان في العشرينات والثلاثينات، أو ما يزيد عن ذلك قليلا؟.. أليس الاختلال في التوازن وغياب الوعي والقدوة وسيف الدولة الأمين، هو الذي أطمع هولاكو بالعراق، فدمر حضارته العظيمة، وقتل من قتل من أبنائه، وفي مقدمتهم العلماء؟ ثم أليس التخلي هو الذي دمر الحضارة، حتى لو لم يأتِ هولاكو ليقضي عليها وتحسب عليه؟

نعم، هكذا كانت المقاومة ضعيفة، بل إنها لا يمكن أن تسمى مقاومة جدية، وإنما وضع الجسم دريئة لحماية بقايا النفس والاعتبار والحياة، لكي لا يأتي المرض والتخلف والفقر والأجنبي على العراق والعراقيين ككل.

وهكذا مات أدهم وقبله أ نور، وبقي صالح فحسب من بين ثلاثة أخوة، آنذاك، من أم واحدة، على قيد الحياة.. ألا يجعل من يعيش بعد قتال وخسائر يكون الناجون منها ثلث الذين قضوا، الناجين أكثر قدرة في معرفة فنون الحرب؟ وكيف ينازلون العدو وينتصرون عليه؟.. ألا يكسب عبور شطئان الموت من يعبرها خبرة خاصة لعقله ونفسه وجسمه؟ هكذا كان العراقيون الذين بقوا على قيد الحياة، وهم يواجهون المرض والجهل والجوع والتخلف، ويواجهون مع هذا كله غزوات متلاحقة، تسعى لتدمير الإنسان والحضارة والاعتبار والدين.. وكان المليون الذي بقي أو ما يزيد عليه قليلا ومنهم صالح، بقايا من لم يستطع الموت أن يزدردهم، وكان هذا المليون حجر الأساس، وما يديم الحياة ويطورها، ومنه ولد آباء وأبناء وأحفاد، ومن ذلك التأسيس الذي أدخل في المليون إنسان أوائل القرن العشرين، أعدت، بعد أن حضرت عواملها الحيوية الأساسية، قاعدة المقاومة والانتصار على الأعداء كلهم، من غير أن تتدمر الحياة، حتى يومنا هذا.. ونأمل أن تكون دائمة الصعود، إن شاء الله.

****

انتقلت عائلة إبراهيم.. صبحة وصالح وإبراهيم إلى بيت جديد وجيران جدد، غير بيت ياسين الرحيم، ذلك لأن صبحة أرادت ذلك، واستجاب إبراهيم لرغبتها، وفي ظنها أن سبب وفاة أدهم، أو في الأقل واحدا من الأسباب الرئيسة هو أن (عتبة) ذلك الدار لم تكن عتبة خير على العائلة.. ألا يتخبط من يجهل الأسباب لظاهرة أو نتيجة، في الإتيان بأسباب ليس لها دور في ذلك؟ وربما كان من بين الأسباب التي رأتها صبحة، ومعها النساء اللائي وافقنها في الرأي، أو حثثنها عليه، أن امرأة ما جاءت إلى البيت بوجه محب وهي تتعطر بعطر الخضيرة (رائحة مسك وخضيرة بطي أكذلهن) واقتربت من أدهم، وبعد ذلك، انكسرت رقبة أدهم، ولم يعد أحد يستطيع أن يوقفها على محورها، فمات!!..

التفت أحدهم إلى من حوله ليقول: أتعرفون، لماذا، وكيف كانت رائحة الخضيرة، أو المسك، أو ما شابه ذلك، وهي كلها عطور أو مواد أولية في عطور، تضر الأطفال، وأحيانا تضر حتى الكبار إذا أصابهم جرح!؟.. ذلك لأن جسم الإنسان آنذاك، وأجهزته بما في ذلك جهازه التنفسي وتكوينه الكلي لم يعتد إلا على التعامل مع روائح محددة يشمها في محيطه.. كروائح الورود التي اعتاد عليها ضمن محيطه.. وروائح روث البقر والغنم والخيول، ورائحة تراب الأرض والحنطة عندما تخبز، والشعير والذرة.. بل كانت حتى الحنطة، عندما تخبز بعد الحصاد مباشرة، تلحق أضرارا بجرح من يشم رائحة الخبز.. حتى يتعرف ويعتاد عليها الجسم.. ذلك لأن قسما كبيرا من الناس في الريف، في الأقل، وبدرجة أخرى في المدن الصغيرة، لم يعتادوا على تناول خبز الحنطة، الذي كان يعتبر حالة نادرة. ألا يُستفز جرح من يشم صاحبه رائحة لم يعتدها!؟.. وإذا كانت وسائل النقل بوجه عام على الدواب، فإن

اعتياد الجسم على رائحة يألفها قد تبقى معه في المكان المحدد سنين وسنين، وما عداها غريب، وأحيانا تبقى مضر مثله مثل من تؤلمه معدته، ويسأله صاحب الحذق المتميز آنذاك، ماذا أكلت هذا اليوم؟ فإذا قال له مثلا إنه أكل (مثرودة) والمثرودة عبارة عن بقايا خبز يابس، هي في الأغلب حافات أرغفة الخبز كبقايا لا تؤكل، تضعها ربة البيت في ركن مرتفع من البيت، غالبا، وتجمعه، وعندما ترى أنها تكفي لإفطار العائلة وفق تقديرها، تضع في قدر كمية صغيرة من (الادام)، و(تثرم) فوقه بصلة أو اثنتين حسب المتوفر، وعندما (يحمس) يقلى البصل في (الدهن) السمن تضيف للدهم والبصل كمية من الماء والكاري، وتضع فوق كل ذلك، كسر الخبز، وتترك القدر يغلي بما فيه لزمن قصير، حتى تصبح الوجبة جاهزة.. والمثرودة وجبة متميزة في الريف، لا ينالها إلا من كان ذا حظ عظيم.. وكثر من فقراء الريف يتحسرون على الظفر بها لأنهم لا يتمكنون منها.. وكان هذا أيضا حال أهل المدن الصغيرة، إلى حد قضاء داخل، وعلى ذكر البصل، ونحن نتحدث عن أكلة (المثرودة)، أذكر طريفة مؤلمة تؤشر جانبا من حياة العراقيين آنذاك، بل وبعد ذلك إلى حين.. فقد كان الناس على الضفة الثانية الشرقية من النهر، إذا ما مرض لهم شخص، يصيح أحدهم من على حافة الشاطئ المقابل، إن رأى رجلا أمامه على الضفة الغربية من نهر دجلة حيث قرية رمز القرى: هل لديكم بصلة للوجعان (المريض) وفي ظنه أن البصلة تشفي المريض (الوجعان)، وعندما يجيبه قائلا له: نعم.. يعبر باتجاهه سباحة ليحوز على رأس بصل أو أكثر، ويعود إلى الضفة التي جاء منها ليعطيه للمريض مع كسرة خبز.. أليس اعتقاد أولئك الذين لم يكونوا يملكون حتى رأس بصل يقدمونه للمريض، صحيحا بأن البصل يشفي المريض!؟ نعم، إن البصل يشفي المريض بما فيه من طاقة وفيتامينات حيث أن مرض كثر من الناس آنذاك سببه نقص الغذاء وافتقارهم إلى الحد الأدنى مما يديم الحياة، فيمرضون ويموتون، أو يشفون إذا تهيأ لهم بصل بإذن الله، أما من تذبح له دجاجة وتطبخ ويأكلها، أو يأكل جزءا منها، فهو صاحب حظ عظيم.. وإذا قال أحدهم لسائله الخبير في معرفة المرض: إنه أكل مثرودة، أو أن فلانا دعاه فذبح له ذبيحة، وأكل لحما مع الثريد، أ, أنه حضر فاتحة في المكان الفلاني، أو ختانا لابن أحدهم، أو عرسا وقدم له صاحب الوليمة والدار طعاما يختلف عما اعتاده في حياته اليومية، قال له: إن سبب الألم في معدته، إنه (مخلوف)، بمعنى أن معدته دخلها ما لم تعتد عليه يوميا من الخبز والبصل، أو الخبز والماء.. أو الخبز والفجل.. أو الخبز والحليب أو اللبن، وما يتصل بهذا ويتقارب معه.. ومعنى ذلك من وجهة نظر معدته المحترمة، أن جديدا دخلها بخلاف ما اعتادت عليه، وهو على هذا الأساس يستحق أن يعاقب، بأن تغرقه في الآلام، وتتركه يتلوى، وقد تشفع له، أو لا تشفع، شربة ماء يكون أحدهم نفخ عليها أو بصق فيها، أو أن تتولى واحدة من كبار السن قطع الهواء فوق بطنه بسكين، وهي تقرأ ما تعرفه، وفي ظنها وظن من تعالجه أن هذا هو العلاج الناجح لـ (الخلفة).. وإذا كانت (الخلفة) تعمل هذا بالإنسان، فلماذا لا يعمل الشم ما يعمله، بما في ذلك إماتة الصغار، وتقيح الجروح، لو شم من لم يعتد رائحة غير مألوفة، وعلى هذا، تقول والدتي، إن أدهم شم رائحة إحداهن، فمات، وإن مولان عمها شم رائحة إحداهن، ربما تعمدت أن يشمها، وهي رائحة خضيرة، فتقيح جرحه، بعد أن طعنه الترك بطلقة ولم يمت في اللحظة، وإنما أماتته الخضيرة!؟ ولذلك كانت الأمهات العرافات بشؤون الأطفال غالبا ما يجمعن عددا من النباتات، أو بذور النباتات على بعضها، ويضعنها في محفظة مثلثة الشكل غالبا، ويعلقنها في مهد الطفل، لكي يشم رائحتها بصورة غير مباشرة، حتى لا تفاجئه أي منها لو شمها بصورة مباشرة ومركزة، ويقال إن عدد هذه (الحوائج) التي غالبا ما يهيئها العطارون لطالبيها، يبلغ حوالي أربعين نوعا، على وفق ما تشير إلى ذلك كبيرات السن من أهل بغداد.. أما في بنت النهر، فلا يحتاج الطفل ليتطعم بالرائحة إلى

40 نوعا، ذلك لأن الروائح الغريبة في بنت النهر أقل من الروائح الغريبة في بغداد..

" عندما يقول مؤمن ويعمل بالباطل على حساب الحق، فإنما يتخلى عن نفسه ودينه.."..
إذن استقرت عائلة مال الله المؤلفة منه ومن أمه وأخيه وإخوته وزوجته وابنته عابدة وابنه عدنان في بغداد، وعلى ما مضى من زمن وجودهم في بغداد، وما صاروا عليه في حياتهم الجديد، بدت آثار المآسي التي وقعت عليهم في بنت النهر كأنها اندملت، أو كادت تندمل، أو كأن مظاهر السعادة بانت عليهم، كل حسب إحساسه ونوع همومه وعمره.. وكان مال الله يملأ بوجوده وحركته ومعشره المحبب البيت وصلا بمعاني السعادة، وكان مولعا بالاعتناء بصحته، وإرشاد أهل بيته على أهمية الصحة والاعتناء بها، وكان إذا ما استخدم قطرة (زنك) أو (بوريك) لغسل عينيه، تمنى على والدته حليمة أن تفعل مثله، وعندما يأتي بالقطرة ليقطر في عينه أمه حليمة، كانت حليمة في الوقت الذي تفتح جاهدة جفن العين المرشحة ليقطر فيها، كانت تفتح فمها مع محاولتها فتح عينها، وعندما يجد مال الله فم أمه وعينها مفتوحتين، كان في الوقت الذي يقطر في العين يضع (زرقا) في فم والدته، وعندها تضربه والدته على قفا ظهره، وتعيره بأحد أفراد العشيرة الذي ولد وعقله متخلف جراء عسر الولادة، وغالبا ما كان هذا يحصل لكثير من المواليد في ذلك الوقت بسبب انعدام الرعاية الصحية العامة للدولة، وضعف، أو انعدام الوعي الصحي والقدرة المالية، إضافة إلى أن المرأة لم يكن مستساغا لها ولذويها أن تعرض نفسها على طبيب في ذلك الوقت، مع انعدام أو ندرة الطبيبات.
يضحك مال الله، ويعيد الكرّة على العين الأخرى، ومعها يحاول أن يضع قطرة في فم أمه الذي لا تستطيع إغلاقه، رغم كل ما تبذله من جهد لتتخلص من احتمال أن يضع مال الله قطرة في فمها بعد عينها..
على كل حال، كانت العائلة سعيدة، غير أن حياة لؤلؤ لم تنسجم مع حياة أم وأخوات مال الله، وقد تعقدت أكثر عندما رفض مال الله تزويج أخته التي اشترط والد لؤلؤ عليه في يومها أن يعقد قرانها على ابنه قدوري، لكي يوافق والد لؤلؤ على زواج مال الله منها، وعبثا حاول مال الله أن يقنع والد لؤلؤ في حينه بأن أخته صغيرة، وأن عمرها عشر سنوات، ولا يجوز أن يعقد لها وهي في هذا العمر، بل عندما تبلغ سن الزواج، وتسأل وتوافق فحسب، ورغم ذلك، أصر عبد الوهاب، والد لؤلؤ، على عقد الزواج تاركا الدخول إلى أن تبلغ البنت، ولكن عندما بلغت البنت رفضت لزواج، ووجدت، بالإضافة إلى رأيها، تشجيعا في هذا من عائلتها كلها، وحتى من أعمامها، ذلك أن من تقاليد أهل رمز القرى، وعموم العشيرة، أن يكون الزواج بين الأقربين أولى إذا ما (تراهمت) اتفقت العوائل المعنية على ذلك، وقد اعتبرت لؤلؤ ووالدها وأخوها أن هذا إخلال بما ينبغي أن تقوم به عائلة مال الله من دور في إقناع ابنتهم على الزواج من ابن عبد الوهاب، وأضاف هذا الحال تعقيدا جديدا لعلاقة أهل مال الله، إضافة إلى ما أسلفنا عن نوع علاقتهم بلؤلؤ، أم عدنان وعابدة، فانفصل مال الله عن لؤلؤ، وانتقلت لؤلؤ لتعيش في بيت أبيها، في سوق حمادة، في جانب الكرخ، ومعها عابدة وعدنان. التزم مال الله بأداء حقوق زوجته ونفقة أولاده وهم في بيت جدهم، كاملة غير منقوصة..
ولأن مال الله جدي، كان لا يقبل أن يرى أحدا غير جدي في ما يوكّل إليه وبخاصة في الدراسة..
كان عبد اللطيف لا يتعامل مع المدرسة بنفس الجدية التي يريدها مال الله، ولذلك غالبا ما كان مال الله ينهر عبد اللطيف ويعنفه على عدم تفوقه بين أقرانه، وكان هذا واحدا من أهم الأسباب التي جعلت حليمة (تأخذ على خاطرها) أحيانا من ابنها مال الله، رغم أن مال الله محق في هذا.. ولكن هل يمكن أن تفهم أم أمية ماذا يعني أن يتفوق طالب مثلما يفهم مال الله قيمة ذلك، وهو من الشريحة التي تعد

الخط الأمامي في الوعي والثقافة آنذاك.
مع كل هذا كانت العائلة سعيدة.. ومرت الأيام حتى قامت الحرب العالمية الثانية، وكان الإنكليز يريدون وضع وإبرام اتفاقية عام 1936، التي أملوها على إمعّات الحكم آنذاك، ومن بين ما نصت عليه حرية حركة جيوشهم في أراضي العراق، ضد عدو محتمل لهم، مع التزامات وتسهيلات أخرى منصوص عليها، تقدمها الحكومة العراقية لجيوشهم، ومن الطبيعي أن يعارض الجيش العراقي ذلك، لأن تطبيقها يعني وضع العراق في حالة حرب ضد عدو لم يفترضه العراقيون على هذه الصفة، ولا يهدد مصالحهم وفق ما يرون، بل إن قسما منهم وبخاصة المسيسون والواعون ثقافيا وسياسيا، ولكن غير منتمين للحزب الشيوعي التابع لموسكو آنذاك، كانوا يرون أن قاعدة (عدو عدوي صديقي) مما قال بها الغربيون كذريعة، تصلح لأن تنطبق على الحكومة الإنكليزية فحسب، لذلك كان تحالف المحور الذي ضم أطرافه المعروفة ومنها ألمانيا، ضد التحالف الغربي- السوفييتي فيما بعد، وأطرافه المعروفة، لا يستوجب أن يكون العراق ساحة قتال إلى جانب الغرب وتحالفه ضد ألمانيا وتحالفها، بل إن قسما من المتحمسين ضد الإنكليز رأى أن دعم الألمان في القضاء على مستعمري الوطن العربي أوجب، فيما رأى أغلبية الوطنيين، ومنهم الضباط العقداء الأربعة: فهمي سعيد، وصلاح الدين الصباغ، ومحمود سلمان، وكامل شبيب، أن يكون العراق على الحياد، مع تمنيه هزيمة الحلف الذي يضم بريطانيا.
وعندما أراد الوصي على عرش الملك، الأمير عبد الإله، أن يطبق الاتفاقية بهواه الإنكليزي الغربي.. عزل الجيش عبد الإله عن الوصاية، بالتعاون مع رشيد عالي الكيلاني، الذي صار رئيس للوزراء، بعد أن كان رئيسا للديوان الملكي، وأعطى الولاية على العرش إلى واحد من أبناء عمومة الملك غازي هو (الشريف شرف).. وكان من الطبيعي أن يرفض الإنكليز ذلك، ويرفضوا الانصياع لرفض الجيش ورشيد عالي تطبيق اتفاقية عام 1936 الاستعمارية، فوقعت الحرب هذه المرة بين العراق الرافض لاستخدام أراضيه من قبل الحلفاء.. والرافض لتطبيق اتفاقية عام 1936 الاستعمارية، وبين الإنكليز..وكان مال الله من بين الضباط المتحمسين للعقداء الأربعة وإجراءاتهم، وضد الإنكليز ومشاريعهم.. وصارت قصة العراق بعد ذلك معروفة، حيث لم يستطع جيش العراق، رغم بسالته، أن يوقف تقدم الجيوش الإنكليزية لتحتل بغداد وتسقط حكومة رشيد عالي، وبخاصة بعد أن قصفت طائرات الحلفاء مقر الحكومة بثلاث قنابل، فهرب رشيد عالي وقسم من الضباط، بمن فيهم العقداء الأربعة.. وفيما بعد سلمتهم إيران وتركيا وفق ما هو معروف مما يخزي هاتين الدولتين اللتين انعدم فيهما أي معنى عال إزاء أناس اختاروا أن يلجأوا إليهما لجوءا سياسيا، وتم إعدام العقداء الأربعة، ومعهم يونس السبعاوي، وسيقت إلى السجون أعداد غفيرة من الوطنيين العراقيين عسكريين ومدنيين، ومنها سجن (نقرة السلمان) في الجنوب الغربي من العراق.. ذاك المكان المنعزل في الصحراء، والذي يكون مصير من يهرب منه الهلاك، إما بسبب العطش والجوع، أو افتراسه من ذئاب الصحراء الجائعة، وكان مال الله (1) من بين الضباط الذين اعتقلوا في (نقرة السلمان) ولكن هل كان بإمكان أحد أن يتوقع إمكانية انتصرا جيش ضعيف التشكيل والتسليح وسط شعب لم يعِ دوره، ولم يكتشف نفسه، بعد ذلك السبات الرهيب الذي امتد لأكثر من ستمائة عام، بين انقطاع الدور عن بغداد، وبين ذلك التاريخ في العام 1941؟، وهل بإمكان جيش في الوطن العربي أن ينتصر، من غير أن يكون وسط شعب محارب ومعد على مستوى يرتقي به إلى دوره وعيا وتصرفا وعقيدة؟..

دارتْ رحاها ودارتْ بعد أن همدتْ

ونتتضي بيضنا لو سفّ عاديها

نواجهُ الهولَ فيها كلّما عصفتْ
نردي الأعادي إذا ما غارَ حاديها

أهلُ المكارمِ في الحالين تعرفنا
إن شحّ مالٌ وإن فاضتْ سواقيها

نصولُ لا طرفنا يرتدّ عن خور
لا العزمُ هانَ ولم تذرفْ مآقيها

نهيم وجداً بها لو أنها صدقتْ
سودُ العيونِ إذا ما درّ ساقيها

ونخلصُ الودّ لا خوفٌ ولا ملقٌ
أهلُ الذمار إذا ما غابَ مفتيها

****

لقد انطفأت محاولة الضباط القادة الأربعة الأحرار، ومعهم البطل وزير كتائب الشباب يونس السبعاوي، ولكنهم فتحوا بمحاولتهم السبيل لروح التضحية وتأجيج الحقد على عبد الإله ونوري السعيد وكل نظام الحكم، وفتحوا الطريق لمحاولات أخرى، وحسبهم أنهم حاولوا تعبيرا عن ضمير الشعب والأمة..
وكان مال الله قد أصيب في معارك مواجهة جيش الإنكليز، وبقيت شظايا في واحد من أصابعه وفي ظهره، وكان يشير إليها دائما عندما يتحدث إلى جلسائه في الزمن اللاحق لسجنه، ويعتز بها كعلامة من علامات البطولة في مواجهة المستعمر، وكشهادة تدل على التضحية..
وبانتقال مال الله إلى معتقل (نقرة السلمان)، وهذا هو الاسم الرسمي لمعتقلهم، انطفأت الشمعة التي كانت تضيء بيت مال الله في بغداد، فانتقلوا عائدين إلى مدينتهم بنت النهر، واستأجروا بيت الحاج طالب أو رديف، وسكنوه في منطقة الحارة..
وهل ما هو أفضل من بنت النهر حيث الأقارب، ومكان المنبت القديم، وأصحاب العشرة الطيبة، والنفس الأمينة من الناس البسطاء في مدينة كانت أقرب ما تكون إلى الريف البائس آنذاك مما هي إلى مدينة متمدنة؟ ومع أ،ه لم تكن في العراق آنذاك حياة تستطيع أن تحدد للريف حدوده، بحيث لا يمتد في عاداته، ونوع حياة الناس، إلى داخل أي مدينة، عدا استثناءات محدودة بعينها من أعوان السلطة، وأولئك الذين يعيشون على فتات المصالح التي يوفرها لهم أصحاب السلطان، وبقايا عوائل الموالي أو الأتراك العثمانيين الذين بقوا في العراق، وقسم من اليهود وشركائهم من التبعية الإيرانية،

وكلهم أعداد لا تشكل مجتمعا مغايرا للوصف الذي تحدثنا عنه..
بقي مال الله في سجن نقرة السلمان خمس سنوات، وقد غلظ حكمه ستة أشهر أخرى.. ذلك أنه كسر لأحد الجواسيس داخل المعسكر عددا من أضلاعه بعصا على رأسها قطعة حديد مدورة، بعد أن شاع أمر ذلك الجاسوس في السجن.. وكان هذا الجاسوس ابتداء من بين المحسوبين على الوطنيين، ولكن إدارة السجن، بإيعاز من الجهات الأمنية للنظام، أناطت به مهمة الإشراف على طعام السجناء داخل السجن، ليضمنوا احتكاكه بكل السجناء وزيارة كل غرفهم، والتنصت على آراء من يستطيع التعرف على آرائه، لينصح الحكم بما ينبغي إزاء من يضعفه السجن، وينقل لهم انطباعات مباشرة عن الذين لا يتمكن السجن من كسر شوكتهم.. وهل يخلو سجن من ناس يضعفون داخل جدرانه، وأبوابه الموصدة، وأولئك الذين لا يستذكرون معاني قولهم وشعاراتهم قبل أن يدخلوه، ولا معاني أنهم رجال يجب عليهم الصمود، عندما يدخلون السجن على قضية حق ضد باطل، وقضية مشرفة ضد ما هو زائف ومندس!؟
كان ذلك الخائن واحدا من الذين لم يحفظوا أنفسهم، فباعوها بعد أن أضعفهم السجن، أو الإغراء في أجواء سجن، ولكن أخا هدلة مال الله انتخى في يوم ممطر، قارص البرد.. وبعد أن هيأ العصا، وكلف من يرصد له حركة الخائن بين مجموعتين في السجن، تقتضي الحركة بينهما أن يقطع مسافة بعيدة نسبيا، رابط مال الله له، وعندما مر من مكان بعينه، انقض عليه كليث، وضربه عدة ضربات، وتركه مرميا على الأرض وسحق عددا من أضلاعه، ومن يومها ارتفع شأن أخي هدلة مال الله بين المعتقلين، فهو بالإضافة إلى دوره بين الثوار والمقاتلين الذين استبسلوا في مقاومة جيوش الإنكليز في الثورة، التي سميت ثورة رشيد عالي في مارس من عام **1941**، وما أصابه بها في يده وظهره من شظايا، قام بدور متميز داخل السجن، وبخاصة بين شيوخ العشائر الذين كانوا مسجونين مع العسكريين والسياسيين المدنيين، الذين صدرت عليهم أحكام بسبب تأييدهم للثورة..
وهنا نستذكر طريفة لأحد شيوخ العشائر.. فقد أراد هذا الشيخ أن يبعث ببرقية تأييد إلى رشيد عالي الكيلاني والضباط الأربعة، وكان عليه أن يذهب إلى حيث البريد في المدينة، في جو ممطر، لا يستطيع الإنسان فيه أن يخلص نفسه من الأوحال، وهو يسير حافي القدمين في الأراضي السبخة الموحلة في أغلب مناطق جنوب العراق في فصل الشتاء، فكيف الأمر إذا كانت وسيلة الانتقال دابة..؟
امتطى هذا الشيخ دابته، وقصد أقرب بريد، ليبعث البرقية بواسطته وكان البريد عبارة عن صندوق، توضع فيه الظروف معنونة إلى أصحابها، بعد دفع رسم طابع يحمل اسم مناسبة بعينها، وإذا تصورنا أن المسافة بين القرية التي يسكن فيها (المحفوظ) شيخ العشيرة، والقضاء المقصود، هي ثمانون كيلو مترا أو أكثر، فبإمكاننا أن نقدر عدد الأيام التي تستلزم وصوله إلى القضاء في أرض موحلة وسبخة، ووسيلة وصوله ظهر دابة!؟.. ويبدو أن هذا الشيخ احتاج لعدة أيام لكي يصل مكان المراسلة، ومن الطبيعي أن نقول أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة، ولذلك استعان بالمشرف على البريد ليقول له:
- سجل يبه عندك.. وعندما أمسك الموظف بالورقة والقلم، قال:
- من الشيخ فلان، إلى فخامة رشيد عالي الكيلاني وإخوانه الضباط الأحرار.. أنا الشيخ فلان.
وعندها صاح به الموظف:
- عمي، يا شيخ، يا رشيد عالي.. يا.. بوية.. عمي رشيد عالي سقطت حكومته، وهرب خارج العراق، وعاد الوصي على العرش عبد الإله.. وفشلت الثورة..
قال الشيخ، من غير أن يعدل كثيرا في وضع حاله، وقد أنهكه السفر حتى ظفر بصاحب البريد..

- بوية.. اجلبها على الوصي.. أي غير، أو اقلب، برقية التأييد من رشيد عالي، إلى سمو الوصي!!
نعود لنقول رغم أ، أحدا لم يتقدم شاهدا على مال الله في معاقبته للخائن، ذلك لأن أحدا لم يره وهو ينفذ ذلك بسبب ظلام الليل الممطر والمكان الذي اختاره ليهجم عليه وفق توقيت بعينه، وإنجازه المهمة بأسرع ما يمكن، وإسراعه ليكون خارج المكان، بعد أن ترك الخائن ممددا على الأرض، وتخلصه من العصا، وحتى من رآه لم يتقدم بالشهادة ضد مال الله الذي أنكر التهمة التي وجهت إليه..
وهل يمكن للخائن إلا أن يكون رجيما من شعبه؟.. وهل يمكن لأحد أن يتعاطف مع خائن..!؟..
ولكن هل تحتاج المجالس العرفية، التي يختار أصحابها الحكام الذين باعوا أنفسهم للأجنبي، إلى مستمسك قانوني!؟ ثم هل يكون هاجسهم الأساس هو العدالة، أم حماية أصحاب نعمتهم عملاء الأجنبي!؟
لقد صدر الحكم بالسجن على مال الله على أساس القناعة وشهادة من وقع عليه الفعل فصار حكم مال الله خمس سنوات ونصف السنة..
عاشت عائلة مال الله بين أبناء عمومتها وأبناء مدينتها معززة مكرمة، وكانت أرض رباح عبر النهر، وحصتهم في مضخة الماء التي تسقيها مشاركة مع عمهم عمر وأولاده، وأبناء عمهم عبد، هي مصدر العيش الأساس لهم.. كان إبراهيم أبو همام قد نقل سكنه هو وصبحة وصالح إلى أم القرى، بين أهلهم وأقربائهم هناك، وقد ضم السكن في القرية أمينة إلى جانب صبحة، وكانت فرحة صالح كبيرة عند لقائه مع همام بن إبراهيم وأخته مريم، وكان همام بعمر يزيد عن عمر صالح بست سنوات، وكان عمر أخته مريم أقل من عمر صالح بسنة تقريبا.. عاش صالح وسط عائلته هذه، بعد أن توسعت وضمت بالإضافة إلى أمه (وعمه) إبراهيم، همام وأخته مريم وأمهما أمينة..
كانت أمينة امرأة متواضعة، ضئيلة الجسم، قصيرة القامة، بيضاء اللون، فيما كانت صبحة طويلة القامة، بجسم متناسق، حنطية البشرة بعينين سوداوين متوسطتي السعة..
كانت أمينة لا تحسن الكثير مما ينبغي عمله في البيت.. ولا تجيد ما يطبخ على نحو يرضي العائلة.. ولا تعرف فصال وخياطة الأثواب.. ولكنها كانت طيبة، نحبها حبا كبيرا، لأنها تحكي لنا قصصا من التراث الشعبي أظنها منقولة، أو مطورة على قاعدة ما معروف عن العراق من غنى في ميدان القصص والروايات، وخزينها الكبير: قصص ألف ليلة وليلة.. وكان واضحا لمن يتعرف على أمينة سبب زواج إبراهيم عليها من أم صالح، ورغم أنها كانت بنت عم والد صبحة، حيث أنها تلتقي هي وأبو صبحة في الجد الثالث.. فقد كانت كل من صبحة وأمينة كأنهما من طينة مختلفة تماما، عدا جانبا أساسا من التقاليد المشتركة: أمينة ليست مؤثرة كما ينبغي في وسط الكبار، ولكنها محبوبة من قبل الصغار الذي يتعايشون معها..
كانت صبحة قوية الشخصية، معتدة بنفسها اعتدادا عاليا، ولا يصدر عنها، في الدور التوجيهي والتعليمي للكبار والصغار، أطفالا ورجالا ونساء، إلا ما يعلي الشأن، ويعلم، أو يزيد من المعاني العالية، وكانت أمينة متواضعة في كل هذا.. وتعتمد على صبحة في كل ما يقتضيه إعمال الفكر في شؤون البيت، أو التعامل مع الضيوف والأقرباء.. وتعتمد عليها في شؤون المطبخ، وفي تفصيل وخياطة كل ما يحتاجه البيت من ألبسة أو أفرشة للعائلة.. وكانت تقول لصبحة:
- خيّة صبحة، أنت معدلة (أي ذات قدرة على الترتيب والعناية بالأمور) لذلك عليك خيّة تدبير شؤون البيت، وأنا أكفيك كل ما يقتضي حالنا ومعيشتنا من عمل يتوجب على المرأة خارج البيت، وفي الوقت الذي تستطيعين تدبير شؤون البيت من داخله، فأنت غير مهيأة للقيام بعمل في شؤون الزراعة، والإشراف على تربية الحيوانات، وحلبها خارج البيت.. وعلى هذا الأساس قسّم العمل رضائيا بين

صبحة وأمينة، زوجتي إبراهيم، ووالدتي صالح وهمام.. وكانتا تعيشان في وئام دائم، عدا منغصات لا بد منها بين ضرتين، ولكن طبيعة العمل المرهق لكليهما بوجه عام لم يبقِ لأي منهما فراغا ليتناحرا، عدا عن أ، وجود هذا المستوى من القربى أبعد إمكانية أن تندفع أي خصومة بينهما إلى نقطة عدم التلاقي أو البغضاء.. وكان إبراهيم قادرا على حسم أي موقف لصالح الهدوء والاستقرار، وكان همام وصالح لا يشتركان في أي حالة تناحر، وينأى كلم منهما بنفسه عن أن يكون طرفا فيها، بل إن صبحة وأمينة كانتا لا تسمحان لهذا حتى بافتراض أن أيا منهما قد يخطئ التصرف، ويحاول أن يكون طرفا فيه، وكان همام وصالح يعيشان كأخوين، كل منهما يدعو الآخر (أخي)، ويعرف كل منهما من يحتاج معرفة أي منهما بكلمة (أخي)، ويقدم كل منهما الآخر كأخ، ويتصرفان على هذا الأساس في كل شيء، وكان إبراهيم يعاملهما كابنين له، لا يفرق بينهما، إلا أنه رجح كفة صالح على همام مع كل سنة إضافية في عمر صالح، وصار يقدر بصورة ملحوظة ذكاء وفطنة وشجاعة وعقل صالح وقدرته على التعامل مع صعوبات الحياة بصبر تتزايد قدرته مع ازدياد عمره..

كانت صبحة لا تنزع ما يمكن أن يلبس في القدمين.. حتى لو كان قبقابا- والقبقاب قطعة خشب تنجر لتأخذ شكل القدم كل على قياسها وينتهي عند أصابع القدم متراجعا قليلا من الحافة الأمامية برباط بعرض أصبعين من أصابع اليد من جلود الحيوانات، هذا إذا لم يتوفر حذاء نظامي، أو نعل، أو عندما يراد عدم إتعاب الحذاء المخصص للزيارات والمناسبات، إذا لم يكن لديها سواه.. والقبقاب أيضا لا يلبس إلا من النساء، ويلبس أحيانا لأغراض الوضوء عند غسل القدمين، لمن يريد رفع يقل البلل عن حذائه لو توضأ.. وخاصة في الجوامع..

وكانت صبحة، بالإضافة إلى إجادتها في ترتيب كل شؤون البيت، تعتني عناية خاصة بالنظافة بوجه عام، ومنها نظافة أواني الطبخ، والملابس، والأفرشة، وماء الشرب، والأكل.. وربما كان لترتيبها في المدينة، وقضائها سنة ونسف السنة في بغداد، وأمها المدنية غير الريفية، دور في هذا، بالإضافة إلى مستوى فطنتها وحساسيتها إزاء كل شيء غير منظم (مرتب). وكانت عندما تخيط لصالح وهمام شيئا مما يلبس في ظروف اعتيادية في ماكنتها (سنجر)، أو في مناسبة، تبدأ بما يخص همام، ولا تبدأ بما يخص صالح، إلا بعد أن تنتهي مما يخص همام.

وكان صالح لا يظهر أي انزعاج من هذا، بينما يظهر همام فرحه بما تخص به أم صالح.. وكان صالح يسمي أمينة خالة.. وكان همام يسمي صبحة أمي.. وهكذا تفعل مريم..

ومن المفارقات المضحكة – يقول صالح- أنه ومريم كانا في أحد الأيام يسرحان بالغنم على مقربة من البيت، في الوقت الذي كان الراعي يتناول طعام العشاء، وغالبا ما يتناول الراعي طعام العشاء قبل غروب الشمس، ويتهيأ لدوره في حلب الغنم بعد أن يجمعها للحلابات، وكان كل من صالح ومريم بعمر صغير، ولكن لا أحد في الريف بلا عمل أو واجب، إذا صار عمره خمس سنوات فما فوق، وفي أحد الأيام، نعت صالح الغنم، وطلب من مريم أن (تكف) بعض النعاج عن الزرع، ولكن مريم رفضت بعناد، ولم تستجب لإيعاز صالح، بل لعلها تأخرت في هذا، مما أغضب صالح عليها، فراح يفتش عن حجارة ليرميها بها، ولما لم يجد حجارة (خمش) طينة (مرجة)، بل لعلها مخبوطة بالماء من ساقية كان الماء يجري فيها بمحاذاة الطريق، ورماها بوجهها، فراح الطين يسيل على شعرها ووجهها الذي صار بالكاد يمكن تبينه، ومن ذلك عيناها.. وغدا منظرها على هذا مضحكا. وراحت (تعوي)، وقد سبقت صالح إلى البيت، وكان في ظنه أن عمه إبراهيم وهمام سيزعلان عليه، ولكن شيئا من هذا لم يحصل، سوى أن أمينة همهمت بصوت منخفض بينها وبين مريم بكلام لم يستطع أن يتبينه أي من الذين حولها، وهي تغسل لمريم شعر رأسها من الطين، وقد ظل صالح يأسف مع نفسه لهذا، رغم أن

مريم كانت تستحق أن تضرب، ولكنه لم يظن أن ما ضربها به سيخزيها وفق ما حصل..
كانت حياة الريف العراقي قاسية، بل شقية.. وبغض النظر عن الشقاء الذي يصيب أهل المدينة جراء صعوبات الحياة فقد كانت المدينة حلما لكل مئات الألوف من المليون عراقي أو أكثر بقليل في ذلك الزمان، بل إنها حلم يتمناه أو يسعى إليه حتى ابن مركز الناحية أو القضاء، ولكن بعض الفلاحين يعزون أنفسهم، لو سئلوا عن الفرق بين حال أهل المدينة وأهل الريف بالقول إن كل شيء يحتاجه ابن المدينة يقتضي أن يدفع ما يقابله من نقود، بينما لا يدفع الفلاح ثمن ما يحتاج من حطب، وخبز، ولبن.. وزبد وخضراوات.. حتى إذا ما وصل إلى اللباس والتمر والدبس، توقف ليقول: إلا القماش والتمر والدبس.. وينسى الفلاح، عندما يقول (أن كل شيء يحتاجه ابن الريف لا يدفع ثمنه)، جهده وجهد أطفاله وزوجته، أو زوجاته، وأمه وأبيه وإخوته، ذلك أن ابن الفلاح ينسب له واجب عمل منتج اعتبارا من عمر أربع سنوات، وإذا أرادوا أن يرحموا الطفل أو يدللوه جعلوها خمسا، ثم يكلف بما ينبغي من واجب، ويتدرجون معه من واجب الرعي بالحملان الرضع معزولة عم أمهاتها، لكي لا ترضع حليبها قبل أن تحلب ليحمى (يسخن) ويثرد به لسد أود الفلاح، وانتهاء بالحصاد بالمنجل كأصعب فقرة من فقرات الفلاحة، عندما يكون عمره بين العاشرة والثانية عشرة.. أما صالح فقد وصل إلى ممارسة دور الحراثة على الثيران بعدة الحراثة القديمة (المحراث القديم)، والمشاركة في الحصاد كواجب ثابت ودائم وفق ما يكلف به الكبار، وعمره ثمانية أعوام، وكان ذلك قبل دخوله الصف الأول الابتدائي.. على أنه ابتدأه كهواية، وليس كواجب قبل هذه السن، ولكن ما إن حاول حتى عقره المنجل في رجله اليمنى.

----

(1) في يوم 27 شباط 1742 صدر البيان الرسمي التالي: بناء على ثبوت قيام الأشخاص الآتي ذكرهم بأعمال تنطبق عليها الفقرة السابعة من المادة الخامسة من مرسوم صيانة الأمن العام وسلامة الدولة رقم 56 لسنة 1940، فقد تقرر حجرهم، وعلى ذلك ألقي القبض عليهم وأرسلوا إلى معتقل الفاو ونقرة السلمان/ مدير الدعاية العام.
مظفر إبراهيم- عقيد ركن، داود سلمان الجنابي- عقيد متقاعد، عبد القادر عباس- مقدم متقاعد، ناصر حسين الجنابي- مقدم متقاعد، صالح حسين فوزي- رئيس أول متقاعد، حسام الدين عبد الجبار- رئيس أول متقاعد، علي غالب رضوان- رئيس أول متقاعد، خير الدين خورشيد- رئيس أول متقاعد، علي غالب عريان- رئيس أول متقاعد، محمد هندي- رئيس أول متقاعد، صفاء الدين عبد الوهاب- رئيس أول متقاعد، عبد الجليل يعقوب- رئيس أول متقاعد، عبد الله نفل- ملازم متقاعد، حقي توفيق المفتي- ملازم متقاعد، شناوة ثامر- ملازم متقاعد، شناوة عرص- ملازم متقاعد داود سرعت ناجي- ملازم متقاعد، أحمد محمد اطرقجي- ملازم متقاعد، كاظم جعفر- ملازم متقاعد، كمال قنبر وفي- ملازم متقاعد، (مال الله رباح)- ملازم متقاعد، مهدي هاشم، عريبي جواد الكرخي، داود خضير، حساني.
وتنص المادة الخامسة من مرسوم صيانة الأمن العام وسلامة الدولة رقم 56 لسنة 1940، على ما يلي:
المادة (5): لوزير الداخلية أن يستعمل الصلاحيات التالية، وله أن يخولها – كلا أو قسما- إلى المتصرفين، أو بناء على اقتراح وزير الدفاع، إلى أمراء الألوية فما فوق.
وتنص الفقرة (7) من المادة (5) على ما يلي: الفقرة (7): الأمر بالقبض على المشتبه بهم من ذوي السوابق، المتهمين بإخلال الأمن العام وسلامة البلاد، وكذلك الذين هم تحت مراقبة الشرطة، وكل

شخص ليس له وسيلة جلية للعيش، ولم يمكنه أن يعطي عن نفسه بيانا مقنعا، والأشخاص المشتبه بإقلاقهم أو تشويههم للرأي العام، وحجرهم في أماكن تعينها الدولة.
والمرسوم أعلاه أصدرته الوزارة الكيلانية الثالثة في 1940/5/31، لتكافح به الشيوعيين والفوضويين، ولم تطبقه على أحد، حيث جمد في مجلس الأعيان زهاء خمس سنوات.. ولكن نوري السعيد استغله في وزارته السادسة أوسع وأبشع استغلال في محاربة ما سماه بالنازية والفوضوية.. فألقى القبض على المئات من الوطنيين الأحرار وزجهم في السجون اعتبارا من 1941/10/29 حتى 1942/7/7.

الجزء السابع

يعد الفلاح مزايا الحالين وعيوبهما على طرفي جدول المقارنة بين الحياة في المدينة والحياة في الريف، وفق ما كان المتكلم يراها في أوائل ومنتصف القرن العشرين، بل حتى قيام ثورة 17-30 تموز عام 1968، وما بعد ذلك بثلاث أو أربع سنوات، ويخلص إلى القول بجملة استفهامية: أتريد الصحيح؟
وعندما تجيبه: نعم، أريد الصحيح..
يقول إن عيشة كلب ابن المدينة أفضل من عيشة الأغلبية الساحقة من حياة الفلاحين، إن لم أُقل كلهم، بما في ذلك من يتصور أنه صاحب نفوذ فيهم..
وإذا سألته: كيف؟ يجيبك أن كلب المدينة يأكل من أكل أهله، بما في ذلك قطعة خبز ثلاث وجبات أو وجبتين، ثم يأكل العظام التي غالبا ما ترمى له، وقد تكون أرغفة الخبز لعدد كبير من أهل المدينة، وبخاصة سكان مراكز الأقضية والمحافظات، من الحنطة، بينما قلة من أهل الريف في ذلك الوقت يأكلون خبز الحنطة دائما، والفالح إذا كان جزءا من تجمع، لا يأكل اللحم إلا في مناسبات بعينها، وبعضهم تطول الفترة الزمنية بين مناسبة وأخرى حسب طبيعة حال أهل التجمع الذي هو فيه، والمناسبات التي يمكن للفلاح أن يأكل فيها قطعة لحم، هي السفر بحيث تلزمه المسافة أن ينزل ضيفا على أحدهم، وقد لا يذوق طعم اللحم عندما لا يكون له شأن بيّن، أو اعتبار مشهود، أو لا تقع فرصته في بيت كريم.. وقد يذوق اللحم في وليمة ختان (طهور)، أو زواج، أو في العيدين، أو عندما يتوفى من يتوفاه الله، ويذبحون له، ويسمونه عشاء عن روح الميت، وهو عشاء واحد، أي لمرة واحدة، وليس مثلما هو الحال الآن، حيث أصبحت مثل هذه المناسبات كأنها فرصة للتنافس المظهري، الذي غالبا ما يكون سعيا للوجاهة والإظهار، وليس إنفاق مال من تركة المتوفى، لتطهير ماله بإطعام الفقراء وأهل الحاجة منه..
وهنا تحضرنا لطيفة تقول أن (أبو العوين) توفي، و كان رجلا فقير الحال من أحد بطون العشائر المجاورة لقرية أم القرى.. وحمله أقرباؤه على (عمودين)، وضعوا فوقهما بساطا، وفوقه شف، قاصدين دفنه في الشارب الغربي لالتقاء الجزيرة مع حوض الأرض الزراعية لنهر دجلة، في أراضي تلك القرية. وكان (أبو العوين) رجلا ضعيف الحال، ولو كان قد خلّف (أنجب) ولدا أو أكثر لكانوا ضعفاء حال كأبيهم، وكان موته يوم شتاء، وعندما تخوي البطون تضعف المفاصل، وترتعد الركب، وتصطك الأسنان، وبخاصة عندما يكون اللباس خفيفا.. وكان لباس أغلبية الناس خفيفا في ذلك

الزمان، إلا قلة منهم، أو صاحب حظ متميز من تظفر مقدرته (بفروة)، والفروة بالأساس مجموعة فراء من جلود الخرفان، كلما كانت أصغر عمرا كانت جلودها أكثر ترافة وأغلى ثمنا، والفروة في الغالب تتألف من حوالي عشرة جلود إلى اثني عشر جلدا بصوفه، نقول إن من يظفر بفروة يعملها له إسماعيل الفريدة كواحد من اثنين، هو وسليمان الشام، يمتهنان هذه المهنة في مدينة بنت النهر، يكون صاحب حظ عظيم عندما يواجه الشتاء..

كان جمع مشيعي (أبي العوين) يتجهون به إلى المقبرة، وفجأة (فز) من أمامهم أرنب يعدو مبتعدا عن منطقة الحركة، فصاح كبيرهم بالجمع قائلا: يا ربعنا – أي جماعتنا- إن (أبا العوين) ليس وراءه عشاء.. فدونكم عشاءكم، واظفروا بالأرنب، واتركوا (أبو العوين) في الأرض، فإنه لن يتركها حتى نعود إليه (ماله نية)، وما إن رموا نعش (أبي العوين) على الأرض حتى صار بعض من ركض خلف الأرنب عندما رآه (يفز) من أمامهم، قربه، ولم يهدأ لهم بال، ويعودوا ليحملوا نعش (أبي العوين) حتى ظفروا بالأرنب، بعد أن أحاطوا به، وعاجله أحدهم برمية عصا فأرداه قتيلا.. وهذا واحد من الأمثلة التي يستدل منها على شظف العيش وقسوة الحياة التي كان أهل الريف يحيونها في ذلك الزمان.

ومن طرائف الأمور أن صالح دعي مرة مع عمه إبراهيم، عندما كان بحدود التاسعة من العمر، قبل أن يدخل المدرسة. وكان إبراهيم وصالح في الغالب يتجنبان الدعوات إلى عرس أو ما شابه ذلك، وبخاصة إذا تضمنت بعض فقراته تقديم الأكل من صاحبه إلى المدعوين، تقديرا منهما بأن هناك غيرهما بحاجة إلى الأكل، وأن حياتهما بالقياس النسبي، مع قدرة صبحة على الابتكار، تجعل غيرهم أحق منهم في الظفر بلقمة ناعمة قياسا بحياته اليومية، أو قطعة لحم في مناسبة كهذه، وكانا إذا حضرا مضطرين لا يأكلان مع من يأكل، ولكن إلحاح جارهم في تلك المناسبة للطريقة التي نعرضها جعلهما يتقدمان مع من تقدم إلى الأكل، وقد توافق أن افترق صالح عن إبراهيم، ليكون كل منهما على (صينية)، ومعه من وقع عليها، وقد لاحظ صالح الذي حكى لنا ذلك.. أن كثرا منهم كان يقول (باسم الله) على مقطعين، يقول (بسم) مع اقترابه السريع من (الصينية) محنيا ظهره، قبل أن يجلس القرفصاء حولها، مع طي ركبتيه، أو وضع ركبة إحدى رجليه على الأرض، والركبة الأخرى قرفصاء إلى الأعلى، ويقول (الله) بعد أن يكون قد وضع يده على قطعة اللحم التي يحصرها نظره، أو تتوفر فرصته للوصول إليها، وقبل أن يكمل جلسته استعدادا لتناول الطعام، وقد بالغ أحدهم ممن كان على الجهة اليمنى أو اليسرى المجاورة لصالح، عندما حصر (لحمته) وقربها إليها على حافة المكان الذي قرر أن يضع يده فيه من (الصينية)، ولاحظ أن صالح لم يقرب يده من قطعة اللحم الواقعة قبالته، ولم يمسك بها، فحفر جاره الثريد تحتها، وهوت قطعة اللحم داخل الحفرة، حيث كان يدس يده و(ينخر) الثريد، فتناولها ووضعها في فمه، من غير أن يعترض عليه صالح، فيما أبقى قطعة اللحم الأولى التي احتجزها، ليحسن فيها طعم فمه بعد الانتهاء من الثريد.. وهل يمكن لصاحب النفس الأبية كصالح أن يعترض على ذلك!؟.. لقد أحس صالح بالراحة رغم تندره على هذا، ليضرب به مثلا على الحال آنذاك، أحس بالراحة، لأن قطعة اللحم ذهبت إلى من هو بحاجة أكثر إليها، أو إلى شره تحتاج نفسه لكي لا تبقى (تهرف) خارج مدارها.. كان قلة من الناس، آنذاك، من يجعلون عدد قطع اللحم فوق (صينية) أكثر من العدد المقرر لدعوة جماعية تضم العشرات، أو المئات.. وكان (أصحاب الصينية) الكرماء والمتمكنون يعرفون كل خروف من النظر إلى وزنه، ويعرفون كم قطعة لحم ينبغي أن يستخرج منه، ويوصون بذلك من يتولى القصابة، وإذا ما ذبح أحدهم خروفا في مناسبة، لا تسلم حتى الأمعاء الدقيقة (المصارين) من صغار القرية، لتشوى بعد أن يخرط (الرعي) أو الرفث منها..

وأمر طبيعي أن لا يعفى الطحال من ذلك.. وإذا ما كان لأحدهم طفل صغير في مرحلة الرضاعة، وفي طور يقترب من أن تخرج له أسنان (تنغّص) أي تمناه لطفله، أو ناوله إياه بعد أن يشوى (على النصف)، أي ينضج نصف إنضاج، لكي يحرك بيت أسنانه فيه، بما يسهل عليه إخراجها، ومن الطبيعي أن نقول إن الطفل عندما يحبو، تقلب دشداشته من الخلف على ظهره، وتشكل بدبوس، ويترك قفاه مكشوفا بالكامل، وبخاصة عندما يكون ذكرا، لكي لا تتسخ ملابسه عندما يحبو على الأرض.. ولا تؤخر زحفه عندما تكون تحت ركبتيه، وغالبا ما يتعرض إلى برد الشتاء القارص لو زحف في فناء الدار حتى يزرّق جسمه من شدة ما يصيبه من برد، وليس من دواء، إذا ما تعكرت صحته، غير البابونج وما شابه ذلك، ومن الطبيعي أن نقول أيضا إن قطعة الطحال التي في يديه (تداف) بالتراب وهو يزحف عليها، بعد أن تكون قد (ترطبت) من كثرة ما أفرزه فمه عليها من لعاب، وبعد أن يقطع الطفل مسافة وهو يحبو على الأرض، يأكل قطعة الطحال، أو يحك أسنانه بها من غير أن تغسل.. ولم يكن منظرا يدعو إلى التعجب أن ترى نسبة كبيرة من الأمهات في الريف لا يغسلن للطفل مكان التغوط بعد الغائط، وإنما يمسحنه بخرقة، أي خرقة مرمية على مقربة منهن، وأن ترى من الكبار قلة تقضي حاجتها وفي يدها إبريق ماء، ومن يتعجب من قولنا هذا، عليه أن يسأل نفسه كيف يتصرف راعي الغنم و من يفلح الأرض أو يحصد الزرع، إذا أراد أن يقضي حاجته، ولا يتوفر ماء قربه، أو قد يتوفر على مسافة عدة كيلومترات منه؟ ألا نرى في هذا وفي غيره، إن الحد الأدنى من آدمية الكثرة، إن لم نقل جميعهم، كان ناقصا؟ ومثله يمكن أن نتصور علاقة الزوجة بزوجها في دار من غرفة واحدة تضم عائلة كاملة، قديما أو في العصر الحديث.. أما أن تلاحظ من تجمع روث البقر وهو (مرج)، ثم تكتله على بعضه بقطع شبه منتظمة، وتنشره ليجف حطبا للتنور، أو الطبخ، ثم تنتقل لتأكل بعد أ، تغسل يدها بماء فحسب، حيث لا يوجد صابون في كثر من بيوت الفلاحين، أو يندر، أو تعجن، فهو من المناظر شبه الطبيعية ومعه يمكن تصور مقدار ونوع الأمراض التي تصيب الأطفال والكبار فترديهم، ومنه أيضا يفهم أي مستوى من الخبرة يحصل عليه الذكي الفطن، الذي ينشأ في الريف، وأي صبر وقدرة تحمل يتطبع عليها، وأي قدرة بدنية ومستوى مواجهة مخاطر يكون عليها من يعيش فضلة موت..!؟

****

" من زادت رجاله، وصلب عودهم، أدب أعداءه، وقد تزداد مشاكله"..

كان إبراهيم أبو همام، على وفق وصفه وخواصه العالية، ولكنه إذا ما غضب، كان غضبه حادا وشديدا، وغالبا ما يؤذي نفسه في الوقت الذي يقصد الرد على أذى، ولا يعرف أي منهما أكثر وطأة وأثرا، هل الأذى الذي وقع على من يقرر أن يقع عليه آذاه، أم الذي أصابه هو جراء فعل قام به ضد آخرين، مع أنه ذو صبر وجلد؟ وكان لا يقبل أن يطوي جناحه عندما يطير من عشه، أو مأواه، وهو يواجه على أطراف عشه العوسج والسدر، وكان لا يقبل أوامر المتنفذين في قرية أم القرى.. وكان في الغالب لا يحضر في (الحشر) الجماعي لتطهير وكري الساقية الرئيسة الرابطة بين المضخة أو المضخات على نهر دجلة، بعد أن صارت في رمز القرى ثلاث مضخمات أو مضختان، نصبت متفرقة لتنقل الماء إلى حيث أماكن الزرع في الأراضي المخصصة للزراعة، وكل حسب مساحة الأرض المخصصة لزرعها من مالكها، أو الأرض التي يملكها هو، وكان أبو همام يظن، وظنه صحيح، إن

تطهير الساقية الرئيسة يجب أن يكون على مالك الأرض، أو الإقطاعي مجازا، فيما يتعلق بملكية الأرض في قرية رمز القرى.. ولذلك ما كان يحضر الحشر الجماعي لتطهير الساقية، وفي نفس الوقت لم يتملق المتنفذين في رمز القرى، وكان يقول الحق، بصورة مباشرة، كما هو، ويؤثره على الباطل بحضورهم، وليس في غيابهم، ولم يتوافق نجمه ونجم أولئك، إذا ما استعرنا لغة المنجمين.. ولم تكن بينه وبينهم هدنة أو صفاء، وعلى هذه الخلفية وغيرها رفض أحد أعمامه، وفق الوصف الذي مر ذكره، أن يجري عليه ماء مضختة، وكان الخلاف على طلب صاحب الملك مثلما يفعل مع كل الفلاحين، حين طلب من إبراهيم أن يوصل حصة الملاك من حاصل الحنطة والشعير إلى حيث مكان خزنها، بينما كان إبراهيم يرفض ذلك ويقول إن واجبه أن (يجنب) يفرز للملاك استحقاقه البالغ نصف المحصول، وليس إيصاله إلى المخزن العائد للملاك، وعندما رفض إبراهيم، توعده المالك بأن لا يجري الماء بعد الآن إلى أرض إبراهيم، وعندها، ولشدة ما كان عليه من غضب، أخرج إبراهيم فراش البيت من الدار، وأوعز لأم همام بأن تخرج هي وهمام ومريم من الدار، وأشعل النار في الدار.. وكان ما (عمر) به الدار، أي سقف الدار، من أعواد خشب فوقها عاقول أو شوق، وفوقهما التبن طين مخمر ومخلوط (مداف) بالتبن كنوع من تسليح الطين، لكي لا يتشقق (يتفطر) وعندما أحرق إبراهيم بيته (دامته) المزن في فضاء واحد، لا يزيد عرضه على ثلاثة أمتار، وطوله على الستة أو السبعة أمتار.. احتجاجا على الملاك، وتعبيرا عن غضبه منه، وإشارة من إبراهيم إلى أنه راحل من المكان، أخبر المتنفذون، أو أ؛د المبغضين، الشرطة في بنت النهر، وتزيّدوا بالقول إنه كان ينوي إحراق زروع الآخرين، بل إنه حرقه (دامته) بيته، إشارة توعد منه لأهل المنطقة بالويل والثبور وإنه صائر ليقتل أحدهم حتما، إلى غير ذلك من البهتان، وقد ألقت الشرطة القبض على إبراهيم، ووضعته في التوقيف، ثم حكم عليه فيما بعد بالسجن سبع سنوات.

ومن حادثة إبراهيم مع ملاكين من أبناء جلدته ومن أعمامه، وممن لم تكن لديهم سطوة كبيرة كالتي كانت لدى ملاكين في مناطق شمال وجنوب العراق، يمكن تصور الأذى الذي كان يصيب الفلاحين..

ولا نعتقد بأن من يتمرد على الإقطاعي هناك يكون نصيبه السجن فحسب، وإنما الموت هو الاحتمال المرجح، ذلك لأن الإقطاعيين في العراق ليسوا كلهم من نفس العشيرة التي تفلح الأرض، وإنما على أنواع، فمنهم من هذا النوع، وآخرون إقطاعيون يسكنون المدينة، وتلفح الأرض لحسابهم، ويزورون الأرض من حين لآخر، تاركين من (يشحن) الفلاحين، ويشرف عليهم ويسمى (الشحنة)، وهذا النوع من الإقطاعيين على وصفين، فمنهم من ليس له أقرباء في الريف، وهم غالبا من سلالات الجيوش التي غزت العراق أو استعمرته، وآخرون على وصف آخر، حيث أنهم يملكون في الريف، ولهم أقارب في الريف أيضا، ربما في نفس المنطقة التي يملكون فيها أو بعيدا عنها..

أليس هذا الذي وقع على إبراهيم من دسيسة وظلم قريبا من وصف علاقة الدول الكبرى بالصغرى، وما يمكن أن يقع من ظلم الكبرى على الصغرى، وبخاصة التي لا تطاوع الدول الكبرى في رغباتها غير المشروعة، احتراما وتقديرا من الصغرى، بموقفها لشعبها وأمتها وتراثها.. مثلما في علاقة الدول الكبرى بالصغرى في أيامنا الآن؟

- و هل في الريف دسائس وكبار يستصغرون آخرين، وآخرون لا ينصاعون ولا يصغرون إلا أمام بارئهم؟ تساءل أحد الناس في المدينة.

- نعم، في كل مجتمع صورة لما عليه هذه العلاقة، والطمع والعدوانية التي عليها الدول الكبرى إزاء الصغرى، ما لم يكن القائم على أمر المجتمع هناك منصفا وعادلا وقادرا على أن يطبق العدل، ويهزم الباطل وأهله، إن لم يرعو من يكون على باطل.

حكى لنا أبو همام، كيف أخذ من بنت النهر، مخفورا بشرطيين على حصانيهما، وكيف كان يسير جنب أحدهما، وقد ربطت يداه بمجمع من الحديد الخاص لهذا الغرض، وكانت وجهتهم قضاء طوزخرماتو على الضفة الشرقية لنهر دجلة باتجاه الشرق، ولكن على المسافة التي ذكرنا بعيدا عن النهر.. ومع طول الطريق، وبعد أن انقضى النهار الذي ابتدأوه برحلتهم، حل الليل ولم يصلوا إلى طوزخرماتو بعد، فواصلوا المسير، ومع الحركة في ذلك الطريق الطويل، لاحظ أبو همام أن مجمع الحديد قد أفلت من قفله، وتساءل مع نفسه: أهي فرصة فتحها القدر لأهرب وأتخلص من سجن ظلمت فيه من غير مسوّغ؟ وبعد أن داور الحال مع نفسه، توقف عند وصف الحال الذي سيكون عليه هارب من السجن، وما يمكن أن تتشكل عليه القناعة بأن ما لُفّق عليه وعلى نيته وفعله من الآخرين صحيح.. وتساءل: ألا يتمنى من كاد له وأوقع الظلم عليه، أن يفعلها إبراهيم ويهرب ليبقى يذعن لأصحاب النفوذ في قرية رمز القرى، لو عاد إليها؟ أم أن يكون طيرا على سعفة ضعيفة، كلما هب ريح أفرد جناحيه، (وزمهما) إلى الأعلى ليوازن حاله عليها؟ وهل يعني هذا غير أن يسهر الليل دون أن يغمض له جفن، خشية أن تداهمه مفرزة شرطة، فيقتل كما قتل جده لأمه، من قبل الجندرمة، في قضية أخرى عندما قاومهم هو وأولاده؟.. ويبقى متخفيا في النهار، يخطب ود من يخشى أن يخبر الشرطة عنه فيكون ضعيفا؟ ولأن أبا همام لا يحتمل فكرة أن يكون الرجل ضعيفا في مواجهة صعوبات الحياة، أو أمام نفسه، جفل أمام هذه التساؤلات وقال بحزم:

- إنها ليست فرصة فتحها القدر لي، وإنما أرادها الشيطان ليوقعني في شركه، ويحولني من موقف الحق وقول الحق والتصرف وفقهما إلى ما هو ضعف ومخز وربما باطل.. اللهم اخزِ الشيطان، واستغفر الله رب العالمين. بل استمر لأعرض أمام المحكمة، في طوزخرماتو، ولو قضت المحكمة بسجني، ربما قال التمييز رأيه النهائي في بغداد..

قال ذلك، وأعاد بنفسه مجمع الحديد إلى يديه، وأحكم قفله على يديه، وتوكل على الله.

وصل إبراهيم إلى طوزخرماتو، وأمضى فيها ليلته تلك ولا نعرف لماذا رحل من بنت النهر إلى طوزخرماتو.. ولم نسأله عن ذلك في حينه، وربما كانت طوزخرماتو المكان الذي يحاكم فيه الناس، حيث لم يكن في بنت النهر حاكم، أو ربما كانت المكان الذي يجمع فيه المحكومون، ليرحلوا بعد ذلك ضمن قافلة محكمة بالحراسة إلى سجن بغداد.. إلا أن إبراهيم كان، بعد أن صدر عليه الحكم، ربما في طوزخرماتو، ينتظر التمييز في بغداد، ليقول قوله حيث سُفّر من طوزخرماتو إلى بغداد.. قال إبراهيم:

- عندما فتح لي المكان المخصص للسجناء في طوزخرماتو، كان مظلما، إذ لم يكن فيه إلا سراج بالكاد يضيء مترا منه.. ولقدم المكان، وانعدام التهوية الصحية فيه، ولأن البناء من الطين.. والظلام الذي يكتنفه بحيث لا يمكن أن تهتدي العين إلى ما يدب على الأرض إلا بالكاد، لاحظت كأن الغرفة عين من نمل، وعندما تحسست المكان وجدت أنها عقارب وليست نملا، ومن شدة ما أعياني من التعب، وجدت أنني مهما حاولت أن أقتل العقارب بحذائي، الذي لم ألبسه في الطريق، لأخفف وزن حركتي، ولكي أحمي الحذاء من أن يمزقه طول الطريق، وأنا لا أملك حذاء غيره، ولست قادرا على شراء بديل عنه، ألا يفيدني ثمنه وأنا رهن جدران السجن؟ إذن، مهما حاولت، قال إبراهيم، لا أستطيع أن أخلي غرفة السجن التي أنا فيها من العقارب!؟..

واسترسل قائلا:

- وضعت حذائي تحت رأسي بعد أن تمددت على الأرض من غير فراش، وقرأت سورة الفاتحة، وما تيسر لي استذكاره من آي القران الكريم، وتوكلت على الله، ونمت، ولم أستيقظ حتى الصباح، ولم ألدغ أبدا، ومن الطبيعي أن تدخل العقارب جحورها من إشراقة الشمس فهي لا تظهر إلا في ظلام، ولا

تلدغ إلا في غفلة!!؟
نقل إبراهيم في قافلة إلى بغداد، ربما بعد صدور الحكم عليه بالسجن سبع سنوات، ولكن محكمة التمييز في بغداد حكمت له بالبراءة، وتنفس إبراهيم هواء الحرية في بغداد، وهكذا كانت بغداد رئة الحرية والحق، عندما يكون فيها ضمير غير ذي غرض سيء مسبقا، أو غير مدنس، أو عندما تكون بغداد يقظة، تعرف دورها، وتستذكر تاريخها..
عاد إبراهيم إلى رمز القرى.. ورحل منها إلى بنت النهر، ليعمل بتجارة محدودة بين العراق وسوريا، وبعد أن تزوج من أم صالح، رحل بعد حين بكل عائلته في (طرادتين)، وهما عبارة عن زورقين حديديين يجرهما أربعة رجال، تم استئجار جهودهم مع الطرادتين اللتين حملتا كل شيء عدا الغنم والبقر، حيث سار بهم الرعاة مع الطريق البري، وكان الخامس والسادس هما المشرفين على الزورقين المربوطين ببعضهما، و المقطورين معا، يديران نهاية كل منهما بالمجذاف الخلفي أو الدفة أو (السكان) تشبيها بزعانف السمكة، وهو الذي يحفظ توازن الحركة عن طريق تحريك المجذاف الخلفي يمينا أو يسارا، أو جعله مستقرا في الوسط لتستقيم حركة الزورق، ولا يرتطم بجرف النهر، وكان الاتجاه أرض الحويجة، في محافظة كركوك، التي هي التأميم الآن، حيث كان فيها أبناء أخت للعشيرة التي ينتمي إليها إبراهيم، ولهذه الخؤولة بين عشيرة السادة السحينيين من نسب عمر الكبير، والعشيرة التي قصدها إبراهيم في رحلته هذه قصة، ليس هنا مكان للحديث عنها.
سافرت عائلة إبراهيم، وباتت ليلتها تلك على شواطئ (بنت النهر) في ضيافة حليمة، أليس عارا على أم بيت عرف دارها بأنه مشهور، على عهد صاحبه، ولا يستقبل (خطّاره) لمجرد أن يصيب صاحب البيت عارض فيمنعه من أن يقوم بواجب الضيافة؟ وإذا كانت ضيافة النساء للرجال غير مستحبة، بل مرفوضة في المدينة بوجه عام، فإن من واجب ربة المنزل أن لا تطرد ضيفا، حتى لو كان رب المنزل غائبا في الريف والمدن الصغيرة آنذاك، وأن تستعين بأقرب أقربائها من المحرمين عليها من الرجال، ليقوموا بواجب الضيافة، وإلا فأي من أبنائها أو أخوتها، حتى لو كان عمره ثماني سنوات فأكثر، فكيف إذا كان الضيف إبراهيم الحسن وأم صالح (صبحة)؟ أليس هم أهل دار!؟ ثم ألم يكن لطيف بعمر يستطيع أن يعزب (عمال) الزوارق بمعاونة إبراهيم!؟..
باتت عائلة إبراهيم ليلتها على شواطئ بنت النهر، في بيت (سوباط) أو على أطرافه، وكان السوباط يعود إل أم مال الله وابنها عبد اللطيف، وكانت حليمة بمثابة الدفة لزورق البيت، ومع أن عبد اللطيف كان بعمر صغير لا يجعله نبيها بما فيه الكفاية، في شؤون الضيافة، مثلما هو أخوه ما الله من قبل، إلا أنه صار مفيدا في تلبية احتياجات ضيوفهم في تلك الليلة. وبعد أن باتت النساء ليلتهن تلك في سوباط على الشاطئ، والرجال خارجه قريبا من الشاطئ، ليستأنفوا السفر عند أول ضياء، مع ما رافق ذلك من عويل ودموع من النساء والأطفال، حيث ستفترق عنهم صبحة وصالح إلى ديار بعيدة، ولأن الدابة كانت واسطة النقل آنذاك، كان مشروع الحويجة، جنوب كركوك، يعد بعيدا عن بنت النهر، على مسافة تقرب من مئة كيلومتر، وما زاد الحرقة في نفوس المودعين، أن مال الله كان في السجن، وأن صبحة ترحل عن الديرة الآن.. وصبحة معروفة بأنها لا تحب السفر، وتعتبر من تستسهل السفر من غير ما اضطرار حقيقي، خفة رأس ووزن، حتى بعد أن تغيرت واسطة النقل من الدابة إلى العجلة في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، ولا أظن أن جوهر هذا القانون قد ألغي في أذهان الحصفاء من الرجال الآن، في نظرتهم لتصرف النساء بوجه عام، مع كل التطور الذي حصل في حياة العراقيين، خاصة في العوائل التي تعرف دور وتأثير الكلمة عليهم أ ولهم، إيجابية أم سلبية.
إذن كان الجميع، مودعين ومودعات، يدركون أن فترات اللقاء هذه المرة، وبعد هذا الافتراق، ستكون

مسافتها الزمنية طويلة.. سنين وليست أشهرا، وهكذا كان فعلا، فإن صبحة لم تلتق بأهلها مرة أخرى، إلا بعد مضي أربع سنوات تقريبا، عندما عادت عائلة إبراهيم إلى رمز القرى، فكم من العوائل في مدن المجتمع العراقي، وربما في قراه الآن، تنشأ بينها مشاكل بسبب إلحاح الزوجة على زيارات متكررة للأهل، يوميا، أو بين يوم ويوم، وما يشكله هذا من عبء على الزوج، إذا ما رافق زوجته فيها، ومن إحراج إذا لم يرافقها فيها!!؟

بعد أن أبحروا بسحب زوارق السفر على الماء ممن وصفناهم، كانوا يتوقفون في مثابات بعينها على الطرق، يبيتون ليلتهم، أو يدخلون مأوى مقيل لمعارف على طرفي النهر، وما أكثر المعارف الذين يعرفون السادة في بنت النهر، ووجوههم البارزة، ومنهم إبراهيم.

لنستعن هنا بصالح ليشرح لنا كيف كان ينظر إلى تلك الرحلة بعد أن صار عمره بين السادسة والسابعة:

- إن الأساس في مشاعري، آنذاك، هو الشعور بالغربة بعد ترك المكان الذي عشنا فيه، والحنين إلى عائلة خالي وخالاتي وجدتي وجيراننا وأبناء عمومتنا ومحلتنا، وكنت، عندما ودعنا جدتي، وخالاتي وخالي عبد اللطيف، والجيران، أذرف الدموع، مرة لهذه المشاعر، وأخرى متأثرا بمنظر المشاعر المتأججة والدموع المدرارة المصحوبة بنشيج وعويل، ولكنني مثل أي طفل ما إن أبحرنا في النهر، حتى انشغلت بالتمتع بمناظر الشواطئ، حيث كنا في شهر أيلول، وكان هذا الشهر يسجل بداية نضج الرقي والبطيخ المزروع على الشواطئ التي تمتد على الشاطئ الغربي من النهر، والذي كان إبحارنا بموازاته أكثر منه بموازاة الشاطئ الشرقي، إلا عندما يقرر المشرف على الزوارق الكبيرة الإبحار على الشاطئ الشرقي، طبقا لطبيعة الشاطئ، فإذا كان فيه الماء (ضحضاحا) ويمتد على مسافة من اليابسة إلى حيث العمق بمسافة يقدر أنها صارت غير ملائمة للإبحار، انتقلنا إلى الشاطئ الآخر، وهكذا أيضا، لو (صال) مجمع الماء وجاء قويا على الشاطئ بحيث يترك ثقل الماء على مقدمة الزوارق صعوبة لدى من يقومون بسحبها، أو عندما يواجهنا (جرف) عال من الأرض لا يترك مسافة بين الماء والجرف، ليمشي عليها من يسحبون الزوارق بالحبال.. ولكن أغلب مسافات الإبحار كانت على الشاطئ الغربي، وكنا لا نبيت إلا على الشاطئ الغربي، لأنه أكثر أمانا، وفق ما قال العم إبراهيم، وعلى أساس قياساته، ذلك أن حالة الأمن تحت إحساس الخوف من القانون وأجهزة السلطة لا تتوفر في حدودها النسبية آنذاك إلا في المدن، أما الريف فله قياسات أخرى مستنبطة من ظروفه وتأثير الشقاء والفقر فيه، ولأن معارفنا على هذا الشاطئ أكثر من معارفنا على الشاطئ الآخر، فقد اعتبر العم إبراهيم أن الشاطئ الغربي أكثر أمانا..

إن أكثر ما أتذكره عن تلك السفرة، هو أن رأسي قد شج فيها، وأن أو محاولة سباحة بمفردي في أعماق النهر حصلت فيها أيضا، أما بالنسبة لما أصاب رأسي فإنني على مقربة من الشرقاط، صادف أن كنت أمشي خلف الزوارق، على مبعدة لا تزيد عن ثلاثين أو خمسين مترا، أتسلى وأطرد الضجر عن نفسي قريبا من المكان المحدد في الزوارق التي لم يكن لنا واجب عليها إلا أن نراقب الدجاج، أو ننثر له الحبوب، أو نضع عيوننا وفق التكليف على المقتنيات التي يمكن إذا ما هب هواء عالٍ أن يقلعها ليرمي بها في النهر أو ما شابه ذلك.. وعندما كنت أمشي خلف الزوارق عثرت بخيط لصيد السمك، كان أحدهم قد ربطه بحصاة على الشاطئ فيما كانت (السنارة) بنهايته من الطرف الآخر مع الطعم في الماء، وعندما عثرت بالخيط كدت أسقط ولكنني تماسكت، فيما قال لي صاحبه كلاما خشنا، وكان عمره حوالي عشر سنوات، وربما أكثر، وعندما تقدمت إليه لأعنفه تشابكنا، كل يهم بصاحبه، ولكنه غلبني لأنه أكبر مني سنا، وأوقعني على الأرض، وتناول حصاة، وكانت تلك الأرض من

الحصى، وضربني على جبهتي وشجها وهرب، وما كنت أتصور أن هنالك من يراقبني من الزورق، وكان العم إبراهيم يقوم بذلك، وفجأة قفز من الزورق، وهو يصيح بذلك الهارب، ويلعنه ويلعن أباه، واستمر يرضك حتى وصل إليه، وعندما حاول والد الصبي الهارب أن يتصدى لعمي إبراهيم، (مطله) عمي بعصا على ظهره، وفر الأب في أثر ابنه، وقد تملكني الضحك آنذاك على الأب الذي هرب أمام عمي ولم يصمد أمامه، وهذا المنظر محا عني الشعور بأن قدرتي الجسمانية ما كانت تطاوعني، لـ (الوي) ذاك الولد، وكيف بإمكان ابن ست سنوات وما يمكن أن يزاد عليها من أشهر، أن (يلوي) ابن عشر سنوات وما يمكن أن يزاد عليها!؟.. وطيبوا لي جرحي.. ومن الطبيعي أن نقول بأن التطبيب لم يحصل بالمكركروم، أو محلو اليود، الذي كان يدعى في الأربعينات والخمسينات (التنتريوك)، و(المكركروم) و(التنتريوك) كلمتان أعجميتان، وما أكثر الكلمات الأعجمية المتداولة في العراق قبل ثورة 17-30 تموز المجيدة عام 1968، وقد تقلصت الآن كثيرا بفضل الوعي والثقافة، فقد كانت المفردات من أصل تركي منتشرة من بغداد إلى الشمال، بالإضافة إلى محافظتي ديالى والأنبار.. وكانت المفردات التي هي من أصل فارسي، منتشرة من بغداد داخل إلى جنوب العراق، مع استثناءات بعينها، وكلها مختلطة مع مفردات اللغة العربية، أو الكردية، وقد جاءت مفردات اللغة الإنكليزية مع الاحتلال الإنكليزي للعراق بين عام 1916 و 1917، وصار المستمع للعراقي عندما يقول عدة جمل، لا بد أن يجد من غير أن يجهد نفسه شيئا من هذه المفردات في حديثه.

نعود لنقول إن تطبيب جرحي تم عن طريق فتيل (عطبة) من الصوف، كان يوضع على النار، وعندما يلتهب يطفأ على المكان الذي فيه الجرح، وهذا ما حصل لي، ورافق الجرح حرق الجزء القريب منه، ولكن النزف انقطع.. ومع الألم الذي أحسست به، لم (أتضجر) أو أتأوه، فهل يجرؤ أحد على التأوه من هذا!؟.. ألا يوصف من قبل المحيطين به من الرجال والنساء بأنه ضعيف، وربما يقولون عنه، إنه جبان؟ وهل يرضى صالح أن يوصف بالضعف، أو الجبن حتى لو جاء احتماله ضعيفا!؟، خاصة وقد سمع من أمه أن خاله، عندما أصيب في حرب عام 1941 ضد الإنكليز، لم يضجر، أو يتأوه، ومثل هذا قالت له عن جده لأمه عندما أصابته طلقة جندرمة الترك، واخترقت صدره، ونفذت خارج جسمه من الجهة الأخرى قبل أن يموت بعدها بعدة أيام، والشيء نفسه حصل مع شقيقي جده رباح، مولان ومحمد، وقصت لي والدتي.. يعود صالح ليقول، كيف أن جدي لأبي، مجيد، كان يسقي الزرع في إحدى الليالي، ولدغته أفعى، بعد أن كان قد وطأها من غير أن يعرف، من وسط رجله، فأخرج خنجره من حزامه، وقطع موضع لدغة الأفعى، وبذلك تخلص من موت محتمل، أو هكذا ظن لو لم يفعل ذلك.. فكيف لصالح، بعد أن سمع هذه القصص، أن يتأوه أو (يضجر)؟ لقد صبر على جرحه ونام.. وهذه هي عادة صالح عندما يكون أمام أمر أو هم لا يكون لإرادته دور في تغيير ثقله عنه.. ينام ليقاوم ذاك بالنوم، أو ليستجمع قوته عند اليقظة لدور جديد.. أو لمهمة أخرى..

عندما وصلوا إلى قرية على النهر، بعد الفتحة مباشرة، وعلى الشاطئ الشرقي من نهر دجلة، حطوا رحالهم في قرية بريج بانتظار الدواب التي تأتيهم من عرب أحمد العامود، ابن أخت العشيرة، وعندما نستذكر الفتحة بين جبل مكحول وبين جبل حمرين حيث مجرى دجلة، نستذكر معها طريفة حصلت هناك بين الأعوام 1940 و 1950..

كان لويس نعيم عطا الله على دين النصرانية، وكان عاملا فنيا يعمل لصالح شركات النفط، وكان واجبه متابعة إصلاح الكهرباء في منطقة الفتحة، والتأكد من سلامة الأعمدة الرابطة للكهرباء. وفي أحد الأيام، وبينما كان يرتقي إلى أعلى أحد الأعمدة بسلم وضعه بصورة مائلة على عمود الكهرباء، وجد نفسه أمام منظر رهيب، وجد نفسه أمام أفعى هائلة الحجم، أو هكذا قال لويس لمحدثيه، وقد تأكد

صالح بنفسه من لويس من دقة الواقعة فيما بعد، وعندما اقترب منها دون أن يدري، رفعت الأفعى رأسها، وهي تخرج لسانها، وتهم بأن تمد رأسها إليه، أو ترمي بنفسها عليه، وعندما وجد نفسه أمام هذا المنظر الرهيب، فإنه بدلا من أن ينزل راجعا إلى الأرض مستخدما السلم، صاح مرعوبا (اللهم صلّ على محمد) وقفز من أعلى السلم، وقد كسرت إحدى رجليه، أو أصيبت برضوض بسبب ارتفاع السلم، وعندما سمعه العاملون المكلفون بحمل السلم المتنقل معه، وكانوا مسلمين، أعانوه على النهوض، وحملوه إلى خارج المكان، وسألوه: ما بك؟ سمعناك تقول (اللهم صلّ على محمد)، وأنت مسيحي؟ قال لهم: إن الأفعى جعلتني أنسى الصلوات على الدين المسيحي، وتذكرت كلامكم الدارج في حالات كهذه، مما أسمعه منكم، فوجدته في تلك اللحظة أقرب إلى لساني، فنطقت به، قال ذلك وهو يصفق يدا بيد ويضحك، رغم الألم الذي كان يحس به.. وضحك معه العمال، وشكروا الله علا سلامة لويس..

وبينما كان أهله بانتظار مجيء الدواب، نزل صالح على الشاطئ، وبقيت أعمدة بيت الشعر ممدة إلى جانب بيت الشعر، الذي كان مرميا مع الأثاث المنقول في الزوارق من رمز القرى وبنت النهر هناك.. وبعد أن اصطاد عددا من صغار السمك على مقربة من الشاطئ بأن نصب من كفيه المطبقتين، وفي داخلها طعم من (عجين) ليغري سمكة صغيرة بدخولهما من فتحة في الأمام بين أصابع يديه، وما إن تدخل السمكة في داخل النصب، حتى يطبق عليها من الأمام، فيحصرها داخل يديه، ويخرجها إلى الشاطئ ليضعها في حفرة رتبها على الشاطئ، وفيها ماء، وبعد أن ضجر من هذه اللعبة، خطر في باله أن يركب عمود خشب من أعمدة بيت الشعر، لعله العمود الوسط في البيت، لأنه أكثر سمكا واستقامة، وبعد أن قربه إلى الشاطئ دفع به إلى الماء، وطاف العمود وركب فوقه، واضعا مقدمة صدره فوق طرفه، ورجليه خارجه، تاركا القسم المتبقي يطفو على سطح الماء، وبعد أن وجده قادرة على حمله، دفع به إلى عمق النهر، وهو فوقه، ولكن صالح لم يكن يعرف العوم، حتى لو لمسافة متر واحد.. ولو قدر ليديه أن تفلتا من فوق العمود، لكان هلك، ولم يكن معه أو يراقبه أحد، ولكنه بحسه الخاص قدر أن العمود يكفيه ليطفو فوق الماء، وكان الماء في ذلك المكان حاد الجريان، وعندما وصل إلى مسافة بعيدة عن الشاطئ عاد أدراجه، وعندما لامست مقدمة العمود الذي يحمله اليابسة من الأمام، كانت سعادته عظيمة بانتصاره في العوم.

الجزء الثامن

" من يكثر ماله، يتعب قلبه، ويطمع به الطامعون، ومن لا يكون له مال، قد تدنو نفسه على ما هو تافه"..

كان مال الله يبني صداقات وعلاقات مع أناس يعرفهم أول مرة في نقرة السلمان، عسكريين ومدنيين، ويدرس خواص من كان يعرفهم من العسكريين، ذلك أن السجن محك فريد تختبر فيه معادن الرجال.. وكان العراقيون، بوجه عام، تجري على ألسنتهم في ذلك الزمان مقولة (إن السجن للرجال)، وبداية هذه المقولة موغلة في القدم، ذلك أن زمن سبعمائة سنة من الضياع، بعد أن غاب أي أثر لموجه موثوق أفقد العراقيين بوصلة التعرف على الاتجاه الذي يلم الجميع على موقف وعمل جمعيين وطنيين

وقوميين، ولم يكن للحاكم في ذلك الوقت دالة عليه، ولم يكن لهم أمل فيه، وكانوا يعتبرون أنفسهم غرباء عن الحاكم، ويعتبرون الحاكم في بلادهم غريبا عليهم، ويحللون لأنفسهم ماله وقتله لو ظفروا به، وكان الحاكم في تعامله معهم يحلل هدر دمائهم، وسرقة أموالهم، وإهمال مصالحهم، بل إن الغزاة كانوا يحاولون استباحة حتى الأعراض فيما لو أمنوا العقاب.. ولكن من يأمن عقاب العراقيين على أمر كهذا؟ فإن الثأر إن لم يأت من قريب، يمكن أن يأتي من بعيد لو تعدى أجنبي على عراقية، فـ (المرأة بشارب الخير)، مثلما كانت تقول النساء، ويردد معهن الرجال ذلك أيضا، ولذلك فإن الأجنبي الذي يمس عرض امرأة عراقية كان يثير في نفس من يسمع بها ويعرفها زوبعة غضب تجعل الفعل كأنه واقع على إحدى قريباته.. ومن ذلك التعامل الممتد عبر ما يقرب من سبعمائة سنة، وبعد أن أمعن الأجنبي في سرقة أموال العراق والتعامل مع العراقيين من غير إحساس بالحد الأدنى من المسؤولية، صار العراقيون يتعاملون مع أموال الدولة على هذا الأساس، بل صار كثر منهم يحللونها لأنفسهم، لو أتيحت أمامهم فرصة السطو عليها.. وقد عانينا من هذا الجذر الذي شكل امتدادا عميقا في الزمن في ظروف الحصار والعدوان، في المنازلة الكبرى أم المعارك الخالدة، بين الثاني من آب، يوم النداء الأغر عام 1990، وحتى كتابة هذه السطور.. وربما عانى الحكم الذي سبقنا اعتبارا من عام 1920، حيث كانت ظاهرة السرقة بين الأفراد، أو على مستوى من يضعف في نفسه الوازع الديني الأصيل من الدولة تتراجع أو تذر بقرنها على نطاق واسع، تبعا لقوة قبضة أجهزة السلطة وعدم مشاركتهم السراق في ما ينهبون.. ولذلك نجدها بين مد وجزر، ففي الوقت الذي كانت قد انعدمت أو كادت، داخل أجهزة الدولة والمجتمع قبل الحصار، نظرا لانتظام عمل الدولة وأجهزتها في تقديم الخدمة شبه المجانية، وطول سوطها أو سيفها ضد من تسوّل له نفسه التجاسر بما يناقض المنهج العام للأمانة والنزاهة والدين، فقد اختل هذا بصورة نسبية في السنوات الأولى من المنازلة، وبخاصة في الفترة الممتدة بين 1991/1/17 ونهاية العام 1995، وكانت عمليات السلب والنهب، بشكل مثل السوء فيها كلاب إيران المندفعون للعراق من خارج الحدود، مع من تعاون معهم، أو تورط في أثرهم من الأشرار بعد 28 شباط 1991، قمة ما وصل إليه حال السوء في هذا المجال، على قياس مدى أكثر من ثلاثين سنة من حكم البعث، حيث عم الأمن والأمان، فقد استباح الأشرار أموال الدولة في تلك الفترة، ودمروا كل ما وقعت عليه أيديهم من ممتلكاتها، وممتلكات المواطنين في أربع عشرة محافظة من أصل ثماني عشرة محافظة.. حتى قُهروا بإذن الله، وفرّ منهم من فرَ من أشرار إيران إليها عبر الحدود، وقتل آخرون، أو وقعوا في الأسر..

نقول إن مقولة (السجن للرجال) جاءت من هذه الخلفية في التعامل مع سلطة ذاك الزمان الموغل في القدم، ومنها أيضا يكون السجن، وفق رأي أهله آنذاك، للرجال شرفا، عندما يحمون حقهم من العادين عليه، أو ينتزعونه منهم بقوة رد فعلهم الذاتي وليس من خلال القانون.. وهل ثمة قانون قائم على العدل والإنصاف في تعامل الأجنبي المتسلط أو المحتل؟ وهل من يرعوي أو يطبق قانونا عادلا ومنصفا لأهل بلد محتل!؟ إن منشأ وخلفية (إن السجن للرجال) مما ذكرنا عززه وأعطاه وهج المثل أن رجالات العراق كانوا يسجنون بعد ثوراتهم ضد الإنكليز، مثلما في العهد العثماني، لأنهم إنما كانوا يقومون بفعل جمعي وطني شريف، بغض النظر عن التفاصيل الأخرى، وما آل إليه الأمر من مآل.

كان الرجال في معتقل نقرة السلمان، وهي أرض منخفضة في السماوة في عمق الصحراء الغربية من العراق.. في أغلبيتهم يفتخرون بأنفسهم، وبمواقفهم أمام أنفسهم، ومنها، وفيها أمام شعبهم وتاريخ أمتهم.. وعندما نقول أغلبيتهم، ذلك لأن الموقف الجمعي يلم أناسا لم يقرروا كلهم عند خط البداية

تحمل مسؤولية موقفهم وفعلهم بشرف وصلابة حتى النهاية، وإنما قد يندفع إليه من يندفع تحت عوامل مجتزأة، وربما ظرفية، أو ذاتية، تصورا منه أن موقفه قد يعود عليه بمكسب ذاتي سريع، أو يحصد وجاهة سريعة لو انتصر الثوار.. وكان القسم الآخر، حتى لو قرر موقفه على غير هذه الصورة، فإنه لم يجرب، ولم يعد النفس وفق ما ينبغي لتتحمل ضغط السجن، والحرمان بصبر وجلد.. ولكن الأغلبية، ومنهم مال الله، بل ومن بين أبرزهم مال الله، كانوا على الصورة التي اعتزوا بها مدى حياتهم كلها، واعتز بها معهم شعبهم وأهلوهم.. فهل يمكن لمال الله أن يكون إلا على هذه الصورة؟ وهو الذي سمع وعرف كل تفاصيل صلابة أهله، وهم يواجهون المستعمر العثماني، ويقدم أهله، من بين ستة رجال، ثلاثة منهم شهداء دفاعا عن شهامة العراقي وموقفه ورفضه للأجنبي.. بل، ألا يكفي من لم يتذكر كل شيء وأي شيء أن يتذكر انه ابن العراق، وأنه رجل!؟

لقد استذكر مال الله كل ذلك.. واستذكر كيف ساهم أهله السادن، متميزين على عشائر كثيرة في منطقتهم، في ثورة العشرين، ومع كل هذا، لم ينس مال الله أن العراق، حمى، وشعبا، وتراثا ومقدسات، يستأهل كل خير، وحري بأبنائه أن يفوا له في الشدة والأيام الاعتيادية، بل الشدة أدعى ليستذكروا كل حقوق العراق عليهم، وفي هذا، وليس منفصلا عنه، ليشكل حقلا آخر بما يحفظ توازن الحقوق والواجبات. نعم في هذا، وليس في غيره، كانوا بتأكيدهم حق بلدهم وشعبهم عليهم، يستذكرون ارتباط الروح بالجسد، وحقوقهم في بلدهم ووسط شعبهم، ففيما يكون حق الوطن والشعب روح الموقف، يكون حق المواطن هو الجسد الذي من غيره لا تغدو للروح شجرة خضراء مثمرة، وشاخص حي معافي يسعى إلى دوره الوطني والقومي والإنساني..

هكذا كان شعور نزلاء سجن نقرة السلمان.. وكان الحصفاء فيهم، وأهل الخبرة يستذكرون الحكمة الدارجة التي تقول إن من يريد اختبار صديق أن يختبره في سفر، أو شراكه بمصلحة.. ومن ينجح بعد هذا يكون صديقا حقيقيا وناجحا، لمن يظن أنه ناجح فيهما.. ولكن، أليس السجن أفضل ميدان من السفر على ظهر دابة، وفق منشأ هذا المثل، حيث يختبر الصديق صديقه في تقاسم لقمة، أو شربة ماء، أو التناوب على ظهر دابة، ليلاحظ هل يستأثر صديقه عليه بشيء منها، أو يقدمه على نفسه، مثلما يقدم المضيف ضيفه على نفسه...

في السجن، مع إرهاصاته المعروفة، التي لا يمكن أن يخمنها إلا من يكون فيه وحاصلا على شهادة منه، نقول في السجن كل تلك المفردات، وفيه ما هو ليس موجودا في رفقة الطريق، حتى فكرة أن يختبر الصديق صديقه، بما في ذلك لو واجهت القافلة المسافرة خطرا يدهمها من حيوانات مفترسة، أو عصابة سلب من اللصوص...

وعلى هذا الوصف، كان من يتنسمون ويستقبلون أريج الرسالة التي لو جاءتهم من ذلك المكان القصي في أرض الحجاز لزادت نفوسهم إيمانا، وملأتها غبطة وإصرارا، ولحمدوا الله أنهم كانوا على ذلك الموقف، وليس على موقف أهل العار من ممثلي السلطة الملكية آنذاك، بما في ذلك الوصي على العرش، الخائن التافه، عبد الإله...

بنى مال الله علاقات واسعة مع أغلب رجال المعتقل.. وبخاصة الضباط الأحرار الذي اعتقلوا معه بنفس المرسوم والتاريخ، وظلت أسماؤهم، عندما تجري على لسان مال الله، بعد خروجه من السجن، ويسمعها منه صالح كأنها تنغرز في خلفية ذاكرة صالح، لم تنتزعها الأحداث من تفكيره مع تقدم

عمره أبدا.. وكان في مقدمة ذلك أسماء العقداء الأربعة، قادة الجيش: فهمي سعيد، صلاح الدين الصباغ، كامل شبيب، محمود سليمان، ومعهم البطل الشاب من مدينة نينوى يونس السبعاوي..

وينجذب الخلان لؤلؤٌ والدرةُ

ليودعَ كلّ عند صاحبهِ سرهُ

يهيمانِ من فرطِ الصبابةِ والجوى

بعيدانِ عما في الطريقِ من العثرةِ

وقد يجمعُ الخلانَ عسرٌ يصيبُهمْ

ويبعدهُم لو صارَ عندهُمْ يسرهُ

هوىً عاصفٌ لو شاعَ في الناسِ سرّهُ

لأنضجَ فيهم حكمةً تشبه البذرةُ

ويرديهما لو صارَ في كلِّ واحدٍ

خيالٌ على ما يشتهي مطلقاً أمرهُ

ويعبثُ لا يدري سوى ذكر حالهِ

ولا يرعوي إن ذاقَ من دنفِ جمرهُ

وأمنعُ سورٍ للحياةِ من الردى

هو النفسُ لا تنفكُّ طائعةً حرةُ

وصلت الدواب إلى قرية أحمد العامود، وكان أهم ما بقى مزروعا في ذاكرة صالح من قرية بريج، رغم بقائهم فيها عدة ساعات فقط، هي محاولته، أو قل مغامرته بالطريقة التي قدمنها عنها في السباحة على عمود في نهر دجلة.. وصلوا إلى قرية أحمد العامود وكان أحمد العامود قد هيأ للعائلة (دامتين أو ثلاثا)، ولنسمها (غرفا) على سبيل المجاز، وكان أفراد من عائلته يستخدمونها في السابق ولكنها كانت بعيدة نسبيا عن سكن أحمد العامود، وقد ارتاح إبراهيم لانعزال سكنهم، ليجنب العائلة الاختلاط الذي لم يكن يريده في (ديرة) غريبة عليهم.. نعم هكذا كان العراقيون يشعرون بغربة حتى في علاقتهم مع بعضهم، عندما ينتقل من ينتقل منهم من مكان إلى آخر، وكان مفهوم كثر من الناس آنذاك أنهم جزء من بلد واحد ودولة واحدة، بالكاد تجد له أثرا بسيطا عند أناس بعينهم، وحتى ذاك الأثر، لم يكن واضحا ومحددا وقاطعا في تفكيرهم وتصورهم.. وهل يمكن أن يتذكر من هو جزء من شعب عاش قرابة سبعمائة عام في غربة إزاء المحيط، وأمام نفسه، أنه جزء من دولة واحدة، وبخاصة عندما تكون الدولة محكومة بنفوذ الإنكليز!؟

كان شعور الانغلاق هذا، حيث تنغلق العائلة على نفسها، ومثلها القرية والعشيرة، والمدينة، والأحياء داخل المدينة، يزداد حتى بات متعذرا أن يمر أحدهم من حي إلى حي آخر وخاصة الرجال، وقد كان حي السادة في بنت النهر لا يمر فيه رجل إلا إذا كان لديه عمل، وإذا لم يكن لديه عمل محدد معروف يقوله لمن يسأله من رجال المحلة، ومر محض مرور من غير هدف، كان حظه سيئا إذا صادفه أحد شباب الحي.. فإن الأخير ما إن يتأكد من أن المعني مر من هناك ماشيا من غير هدف مقنع، حتى يجد هذا المعني نفسه أمام حساب عسير يأكل بعده (بسطة)(1) عراقية قوية، تذكره وتذكر غيره بما عليه من واجب، إذا أراد أن يمر من هناك، ويكون حسن الحظ من يصادفه رجل كهل قبل الشباب لينصحه ويحذره من أن لا يفعل ذلك تثقيفا له على ما يجب عليه، وحرصا عليه لكي لا يأكل (بسطة) من شباب المحلة.. وإذا كان هذا هو حال العراقيين، فكيف لا يكون حال إبراهيم وعائلته، وهم ما هم عليه من تقاليد مشددة في الجانب الاجتماعي.. وقد جاءوا من مسافة بعيدة من خارج مشروع الحويجة إلى (عرب أحمد العامود) وكلمة (عرب) تعني في لغة كثر من العراقيين مجمع سكان واحد، وبخاصة عند أهل شمال بغداد والتأميم والموصل وديالى وواسط والأنبار والحلة ومناطق أخرى.. يقابل هذا المسمى (السلف) وهو مجمع سكاني في الريف أيضا، ولكنه أكثر انتشارا في جنوب العراق وبعض مناطق الفرات الأوسط..

نعم أراح الانعزال في السكن المنعزل إبراهيم وعائلته، وعملوا على ترميم وتجديد (الدوم) وإضافة ما هو جديد عليها.. وباشروا بالزراعة، وحدهم أيضا، لكي لا يختلطوا بأحد.. وكان أهم ما لاحظه إبراهيم وعائلته هناك هو قلة أو انعدام الاغتسال، وبخاصة في فصل الشتاء.. ومع أن عدم أو قلة الاغتسال كانت ظاهرة واضحة عند كثر من الناس في العراق كله بوجه عام، سواء في الريف أو المدينة، وبدرجات وفوارق نسبية، وكان المدرسون والمدرسات والمعلمون والمعلمات يفتشون الطلاب ليتأكدوا من نظافتهم عند حد مقبول نسبيا في بداية كل يوم دراسي، ومن نظافة أظفارهم ورؤوسهم، أو ثيابهم، أو ياقات (دشاديشهم) لانعدام البنطلونات للطلاب قبل المتوسطة آنذاك في كل المدن عدا بغداد.. نقول مع أن إهمال النظافة، أو الاعتناء بها، كان على درجات، وينطوي على فوارق نسبية

بين القرى والمدن، وربما بين مدينة ومدينة، فإن رمز القرى وبنت النهر لم تكونا على الشاكلة التي وجدوا فيها الحال في القرية التي حطوا فيها أخيرا، بل، وفي كل تلك المنطقة، فكلما اتجهت إلى الشمال كانت النظافة أقل وكذلك، أيضا، كلما تركت بغداد متجها جنوبا، وهكذا، كلما ابتعد الناس عن حافات الأنهار، حيث يصبح الحصول على الماء عسيرا، بوجه عام، ولا يعرف ما إذا كان أساس إهمال النظافة أن منطقة التأميم قريبة من الجبل، حيث تنخفض درجة الحرارة أكثر في فصول الخريف والربيع والشتاء قياسا بالمناطق الأخرى إلى الجنوب منها حتى البصرة.. ومن الطبيعي أن نقول أن المعنيين كلما انخفضت درجة الحرارة على عهد ذاك الزمان أحجموا عن الاغتسال، لذلك تجد أن الاغتسال في فصل الصيف غيره في الفصول الأخرى، عدا منطقة الأهوار في جنوب العراق، حيث أن الناس يسكنون على حافات المسطحات المائية (الأهوار) أو في وسطها، فوق جبايش، وفي مناطق أقل برودة مما عليه الحال في شمال ووسط العراق، ومع ذلك نجد أن النظافة لا تحتل أهمية واهتماما خاصين في سلوك الناس هناك بوجه عام بسبب طبيعة حياتهم، حيث يسكن الناس هناك مع حيواناتهم مرتفعين فوق الماء على جبيشة واحدة.. ومع ذلك فإن واحدا من الأسباب التي جعلت العرب يتفوقون في النظافة على الغربيين هو اعتدال المناخ في الوطن العربي من ناحية الحر والبرد، بالإضافة إلى كونهم منبع الدين والديانات، عندما منّ الله عليهم بنعمة الإيمان ونموذجه، وقد اكتشف العرب أنفسهم قادة ودعاة متميزين في الدين، واكتشفوا دورهم في بناء حضارة عظيمة، تواصلت مع عمق دورهم الحضاري في العراق وسوريا ومصر واليمن، وفي أقطار عربية أخرى، يضاف إليهم حضارتهم في الأندلس.. نقول، بالإضافة إلى هذا، فإن اعتدال مناخ أرض العرب، ومرور فصل الشتاء سريعا فيها، ربما سهّل عليهم الاغتسال.. وعلى هذا، ففي الوقت الذي كان الغرب يفتقر إلى حمام واحد لقرون من الزمن، وكان كثر منهم، عدا استثناءات بعينها، يعيشون في الكهوف والمغاور بما يشبه عيش الحيوانات، كان في بغداد عشرات الحمامات العامة في القرون الوسطى.. بالإضافة إلى الحمامات الخاصة داخل بيوت المتمكنين.

كانت الظاهرة الأخرى التي واجهت عائلة إبراهيم هي انتشار الملاريا على نطاق واسع هناك، حيث بعض المستنقعات (والحفر) في نهر عباسي مندثر، يتجمع فيه نزيز الماء من الأرض التي حوله، نظرا لأنه ينخفض عن الأرض التي تجاوره، وقد أصيبت العائلة كلها بالملاريا، وتكررت الإصابة التي غالبا ما تكون في الخريف في السنوات اللاحقة، وأضافت الملاريا عبئا حقيقيا لم يكن يعرفه القادم من بنت النهر ورمز القرى الواقعتين على حافة الجزيرة المطلة على نهر دجلة، فلا مستنقعات ولا نزيزا هنا: بل كانت حصتهم من النظافة بأفضلية واضحة، هناك في مكانهم الذي رحلوا عنه في بنت النهر، حيث لأغلب بيوتها حمامات، يحمى ماؤها وأرضيتها بنار الحطب، أكثر بكثير قياسا بما رأوه في مكانهم الجديد، ولعل هذا كان حال الأكثرية، بوجه عام، كلما اتجهنا شمالا بعد بنت النهر، وبدرجة أخرى في كل وسط العراق وجنوبه، ولكنهم لم يكونوا يعرفون قبل ذلك كيف كان الناس يعيشون في تلك المناطق، بل ما ت كثر من الناس في العراق في ذلك الوقت، وحتى بعده، ولم يصل أي منهم أو أبوه وجده إلى مركز مدينة، أو ناحية أو قضاء، والقسم الأكبر من العراقيين ماتوا ولم يروا عاصمتهم الخالدة بغداد.. وقلة قليلة منهم من رأى مركز محافظة واحدا أو أكثر قبل أن يموت.. وهل يطمح أحد أن يرى على ظهر دابة، أو مشيا على الأقدام، وهم على ما كانوا عليه من فقره، ما يراه العراقيون الآن!!؟

فتكت الملاريا بالعائلة، وكانت الحمى تأتي بعضهم صباحا ومساء، أو تأتيهم مناوبة، وليس في ساعة واحدة، ومن لم يأت دوره يضع كل ما تيسر من فراش فوق من تأتيه الحمى، وفي ظنه أن ذلك يهدئ هوسها ضده، بعد أن تصطك أسنانه، وترتجف أوصاله، وتنسحق عظام صدره تحت عاصفة الملاريا اللعينة، ويبدو ظهره فوق إليته كأنه ضرب بفأس فصار غير قادر على أن يعتدل، وهو يرتعد من أخمص قديمه حتى سمت رأسه.. وعبثا حاولوا القضاء على الملاريا في السنة التالية، عندما اهتدوا إلى نوع من الدواء على شكل حبوب صفراء صغيرة، وأخرى وردية مدخنة اكبر حجما منها.. والحبة الصفراء منها تسمى (كنين) وهي مرة المذاق، ولكن الملاريا خف عليهم في السنة الأخيرة من السنوات التي بقوا فيها هناك..

قال صالح، الذي استعنا بذاكرته عن تلك الذكريات:

- أتذكر أن أختي آمال وابتسام كانتا صغيرتين، وأن سهام أصغر منهما، وكان عمري بحدود الثمان سنوات آنذاك، وقد أصيبتا بالحمى، وعندما تنشغل والدتي، أضع عيني عليهما وهما نائمتان، وعندما تستيقظان ضحى، وقبل أن تكمل والدتي إنضاج اللبن وفرز الزبدة عنه، لتناول الإفطار بعده، كانت الصغيرتان تشعران بالجوع، وهما الأخريان مصابتان بمرض الملاريا، وأكون معهما في ظل الغرفة في الاتجاه المعاكس للشمس من الدار، فيما تكون أختي الصغيرة الأخرى سهام في مهدها . واضع في فمي كسرة يابسة من الخبز، مع قطعة صغيرة من البصل، وامضغهما على النصف، ثم أوزع اللقمة عليهما بالتناوب وفق ما (تنضجه) أسناني، حتى يتعب فكاي بسبب سرعة طحن اللقمة، وعندما كنت أزقهما كانتا تتلقيان اللقم كما تتلقاها بغاث الطير.. فإن جاءت الحمى آمال وابتسام قبل أن تكمل والدتي عملها، نقلت كلا منهما إلى فراشها لأدثرها واستعد لدوري فيها، وإن تمكنت والدتي من إنجاز واجباتها، بما في ذلك إنضاج اللبن الرائب والزبدة، تناولنا شيئا منها مع التمر أو الدبس، أما إذا كانت والدتي لم تنجز بعد واجبها في العجن أو الخبز، أو خض الشكوة (والشكوة هي جلد خروف مدبوغ ومصنوع على شكل قربة يوضع فيها (الخاثر) ويضاف إليه الماء، ثم تنفخ وتخض لزمن قد يمتد باستمرارية غير منقطعة إلى ساعة ونصف الساعة، واو ساعتين ونصف الساعة حتى تنضج الزبدة ويكون اللبن والزبدة في وضع يمكن معه تجميع وفرز الزبدة عن اللبن).. وغالبا ما تكون الحركة المتكررة لخض (الشكوة) بيد واحدة أو بكلتا يدي من تخضها، تعطي صاحبتها فرصة للتأمل في حالها وفي ما حولها، وكثيرا ما تستدر وتستحضر العواطف من القلوب المكلومة، ومثل ذلك تفعل الحركة في إدارة طاق الرحى، لجرش أو طحن الحبوب، ومع استذكار والدتي أهلها أمواتا وأحياء، وهي في الغربة (وتعدد) مثلما تقول النسوة.. ينتهي بها الحال إلى النشيج والبكاء.. حنينا إلى أهلها، وهي في غربتها، أو استذكارا لغيبة أخيها وهو في اسجن، أو استذكار الأموات الأعزاء..

نقول: إذا لم تكن والدتي تنجز أيا من واجباتها، وجاءتها الحمى أقوم بتدثيرها، ولا تعود والدتي إلى عملها إلا بعد أن تذهب عنها الموجة العالية من الحمى التي قد تمتد إلى ساعتين أو أكثر، تتعطل فيهما استفادتنا من عمل والدتي لنفس المدة، وإذا تعلق الأمر بطعام ظلت معداتنا تئن، ولكن من يطالب بشيء لمعدته مما هو غير موجود يعتبر رديء نفس، وإذا ألح على الطعام احدهم مع انه يعرف أن تجهيزه يحتاج إلى زمن اعتبر أيضا رديء نفس.. ولذلك كان على الطفل أن يعتاد على هذا متى أصبح عمره خمس سنوات، وإذا لم يعتد عليه، ولم يكن حساسا بما يكفي إزاء التقاليد الموروثة في هذا سمي (أبو بطن)، وصارت هذه التسمية ملازمة له حتى بعد أن يكبر ويكون له أولاد، بل تبقى تلازمه

طيلة حياته.. وهكذا كانت تطلق على صالح أوصاف كثيرة مما يعز، ويطلق على من يستعجل لقمة لبطنه اسم (أبو بطن)..

كانت الحياة في رمز القرى حيث إخوة إبراهيم، الخمسة، اثنان منهم أبناء أم، والثلاثة الآخرون، ومنهم إبراهيم، أبناء من أم أخرى هي عمة والدتي، وأعمامه، والحياة في بنت النهر تسيرا سيرا اعتياديا، وكانت الأحداث في ذلك الوقت، مما يشغل بال أهل مدينة كبنت النهر، أو قرية كقرية رمز القرى، بسيطة.. وكانت أيامهما تكاد تكون متماثلة، أو قل متشابهة في الأغلب الأعم، ولم يكن فيها ما يجري الحديث عنه عندما يلتقون على تناول القهوة عند أحدهم، غير أن فلانا مات، وفلانا جاءه صبي.. وفلانا تزوج، وبقرة فلان نفقت.. وفلانا (دك) هجم على غنمه ذئب وأخذ منها خروفا، أما السخل فيتجنبه الذئب لأنه يفضحه بصراخه خلاف الخروف الذي لا يثغو إذا هاجمه ذئب.. وفلانا نفقت فرسه، أو ولدت له مهرة.. وفلانا من أهل بنت النهر تشققت (جربان كلكه)، عندما ارتطمت بأرض ضحلة الماء.. وغرق عدد من أكياس الحنطة، أو الفحم الذي كان يتجر به من ضفاف الزاب، وهو أحد روافد نهر دجلة، ويصب فيه على مسافة إلى جنوب الموصل.. وقد انكسر (أي انسحق حاله)، ولم تقم له قائمة فتحول من تاجر إلى معوز.. الخ.

أما في نقرة السليمان، حيث للناس هناك قضية، كان حالهم يختلف، رغم أنهم في سجن، وكذا الأمر في بغداد، حيث أن إعدام فهمي سعيد ومحمود سليمان ومحمد يونس السبعاوي في الخامس من أيار عام 1942، أي بعد مرور عام على سقوط الثورة، التي سميت ثورة رشيد عالي، والتي أعلن عنها في مارس عام 1941، وما بذله الإنكليز من جهود مع إيران وتركيا لتسليم اللاجئين ومنهم صلاح الدين الصباغ، الذي أعدم في السادس عشر من تشرين الثاني 1945، ودفع صفوة رجالات العراق إلى السجون، ومنها سجن نقرة السلمان.. كل ذلك أجج ثورة داخل الصدور لا ينطفئ لهيبها إلا بقطع رؤوس الأفاعي المتسببين في كل هذا، وكان عبد الإله هو من وقع عليه الاتهام الفاصل، يأتي معه نوري سعيد، ثم تتدرج خلفهما في المسؤولية عن السوء مسميات أخرى.. وعندما يقول أحدهم ليخفف عن الحاكمين في مقهى من مقاهي بغداد: ماذا يمكن أني يفعله الوصي (عبد الإله) أو نوري سعيد، أو صلاح جبر، أو غيرهم، سوى الخضوع والامتثال لرغبة الإنكليز، وهم أصحاب السوط الأول؟ يصيح جلساء المقهى (الجاي خانة باللغة التركية) محتجين:

- هذا شلون (أي لون هو) حكي يمعود (أعوذ بالله منك).. إذا هم مو كَدها (إذا لم يكونوا كفئا لها)، عليهم أن يتركوا المسؤولية ويصارحوا شعبهم بالحقيقة، فإنهم عندها يكونون في عيون شعبهم أقل سوءا في الأقل، مثلما فعل عبد المحسن السعدون الذي انتحر بعد أن صار رئيس للوزراء، ووجد أنه غير قادر على حسم أو التوفيق بين ما كان يجتهد به، وبين رغبات وطلبات متعارضة بين الإنكليز والشعب، وبين ما كان يشار إليه ليفعل من المعارضة، ومنهم بعض قادة الجيش، وبين رغبات وطلبات البلاط (قصر الزهور أو قصر الرحاب)، حيث اتخذا مكاني سكن وعمل لكل من الملك والوصي على العرش، وعندما لم يستطع أن يوفق بين تلك الرغبات، انتحر، وجعل له تمثال، وسمي شارع باسمه، هو شارع السعدون.. فلينتحروا، إذن.. فهذا أفضل لهم وللشعب والوطن.

وعندما يحاول صاحب الفكرة الدفاعية أن يقول شيئا، ينبري له صاحب المقهى الذي يجلس في مدخل المقهى ليأخذ من الخارجين استحقاقه عما شربوه، وما شربوه لم يكن إلا نوعا واحدا.. فلا قرفة (دارسين) كما في مقاهي دمشق، ولا سحلب أو قهوة كما في مقاهي القاهرة.. إنه لون واحد

ومسمى واحد فحسب، هو الشاي في مقاهي العراق، أو الشاي الحامض فقط.. قام صاحب المقهى من خلف المنضدة التي يجلس إزاءها.. وامسك بيد صاحب الفكرة الدفاعية عن الوصي ورؤساء وزاراته، ومن غير كلام يهزه بقوه، وكان صاحب المقهى ذا شاربين مفتولين، ويعتمر قبعة بغدادية كلاسيكية ويضع (اليشماغ) على كتفه، وأحيانا يعتمر قبعة يلف حولها (اليشماغ)، ثم ما لبث أن أنهضه واتجه به إلى الباب.. وعبثا حاول ذاك أن يعتذر، أو يفلت يده من يد أبي جاسم، وما إن واصله إلى الباب الخارجي حتى دفعه وكاد يسقط.. ثم بصق في أثره:

- (تفوه) عليك، وعلى فلوسك التي جمعتها بالحرام والمذلة، حتى ثمن الشاي الذي شربته لا أريده، اذهب وال تعد إلى مقهاي هذا.. هذا مو مكانك، هذا مكان الوطنيين الشرفاء.

عندما أكمل أبو جاسم كلامه الأخير، استدار وأغلق باب المقهى وراءه.. وكن بعض طلبة الكليات والثانويات إلى جانب آخرين يجلسون في المقهى، وعندما لاحظوا أن تصرف أبي جاسم وكلامه كأنه وضع مرهما على جراحهم، صفق احدهم وتبعه آخرون، ثم صفق كل من في المقهى.

وعندها صاح صاحب المقهى، وهو منتش باسم ويتهلل وجهه ابتهاجا:

-يمعودين.. إخواني، لا تلوصوها(1)، ترى غدا يضعوني في السجن ويديحون جهالي (يتيه بعد ذلك أطفالي).

ثم يقول في نفسه مستدركا بصوت مسموع:

- وهل أنا أفضل من الذين في السجون، وفي سجن نقرة السلمان؟ ليداخلني مرض (دعاء على نفسه ليصاب بالمرض) إذا أنا خفت من الحكم العميل وأعوانه وجواسيسه، وليداخل المرض أولادي وزوجتي.. هل هم أفضل من أولاد ونساء الذين أعدموا، والذين هم في السجن؟

ثم بعد أن يميز كلام الغضب يستدرك ليقول:

- بل إن الذي أعدموا، والذين هم في السجون وأصحاب الصوت العالي بالحق ضد الباطل، وأولادهم وزوجاتهم وأقاربهم أفضل من الذين يخافون.. ويخفت صوتهم. وعندما استقرأ الحماس والرضا في عيون من كانوا في المقهى راح يقول كأنه يلقي خطبة:

- إننا لا نخاف.. العراقي لا يخاف.. العربي الأصيل الشهم لا يخاف.. تبا لهم، وساء ما يفعلون.

التهبت الأكف بالتصفيق من الحاضرين، ورفعت الحماسة نفوس وأرواح من كانوا في المقهى، وكان الشباب بدمائهم الحارة في المقدمة، وهبّ واحد منهم، وصعد فوق (التخت) الذي كان يجلس عليه، وهمّ أن يهتف لولا أن قال له أحدهم:

- أبو شكر، لا تحولها مظاهرة.. اترك لنا فرصة ما تبقى من الامتحان لنؤديه، وبعدها ليكن لك ما تريد.

قال له ذلك، وكان أحد زملائه، وكان يبتسم وهو يلتقط ذراعه بلطف، ويسحبه برقة ليجلسه، وعندما لاحظ من وقف على التخت إمارات الرضا على تصرف زميله من الجالسين، قال وهو يضحك أيضا:

- حسبنا أننا حاولنا، وقد تسجل لنا حسنة من غير تضحية.

أجابه أخر:

- كلك بركة وخير أبو شكر، أنت مشهود لك ولعائلتك بالوطنية والمواقف الطيبة.

نزل أبو شكر، وجلس مع من جلسوا.. وعندما جلس صفق له أبو جاسم وشاركه عدد قليل من الشيوخ كأنهم يشكرون أبا شكر لأنه استجاب لزملائه، لكي لا يورطهم فيكون مكانهم السجن قبل أن يؤدوا امتحان آخر السنة، ولأنه كذلك جنّب باستجابته هذه صاحب المقهى ما يمكن أن يقع عليه من عقاب، ومن بين ذلك غلق المقهى الذي يقطع رزقه، وهذا في عرف ذلك الزمان وكأنه قطع رقاب، حيث تضيق فرص الارتزاق الحلال، ومعنى ذلك كأنه حكم على العائلة كلها بالموت.. وأمر كهذا لا شك أكثر وطأة من مجرد سجن صاحب المقهى، لو ترك له مقهاه يعمل بإدارة من يكلفه، أو بإدارة احد أبنائه.

الجزء التاسع

كانت حياة عائلة إبراهيم، ومعها صالح، في قرية أحمد العامود تسير وفق الخط العام لحياة أهل الريف، غير أن الحرية والعلاقة التي كانت منفتحة داخل قرية البوحسن أوسع بكثير، حيث إخوة إبراهيم في رمز القرى أو ما هو قريب منها في بنت النهر، فهناك نمت بينهم وبين الأقارب والأصدقاء علاقات موروثة أبا عن جد.. أما في قرية أحمد العامود، فلم تقم علاقة لأم صالح وأم همام إلا مع زريفة (ظريفة) واسم زريفة هذا مستعار من اسم حور للعربية من التركمانية أو الكردية، أصله ظريفة، أطلقه أبو زريفة على ابنته عند الولادة وربما كان من بين أسماء السيدات في كركوك، أو اسم بنت احد شيوخ التركمان أو الكرد في كركوك.. ولأن الأعاجم لا يجيدون لفظ حرف الظاء، فقد قلب الظاء إلى (زاي)، وقلبوا اسم ظريفة إلى (زريفة)، وهكذا استعار العربي أو زريفة اسم بنته على هذا الأساس، وجاء اسمها هكذا.. زريفة، زوجة أحمد العامود. كانت زريفة تزور والدة صالح في بيتها عندما تتأكد أن إبراهيم خارج البيت، وتزورها أم صالح أو أم همام في بيتها عندما تتأكدان أن أحمد العامود خارج البيت. وكانت هذه الزيارات على نطاق ضيق جدا، وقد تزيد على مرة واحدة متبادلة في كل ستة أشهر مثلا، أو أقل من هذا الزمن قليلا، أو أكثر منه قليلا، على مدى بقاء عائلة إبراهيم هناك مدة تقرب من الأربع سنوات.. كان لأحمد العامود ولد و احد.. ثم جاءه ولد آخر بعد سنتين أو ثلاث سنوات من وصول إبراهيم وعائلته إلى هناك، وقد نشأت علاقة صداقة بين ابن أحمد وصالح، ولاحظ صالح أن فاهم رغم أدبه الجم، متردد وحذر جدا إزاء أبسط العوائق التي تواجهه في الحياة.. ومع أن فاهم كان لما يزل صغير عمر.. وهو وصالح بعمر و احد تقريبا، فإن صفات كهذه غالبا ما تنشأ مع الإنسان أو تولد معه.. ولأن فاهم كان الوحيد بين الأطفال الذين يمتون لصالح بصلة الخؤولة التي أشرنا غليها، ولأنه ليس في القرية من يمت لصالح بصلة عمومة، فقد كان يتخذ من فاهم صديقا له، بل كان الصديق الوحيد له في عرب أحمد العامود.. وعبثا حاول صالح أن يجعله يتصرف خارج تأثير هاتين الصفتين.. كان صالح مصرا على تعلّم السباحة، وأن لا يعلمه

إياها أحد حتى لو كان همام.. وكان مشروع الحويجة بالأساس مشروع ماء أقامته الحكومة لسقي تلك الأراضي، ولكي يوزع ماء المشروع على الأراضي ليسقيها، يلزم أن يجري تقسيم المياه بصورة منتظمة، وكانت المياه في بعض (الشاخات) أي السواقي الكبيرة لا تنقطع إلا نادرا، والشاخة، هي (الشيخة) وتعني الساقية الكبيرة، أو الساقية الأم قياسا بما يتفرع منها من سواق صغيرة.. وكان تقسيم المياه يجري غالبا عندما تنتقل الأرض من مستوى أعلى إلى مستوى أدنى.. ولكي يحصل الجميع على المياه، تحتبس بناظم يوضع على الأرض الأكثر ارتفاعا، ثم يتدفق خلفه الماء في ساقية أقل ارتفاعا من (الشاخة)، وهكذا كان الحال بالنسبة لحصة الماء لأرض أحمد العامود، ومنها الأرض التي كان إبراهيم يزرعها.. وكان الماء المتدفق من صدر (الشاخة) إلى هذه الأرض التي تنخفض عن صدر المشروع قد حفر صدر الساقية وجعلها عند مقدمتها أكثر سعة وأكثر عمقا، وكان عمقها على قياسات عمر صالح الذي مضى على وجوده مع عائلته هناك ما يقرب من السنة حوالي متر وعشرين سنتمترا، بحيث أنه لو سبح هناك لا يغطي الماء رأسه، ولكنه يمكنه من السباحة، وبعد الدرس الذي أخذه من دجلة قرب قرية بريج يوم عام فوق عمود بيت الشعر، أصر صالح على أن يتعلّم السباحة، وكان يسبح هناك.. وعبثا حاول أن يقنع صديقه ابن أحمد العامود بأن يحاول السباحة، إذ كلما ألح عليه صالح ليسبح معه قال له أخاف من الماء.. لا أفعلها.. أخشى أن أغرق.. أو أن الشمس حارة أو ما شابه ذلك، ولكن صالح كان يسبح في المكان. وأمر طبيعي أن من يسبح آنذاك، ولدانا أو رجالا، إنما يسبحون عراة.. ,هل يحتاج الفلاح إلى (لباس) سروال داخلي ليضيف إلى عبء الحياة عليه عبئا جديدا هو ثمن (اللباس) الداخلية؟..

كان صالح يسبح في النهر، وكان يدور يوميا في المكان المتسع نسبيا، وقبل أن ينتهي صيف ذلك العام تعلم السباحة، بل وأتقنها تماما، ولذلك ففي زيارته لبنت النهر فيما بعد حيث خاله لطيف وجدته وخالاته، وكانت الأولى والأخيرة طيلة الفترة التي قضوها في الحويجة، والتي هي بحدود أربع سنوات، سبح صالح في نهر دجلة بصورة اعتيادية، وكان يسبق أبناء بنت النهر ممن كانوا بعمره، أو بعمر أكثر من ثمان أو تسع سنوات. وقد حصل هذا بعد مضي أكثر من سنتين على غيابهم عن بنت النهر.. كان صالح قبل انتقالهم إلى قرية أحمد العامود قد حاول، من غير تكليف من أحد، أن يتعلم الحصاد، ولكن منجل الحصاد كان لأحد أخوة إبراهيم، وكان كبيرا وثقيلا على كف وزند من كان عمره ست سنوات، ولذلك ما إن حاول على هذا، حتى عقره المنجل، وترك أثرا في رجله، وبقي مرئيا حتى عندما كبر.. أما هذه المرة وبعد أن أصبح عمره ثماني سنوات أو أكثر، اشترى إبراهيم له منجل حصاد صغيرا وخفيف الوزن، لأنه في هذه المرة أيضا كان مطلوبا منه أن يقوم بواجب وفق تكليف لا محيص عنه.. كان إبراهيم يقول موجها الكلام إلى صالح: - هكذا حاول، اجمع السنابل بيدك اليسرى، ولتكن قبضتك على سيقان الحنطة اليابسة من تحت السنابل بقليل، ومع المسك باليد اليسرى من هناك يكون المنجل في نفس الوقت، أو بعد الإمساك بلحظة، قد انحدر ليقطع سيقان الحنطة من مسافة قليلة فوق الأرض، وكلما كان القطع قريبا من الأرض كان ذلك أفضل، وعليك أن تعيد الكرة حتى تملأ يدك اليسرى، وعندما لا تعود يدك قادرة على حصاد المزيد منها بمعاونة المنجل، ارم ما بيدك على الأرض، وحاول مرة أخرى، وتذكر أن (الحصاد) الجيد هو الذي يحصر في يده اليسرى وهو يحصد أكبر (شمالة) كمية من نبات الحنطة، وأن لا يجعل يده تسقط عددا منها خارج الزرع المجموع فتذهب هدرا، وأن لا يرفع ظهره وهو يحصد إلا بعد زمن طويل نسبيا، وكلما طال زمن انحناء الظهر، استطاع، لو تغالب مع غيره، أن يسبقه.. تعلم صالح الحصاد بسرعة/ مثلما تعلم الحراثة بالمحراث القديم على الثيران، وكلما حاولت أمينة أن تقول لإبراهيم أن صالح صغير،

وانه ليس بعمر يمكنه من القيام بهذه الواجبات، أجابها إبراهيم أن الصغير يكبر وعليه أن يتعلم، وعندما تقل أن صالح صغير.. تقول أيضا أن همام هو الآخر لم يبلغ بعد مبلغ الرجال مما يقتضي التخفيف عنهما، يصك إبراهيم أسنانه غضبا، ويقرب يده، بعد أن يضغط أصابعها، ويضع مقدمتها تحت حنك أمينة أم همام، ويقول لها بخشونة، وهو (يندسها) تحت الذقن: - ومن الذي يجمع لنا هذا الزرع؟ اتركي حنانك السخيف، وركزي على ما يجب أن نقوم به لنجمع زرعنا..

كان الحصاد أصعب فقرة على الفلاح بين كل فقرات الفلاحة، وللقارئ أن يتصور حال من يحصد، ويستقبل غبار الزرع وما يتطاير منه، وهو مكب عليه محنيا ظهره، وكيف سيكون عليه حال عينيه وأنفه وجهازه التنفسي وجلده الذي يتصبب عرقا، في حزيران وتموز، وأمر طبيعي أن نقول أن الحصاد يبدأ قبل طلوع الشمس، وفي كثير من الأحيان مع أول ضياء، ونتناول وجبة طعام الإفطار، وهي من لبن وتمر وخبز وزبدة طافية في قدر اللبن، ولا شيء آخر.. ومن الطبيعي أن نقول أيضا أن لا شاي في الحصاد، حيث تبعد الأرض مسافة بعيدة نسبيا عن الدار، وبمناسبة الحديث عن الشاي، فقد كان ثمن كيلوغرام السكر وربع الكيلوغرام من الشاي دينارا وربع الدينار، وهذا يعني أن ثمنها آنذاك يعادل أربعة آلاف دينار في يومنا هذا.. من العام ،2001 وكانت أمينة هي الوحيدة التي تجمع المحصول خلف (الحواصيد) الثلاثة: إبراهيم وهمام وصالح، يعاونها أحيانا من تتبرع لمساعدتها من شابات القرية.. كان همام أقل صبرا، ورغم أنه (حاصود) جيد من حيث القدرة على حصر أكبر كمية من الزرع في يده، وكانت أكبر كثيرا من كمية الزرع التي يقدر عليها إبراهيم أو صالح.. ولكنه أقل من صالح بالمطاولة في عدم تعديل قامته، وكان إبراهيم لا يحاول أن يمتحن نفسه في المطاولة، ولكن حصاده وحصاد صالح نظيف، بينما حصاد همام أًل جودة.. وبعد جمع الزرع خلف (الحواصيد) في أماكن بعينها مما تقوم به أمينة، ينقل النبات على ظهر دابة إلى مكان نظيف معلوم، حيث يدرس الزرع هناك بوساطة عدد من الأبقار تربط إلى بعضها بالحبال من رقابها، وتدور حول نقطة وسطية، غالبا ما يشكلها الزرع الباقي خراج أجل الحيوانات، عندما تدرس بأضلافها النبات المرمي على الأرض، أو يدرس بواسطة (جرجر)، والجرجر (رولة خشب) فيها فؤوس متخالفة، يسحبها ثوران أو بغلان، ويركب فوق الجرجر رجل أو شاب أو صبي، وأظن أن التسمية جاءت من الجسم المسحوب أو (المجرور)، ويشكل من يجلس فوق (الجرجر) الثقل الذي يحتاجه لتكون الفؤوس المتخالفة فعالة في سحق الحصول، وعند مستوى معين يذرى الحاصل بالمذراة أو (المرواح) وكلها أدوات فلاحة قديمة، ويساعد الهواء بعد رفع المحصول ونثره أعلى من رأس الإنسان، في عزل الحبوب عن التبن الذي يتطاير في الهواء، ليسقط متجمعا على مسافة، معزولا عن الحبوب.. وأمر طبيعي أن تعلّم الحياة الإنسان أن لا يقف مع اتجاه الهواء وهو يذرو المحصول، لكي لا (يغميه) التبن ويدخل في عينيه ومنخريه.. مثلما يتعلّم صاحب أو راعي الغنم، أن الغنم إذا ما (مدت) نفشت للرعي في الصيف، ينبغي أن لا تكون الشمس في وجهها، وأن لا يكون قفاها باتجاه الهواء وإنما رأسها.. الخ. تعلم صالح كل ما ينبغي أن يعرفه الفلاح المتوسط، وربما النبه أحيانا، قبل العاشرة من عمره، وتعلم السباحة حتى أتقنها، وتعلم ركوب الخيل والبغال، وأحيانا حتى البقر، و من الطبيعي أن نقول أن الطفل، وليس الصبي، يتعلم ركوب الحمير أولا، وهو في الرابعة أو الخامسة من العمر، وعندما حاول ابن عم صالح، أن يعلمه ركوب الحمير وهو بعمر أربع أو خمس سنوات، وضرب الحمار على قفاه، سقط صالح على الأرض وكسرت يده اليسرى من المفرق.. حين كانوا في بنت النهر، قبل انتقالهم إلى حويجة التأميم.

****

صـبور إذا مـا السر فـي صـدره ضـمه كـذاك الـذي فـي قلبـه يكـتم الغمـة وذاك ال ذي يخف ي عـن الن اس جرحـه ويحس ن مـن لـف الض ماد وقـد ضـمه يقل ى عل ى نـار تش بب فـي الحشـى ويخفـي لهيبـا حارقـا حـره دمـه يطـرز مجـدا كـل يـوم فضـيلة يعـز بمـا قـد شـاءه الأرض والنسـمة يـزيح بـه كربـا وفـي كـل شـدة كمـا قد أنـار الضـوء فـي دربـه العتمـة ويمـنح دفقـا صـافيا كلمـا نـدى ويحيـي بـه لـو شـاء مـن فـوره الرمـة هـو الله يغنينـا عـن الأهـل كلهـم عـن الأم والأولاد والخـال والعمـة ومهمـا يكـن مـن لا يكـون بمـؤمن كمـا جاهـل لا يعـرف الفـتح والضـمة كـذلك أنـواع الرجـال فمـنهم أمـين ومـنهم لا تكـون لـه ذمـة

****

كانت الحياة في حويجة التأميم، تجري وفق الاتجاه العام الذي نوهنا عنه: زراعة وحراثة وسقي وحصاد.. وكان صالح يشارك في كل العمليات الزراعية، لكنه لم يجرب أن يسافر من قرية إلى أخرى في الليل.. كان لإبراهيم أخت متزوجة من أحدهم في قرية قريبة من قرية أحمد العامود، التي كان إبراهيم يسكن فيها، وكان زوج أخت إبراهيم، جميلة، قد توفاه الله، ولكنه ترك عددا من الأولاد، كلهم أكبر من صالح، بل أن كبيرهم كان متزوجا وأنجب، والآخرين كانوا رجالا، وكان عمر صغيرهم بحدود ثلاثة عشر عاما، أي ما يقرب من عمر همام، ولا يعرف صالح لماذا كلفه عمه في إحدى الليالي بأن يذهب لوحده إلى بيت أخت إبراهيم، ليبلغ أولادها بأمر ما، لم يعد يتذكر ما هو، ولكنه على أية حال لم يكن بأمر ذي شأن، بحيث يستوجب أن يقوم صالح بهذا ليلا لوحده، وربما أراد إبراهيم أن يعد صالح للتعامل مع الليل وهواجسه ومخاطره.. قال إبراهيم: - ولدي صالح، احمل عصاك، واذهب إلى بيت عمتك جميلة، وابلغ (الولد)، ويقصد أولادها، بكذا و كيت. وعندما استفسرت صبحة منه كأنها تحاول أن تثنيه، قال لها بحزم: - اتركي صالح يتصرف.. كان ثقة عمي إبراهيم بي تزداد، وكنت، بالإضافة إلى ما أسمعه من والدتي ومن عمي إبراهيم، ع المعاني العالية، وما ألمسه من تشجيع، ومع كل عمل وتكليف، كأنني أحاول أن أثبت للجميع، أن ثقتهم بي في محلها.. حملت عصاي، واتجهت إلى حيث (عرب) نايف، الابن الأكبر لعمتي جميلة، أخت إبراهيم.. وكلما قطعت مسافة من الأرض مبتعدا عن قريتنا، ومع ابتعاد أصوات كلاب قريتنا، والديكة التي تصيح في وقت العشاء، والتوغل في جوف الليل، ازدادت هواجسي من الليل في تلك التجربة التي أخوضها لأول مرة، وعمري سبع سنوات أو يزيد عن هذا قليلا، ولكن الخوف لا يلغي الخجل من أي تردد إزاء إنجاز المهمة، التي دون إنجازها كأنني أخدش وصف أنني ولد ولست بنتا، ليكون خوفي مشروعا.. ومن هذا، ومن غيره يفهم أن الأهم لا أن لا يخاف الرجل إطلاقا، وإنما، حتى لو خاف، أن يستحي من أن يظهر الخوف، أو يتصرف على أساس أنه خائف.. توغلت في جوف الليل باتجاه قرية نايف.. ومع كل طائر يفر من أمامي، وتحدث أجنحته صوتا باصطدامها بالشوك، أو من تحت الشجيرات، قبل أن يطير من عشه على مقربة مني أو من مأواه، كأن قلبي ينزاح من مكانه، ويكاد يفر، بل لو أن أحدا استمع إلى صوت ضربات قلبي، لوجدها لا تقل اضطرابا عن فرار طائر صغير، أو حتى قبرة تطير مضطربة مرعوبة، وهي تأخذ مأوى في الليل، وتفاجئها خطواتي، وهي تقترب منها من غير أ، تكون قد توقعت ذلك.. ولكنني كنت أمشي، ولا أنثني، ومع كل حالة من هذا النوع، كنت أتحسس العصا التي

في يدي، لأستعين بها بما يقوي عزيمتي.. وعندما اقتربت من بيت عمتي، الذي هو بيت نايف، كبير عائلة عمتي جميلة، أخت عمي إبراهيم، ركضت الكلاب باتجاهي، وعندما كنت أبعدها عني، سمعت صوت رجل جاءني من اتجاه البيت الذي أقصده: - من هذا السواد؟.. وكان هذا هو نداء أهل الريف عندما يريدون الاستفهام عن شخص لا يعرفونه في الليل.. لاحظوا أن المنادي لم يقل: من هذا البياض؟، وإنما قال: من هذا السواد؟، تعبيرا عن حقيقة أن لباس الناس في الريف، بوجه عام، كان اللون الداكن، الذي يترك مرتسمه لونا أكثر من سواد الليل، أو في الأقل، أنه وهو يمشي على الأرض، يبدو أسود قياسا بلون الأرض أو الزرع، وقد كن أعرف هذا النداء، وأعرف الجواب عليه..

قلت:

- صديق ثم قال: - ومن هذا الصديق؟

قال ذلك، ولا أشد بأن الرجل المنادي، وكان أحد أبناء عمتي، قد عرفني من نبرة صوتي غير الخشنة التي تدل على سني، ولكنه أراد أن يشجعني بقوله: من هذا الصديق؟ قلت له بصوت أكثر ثباتا:

- أنا صالح..

- يا هلا بصالح، ومرحبا. وبعد أن طرد الكلاب من حولي، سلّم علي كأنه يسلم على رجل مصافحا إياي باليد، وهكذا فعل إخوته، ورحبت بي عمتي، وقدموا لي خبزا ولبنا، واعتذرت، وقلت لهم:

- لقد تناولت العشاء في بيتنا قبل أن آتي إليكم..

وبعد أن أبلغتهم الرسالة، قفلت عائدا، وكان طريق العودة علي أسهل، ورد فعلي إزاء ما واجهني وأنا مقبل إلى بيت عمتي، أكثر ثباتا، وأنا أغادر بيتهم. ومع تكرار الحال في التعامل مع الليل، صرت أتعامل معه كأنه نهار.. أليس الإعداد جزءا من إنضاج الشخصية، لتكون مهيأة للتعامل مع الحياة؟ أليس هو الطريق الصحيح، بدلا من ترك الصدفة وحدها تفعل فعلها في هذا؟.. أليست المحاولة والمحاولة.. والمحاولة.. حتى لو أخطأ من يحاول.. هي الطريق الذي لا تعوض عنه المحاضرات، ولا الكتب، ولا النصائح المجردة فحسب؟.. وهل يعوض عن الحياة مثلما هي كتاب أو محاضرة!!؟..
عندما وصلت إلى البيت، وجدت عمي يغط في النوم، وهذا ما كان عليه، حيث ينام في أول الليل، وينام همام وأمينة وأنا بعد العشاء مباشرة.. كلنا ننام بعد العشاء مباشرة، إلا والدتي فإنها تبقى تتابع عمل يومها إلى ما قبل منتصف الليل، وهي عادة بقيت عليها، أو لعله واجبها في البيت، أن تحرس (تنطر) الدار وأهله لينام عمي، وبعد منتصف الليل، أو نحو ذلك، وقبل أن تنام تعطي عملي علما بذلك، ليقوم هو بواجب الحراسة حتى الفجر، ومع الفجر يبدأ العمل.. وقد ينام قليلا بعد صلاة الفجر أيضا.. ولكن عمي إبراهيم كان لا بد أن يستيقظ قبل طلوع الشمس، ويعتبر الأمر معيبا أن تطلع الشمس على رجل وهو ممدد في فراشه، وأمر طبيعي أن ينطبق علي وعلى همام هذا الأمر أيضا، وفي الوقت الذي غالبا ما يعنّف همام وهو يحاول إيقاظه عندما يتأخر، لا أتذكر أنه عنفيني يوما على هذا، لأنني لا أتذكر أنني تأخرت في فراشي بعد أن أسمع صوته، إذ كنت أستيقظ قبل أن يناديني، وغالبا ما يقارنني عمي بتصرف همام إذا أراد أن يوبخه، باعتباري الأصغر سنا، ومع ذلك أتصرف

وفق الكيفية التي ترضيه.. عدت إلى البيت، ووجدت والدتي خارج البيت واقفة، وجلة، وهي تنتظرني، ومـا أن رأتنـي حتـى

قالت:

- ها يابة، عدت!؟.

- نعم

- عفية ابني. وعندما دخلنا، أنا وإياها البيت، وسمع عمي صوتينا، صحا ورفع رأسه عن الوسادة.. وقال:

- ها يابة، عدت؟ - نعم، وقد أبلغت (الوِلد) بما أوصيتني به

- عفية ولدي..

****

كانت والدتي غالبا ما تضع رأسي في حجرها عندما كنا في رمز القرى، أو في بنت النهر، وحتى في الحويجة، وكانت تحكي لي أغلب ما مر ذكره من قصص عن أجدادي، وأبي، وأعمامي وأخوالي، وكانت هي مدرستي ومعلمتي الأساس.. وكانت، وهي تداعب خصلات شعر رأسي بيديها وأناملها الحبيبة، تحكي كل ما قلته وما لم أقله، وتحكي كيف اختارها والدي، واختار معها والدها المتميز في العشيرة ليقترب منه أكثر، مع أن والدي كان قد تربى في بيت خاله، بعد أن توفي والده، وتوفيت أمه، حيث كان الابن الأصغر بين إخوانه، وكيف أن لخاله خمس بنات، ولم ينجب معهن ولدا، وكانت ملكية خال والدي وكرمه متميزين، بالقياس النسبي بما يملكه رجال العشيرة، آنذاك، حيث كان يملك لوحده أرضا واسعة فيها (كردين) وليس كردا واحدا، وكيف كان ضمن بنات خال والدي خلف المصطفى من هي مناسبة من حيث العمر ليتزوجها، ولكن والدك اختارني.. وعندما تقول هذا، كأنها أرادت أن تفخر بأنها متميزة، وفعلا كانت والدتي وأهلها متميزين.. وعندما تتحدث عن أي ميت من القريبين إلى قلبها، كانت دموعها (تسف) وكانت دموعي (تسف) معها أيضا، ومع الأموات، والأعزاء أو الشهداء الذي سقطوا برصاص الجندرمة الترك العثمانيين.. (يسف) دمعها على خالي المعتقل في (نقرة السلمان)، وكان تحكي لي قصته، وتكررها بين حين وآخر حتى حفرت ذكرياتها ليس في عقلي فحسب، وإنما في نفسي أيضا، ومن يومها صرت لا أحب الإنكليز المستعمرين، ولا جندرمة الترك، ومن هذا وغيره يمكن أن يفهم دور الأم، إذا كانت مؤثرة، ومن هذا الدور على ما يبدو، جعل اليهود انتساب الأولاد إلى أمهاتهم أساس يهوديتهم، ومن هذا صاروا يقلقون على مصير ديانتهم المنحرفة و المحرفة، عندما يحصون عدد المتزوجين من النساء المسيحيات، ويتخلون عن ديانتهم، رجالا ونساء.

****

" من لا يحفظ فرسه لحصان أصيل، قد تلد له بغلا"..

جاءنا عمي إبراهيم بفرس بيضاء، اشتراها من قرية شويش في إحدى سفراته هناك، وقد فرحت بالفرس.. ومن الطبيعي أن أقول أن محاولة ابن عمي مساعدتي، عندما كنت صغيرا، في ركوب دابة، حيث كسرت يدي بسبب صغر سني، ونزق ابن عمي، وعدم ثقل تصرفه، لم تثنني عن تكرار المحاولة، سواء عندما كنت في رمز القرى، أو عندما صرت في عرب أحم العامود.. لقد أتقنت امتطاء ظهور الحمير والبغال أيضا، حيث كان في قرية أحمد العامود عدد منها نظرا لقربها من الجبل، أما رمز القرى فهي بعيدة، وحيث أن وجود البغال أساسا في المناطق الجبلية في شمال العراق، ولكنني لم أتمتع بامتطاء صهوة بغل مثلما كنت أتمتع حين أمتطي الخيول.. ومثلما تعرفون، يولد البغل هجينا، عندما يجمع حمار إلى فرس ويلقحها.. والبغال لا تتوالد.. وهكذا يقول أهل غناء النايل: (1) ما جوز من عشرتي، لولا الزاغ يشيب وإلا الرمل ينغزل، وحتى البغال تجيب (تنجب) ومن الأمثلة التي يستخدمه العراقيون ضد من لا يعجبهم أمره أو تصرفه، أنهم يقولون.. (تباهى البغل، فقال أن خاله الحصان)، ولم يقل شيئا عن أبيه.. أقول سررت بالفرس التي جاء بها عمي، لأن ما شوقني لأن تكون لدينا فرس، هو أن فاهم بن أحمد يباهي بفرسهم التي هي من نفس أصول خيول جدي رباح.. وتقول والدتي أن لأبيها حصة فيها.. ذلك لأن أم تلك الفرس اتفق أن رباها عامود أبو أحمد، وأن جدي رباح لم يأخذ من عامود ما يقابل ذلك، وإنما اشترط عليه أن يكون شريكه فيها، وفي خلفتها.. أقول كان فاهم يباهي بفرسهم، وهي بحق فرس جميلة.. ولذلك عندما جاءنا عمي إبراهيم بالفرس البلقاء فرحت بها أشد الفرح، وحاولت أن أستخدم خبرتي في امتطاء الدواب والبغال، فقفزت من فوري إلى ظهرها بعد أن استعنت بالركاب، وصرت بعد ذلك لا أستعين بالركاب، وبقيت أمتطي الخيول، في الأغلب، من غير ركاب، بل لا أكون خيالا كما ينبغي، إلا عندما أركب الفرس من غير ركاب، وحبذا لو كانت بلا سرج أيضا، لأن هذا أفضل.. لقد تعلمت ركوب الفرس وجعلت فرصتي فيها هي البداية المتواضعة لإتقان الفروسية فيما بعد..

****

كانت والدتي تردد على مسامعي أن جدك رباح حجز لك عابدة بنت خالك مال الله، وتحاول أن تتحدث لي عن شيء من ملامح عابدة، ورغم أنها افترقت عن عابدة بعد أن تزوجها عمي إبراهيم، وعدنا من بغداد إلى بنت النهر ثم إلى رمز القرى بعد ذلك، والآن نحن في عرب أحمد العامود، وكان تعلقي بعابدة يزداد مع سنوات العمر الإضافية، على ما كان عليه عندما جئنا، حيث استقر بنا الحال في الحويجة.. وكانت لا تتحدث لي عن ملامح عدنان، لأنها لا تخمن منها ما يمكن أن تذكره لي، حيث أن عدنان بعمر صغير، وقد افترق ليكون مع أمه لؤلؤ، بعد أن انفصلت عن خالي مال الله، وكان ذلك بعد أن تركت والدتي بغداد إلى بنت النهر، ولم تر عدنان الذي ولد في بغداد.

****

بعد أن حصدنا الزرع، وعزلنا الحب عن التبن، ونقلنا الحبوب إلى أماكن خزنها في جفر أو (لوذ)- والجفر ما يحفر في الأرض، وتعزل فيه الحبوب عن أرضية الحفرة وجوانبها بالتبن ثم تدثر بالتراب، بعد أن يعزل هو الآخر عن الحبوب بالتبن، أما اللوذ، وأظنه من فعل يلوذ، فهو عبارة عن

جدران أربعة ليست عالية على هيأة غرفة، وعندما توضع الحبوب فيها، تعزل جوانبها والأرضية وسطحها بالتبن بعد وضع الحبوب أيضا، ثم (يملج) التبن من الأعلى بالطين المخمر، على هيأة

الزاغ: طير أسود(1)

(جلمون) ليسهل انسياب ماء المطر من فوقه إلى الأرض.. أو توضع الحبوب في (دوم) غرفةاعتيادية، وتغلق أبوابها.. وكانت حبوب الحنطة وفيرة في ذلك الموسم.. قال عمي إبراهيم، موجها الكلام إلى والدتي:

- صبحة؟ وعندما أجابته، أن نعم، قال

- ينبغي أن أسافر إلى بنت النهر، لأحمل على الدواب كمية من الحنطة، وما يتوفر من الهرطمان (العدس) والباقلاء (صوغة) هدية إلى بيت خالي، وبيت خاله هو بيت رباح، ومن بعده أم مال الله، وما الله، ولكي نعرف شيئا عن أخبار مال الله، وأن يكون معي في السفر صالح أما همام فيبقى عندكم..

قالت والدتي:

- خير إن شاء الله.

- وإذا كان لديك ما توصين به، فهيئي أفكارك..

فرحت بفكرة السفر إلى بنت النهر، وكان عمري ثماني سنوات، أو أكثر قليلا، وكانت لي يومذاك ثلاثة أثواب (دشاديش)، واحد للعمل، وآخر شبه مستهلك، والثالث جديد لم أدشنه، إلا مرة واحدة، ربما في أحد الأعياد، وصرت من يومها أغسل بنفسي (دشداشتي) الجديدة في الساقية يوميا، وأنشرها فوق الشوك لتجف.. وعندما أتحدث عن أثوابي، تذكرني بأننا عندما كنا في رمز القرى.. قبل مجيئنا للحويجة جنوب كركوك.. كنا نلعب (طواب) وتعني لعبة المدافع، وكانت لعبتنا المفضلة بعد غروب الشمس مباشرة، وتتكون هذه اللعبة من حصى كبير في العادة، يحفر له داخل الأرض ولا يظهر من جزئه الأعلى إلا قليلا، وفي الوقت الذي كنا نضع فوقه جمرة، كانت غالبا وأفضل ما تكون من روث الجمار (البعرور) الذي يكون شكله كرويا أو أسطوانيا شبه منتظم، وعندما نضع جمرة واحدة منه فوق قاعدة (الطوب) الحصاة المدفونة في الأرض، نضربها في الوقت نفسه بحصاة أخرى مسطحة بقوة ولكن من فوق الجمرة، وتكون نتيجة هذه الضربة فرقعة بسيطة يتطاير معها الشرر من الجمرة، وهكذا نعيد الكرة ونحن نتبارى فيما بيننا.. قد احترقت (دشداشة) ثوب أحدهم، فجئته بثوب من أثوابي الثلاثة، ولكن من سوء الصدف أن الثوبين الآخرين اللذين كانا آخر ما أملك من أثواب، احترقا في اليومين التاليين، وبذلك بقيت من غير ثوب.. وعندها فقط لاحظت أن وجه أمي متجهم، وأنها همت بأن تبكي، وبعد أن لاحظت أن أثوابي الثلاثة قد نفدت: الأول أعطيته لأحدهم، والثوبان الآخران احترقا، استطعنا بالكاد أن نجد لدى همام بقايا ثوب استعرته من لأرتديه، ذلك لأن همام كان يستهلك أثوابه قبل أن أستهلك أثوابي، وهي بنفس العدد، ريثما يصلنا قماش ثوب واحد من بنت

النهر لتخيطه والدتي، وقد تألمت بدوري لألم والدتي، ولكنها بعد أن لاحظت ذلك علي ربتت على كتفي وقالت: لا عليك، غدا صباحا، وربما ظهرا عندما يصل القماش، سأخيط لك ثوبا أفضل من أثوابك الثلاثة.. أعود لأقول أنني كنت أغسل ثوبي الجديد في الساقية يوميا، وأنشره فوق الشوك أو على حبل ليجف تهيؤا للسفر.. حتى جاء موعد سفرنا، وقد حمّلنا عدة دواب بالحنطة وحبوب أخرى، وتوجهنا إلى الفتحة ومنها وبعدها إلى بنت النهر، وقبل أن نصل إلى بنت النهر، أنزلنا أحمالنا عند خالة لنا، هي بنت عم والدتي، في منطقة قبل بنت النهر.. ودخلنا في دارهم (مقيل)، وقدمت لنا دبسا وخبز شعري، كان كل ما تملك آنذاك، ولكن خبز الشعير لم يكن أسود، ولا حتى أسمر، وفق ما معروف عنه من وصف، وإنما أقرب إلى لون خبز الحنطة، وكان من الشعير الأبيض، ولكنه لم يكن أشقر مثل خبز الحنطة.. ومن الطبيعي أن يتحول خبز الشعير، في ذاك الحر الشديد لبعض أيام أيلول، إلى ما يشبه القحف في صلابته، ولكي يؤكل على تلك الصورة، كان من يأكله بحاجة لأن يستعير (بطانة) فم بعير.. اعتاد أكل النباتات الشائكة والخشنة.. ولكي نتجنب مثل هذه الاستعارة.. فقد رطبنا الخبز بقليل من الماء، ثم (وقعنا به) على الدبس، ونحن في جوع شديد.. ومن يومها صارت تلك الأكلة ألذ أكلة أتذكرها، رغم أنني لا أهتم كثيرا بالطعام: خبز الشعير اليابس المبلول، مغمسا بالدبس مع اللبن المخلوط بالماء، ليشرب غموسا لـ (اللقمة)، والذي من غيره يصعب ازدراد لقمة خبز الشعير مع الدبس..

وصلنا إلى بنت النهر، ورحبت بنا جدتي وخالي عبد اللطيف، وخالاتي، وبقينا عندهم عدة أيام حتى صرنا في شهر تشرين الأول. وكنت في النهار أتنقل بين الشواطئ على (شارب) دجلة الشرقي، حيث الرقّي والبطيخ والخيار واللوبيا، ثم نعود في الليل إلى بنت النهر.. والعكس صحيح ليلا ونهارا.. سافرت أنا وعمي إبراهيم عائدين إلى الحويجة، ولكن قبل الوصول إلى هناك بتنا ليلتين في البيجي، وكان عمي قد اشترى تمرا من هناك، ووضعه في حملين على دابتين، وصادف أن حصل معه ما يؤخره عن السفر معي.. قال:

- ولدي صالح، سوف أتأخر عدة أيام في البيجي، نظرا لما يقتضيه عمل استوجبته الظروف، وأنا أعتمد عليك.. فإنني سأوازن لك الأحمال على ظهر الدابتين، وتتولى أنت إيصالهما إلى الحويجة.. ولدي ضع الذهب الذي بعثت به جدتك إلى أخواتك، وخط عليه فتحة جيب ثوبك كي لا يسقط شيء منه.

وعندما قلت له:

- لقد وضعتها في علبة لا تنفتح، إلا بعد أن يبرم غطاؤها عدة مرات.. قال: - ليكن.. ثم أوصاني بأمور تخص البيت ولزرع والسقي والغنم.. وغير ذلك، مع أنه لن يتأخر إلا بضعة أيام. سافرت من البيجي باتجاه الفتحة، ومنها إلى الحويجة، حيث بيتنا في عرب أحمد العامود، وقد أوصلني عمي إبراهيم إلى خارج مدينة البيجي، ثم قفل راجعا، بعد أن أودعني بقبلات على خدي وجبيني. يتبع

الجزء العاشر

" من لا يتحزم لابن آوى بحزام مهيأ لمواجهة أسد، قد يُهزم أمام ذئب إذا توهمه ابن آوى.."

اتجهت راجلا أسوق دابتين أمامي، وفي مكان ما جنوب غرب الفتحة، وبعد أن اجتزت واديا عميقا يأتي من قلب الجزيرة، وتصب فيه مياه الأمطار، وبعد أن تتجمع تنحدر إلى نهر دجلة.. ويقعد هذا الوادي قاطعا معالم الدرب الذي سلكته باتجاه الفتحة، وهو على هذا بين الفتحة والبيجي، ويقال أن أشرس الذئاب توجد عادة في تلك المناطق، وهي الذئاب التي تحتمي في طيات ذلك الوادي أو على أكتافه بمغاورها، وترد على مائه عندما يندر الماء حوله، وتسمى (ذئاب السحل) أو السحول.. ويتكون ماء السحل في ذلك الوادي أساسا من مياه الأمطار ويتجمع، قبل أن يجري أو ينساب إلى دجلة في حفر هنا وهناك، ولكن نزيز مائه لا ينتهي حتى في الصيف من عيون تنبع من بعض منخفضاته وأباط الكهوف التي تقع على حافتيه.. وكنت محتاطا لذلك، حيث كنت أحمل عصا بيدي وأتحزم بخنجر أهداني إياه خالي محمد، الذي هو في الحقيقة خال والدتي ويسكن البيجي، وبذلك صار للي خنجر خاص على وجه الاستقلال لأول مرة، ولكنني لم أر في تلك السفرة أيا من تلك الذئاب.

أسرعت بالدابتين، وعندما توغلت إلى جنوب غرب الفتحة كان هناك ذباب من نوع خاص بالمرصاد للحمارين، وهذا النوع من الذباب معرفو لنا في الريف، وكنا لا نسميه ذبابا، ومفردته (ذبابة)، وإنما نسمي المفردة (ذبيبينة) تصغيرا للذبابة، ولكن من غير أن تتجمع لينتبه إليها الفلاح عندما يتعامل معها.. وهذه الذبابة تستوطن منخر الدابة عندما تهاجمها، وتضايقها بالطنين، مما يفرض على الدابة أن تضع أنفها في التراب وتشحطه في الأرض لتتجنبها، أو تفوت الفرصة على الذبيبينة أن تدخل منخريها، وبعد أن كنت أركب على ظهر أحداهما فوق الحمل لأريح قدمي من المشي من حين لآخر، نزلت عن ظهر دابتي، ورحت أضرب الدابتين بعصاي لتسرعا تخلصا من تلك الذبابة اللعينة، ولكن إحدى الدابتين تضايقت إلى الحد الذي بركت، إذ لم تعد محاولاتها تجديها نفعا.. وعندما بركت، وأسقطت الحمل من فوق ظهرها، كان ذلك كأنما سقطت على رأسي صاعقة من السماء.. ذلك لأنني لم أكن أستطيع وحدي، وأنا بذاك العمر، أن أرفع الحمل من الأرض إلى ظهر الدابة، ووسط حيرتي وأنا أمد ببصري على كل الاتجاهات في تلك الأرض المقطوعة عن أي حياة قريبة منها آنذاك، ولا أجد أثرا لشخص أو مجموعة أشخاص يمكن أن ينقذوني من ورطتي.. راحت دموعي تسيل على وجنتي، ولكنني أدركت أن لا معين لي غير الله،و جلت ببصري في المكان فأبصرت على مقربة من الحمل المرمي حفرة ممتدة بصورة نظامية لخندق قتال من بقايا الحرب العالمية الأولى، وهنا لمعت في ذهني فكرة أنقذت الحال، فرحت أسحب كيس التمر، الذي كان قبل أن يسقط موضوعا عرضيا على ظهر الدابة، حتى قربته من حافة الخندق، وبعد أن عزلته بيدي من وسطه، وهيأته لأن يوضع على ظهر الدابة كحال أي حمل آخر، وقلبته نصفا فوق آخر، وذهبت إلى الحمار وسحبته بد أن تأكدت أن الذبابة قد ولت.. وسحبته إلى الخندق قبالة (عدل) التمر – كيس التمر- حتى صار ظهر الدابة ملاصقا، أو قريا من الكيس على مستواه بفاصل ارتفاع لم يكن كبيرا، وعندما لم يبق ولي أعرفه غير الله ونبيه الأمين وسيدنا علي، فقد نخوتهم ليدعو لي بالتوفيق فيما أنا عازم عليه، ودفعت بنصف الكيس الأعلى مع ما استطعت من استجماع قوتي لأحمله مع الدفع فتجاوز منتصف ظهر الدابة، وقبل أن تتحرك الدابة دفعت بالنصف الذي ما زال على حافة الحفرة حتى استقر الحمل بعد أن وازنته بالحركة على ظهر الدابة..

هكذا كان أهلنا يفعلون عند الانتخاء لمواجهة ما هو ثقيل من حمل أو أمور بعينها، بل حتى لو أرادوا أن يدفعوا عجلة غارزة في الطين، أو تربة هشة، إذ يقولون عندما يحاولون إخراجها (الله ومحمد وعلي) وعلى تالي الصوت – أي صوتهم- يقولون (يا الله).. ويريدون في هذا (على تالي الصوت قولوا يا الله)، أن يضمنوا أن يكون زخم السحب أو الدفع، أو أي طاقة وقوة تحشد في اللحظة ضمن توقيتها الصحيح ليكون أثرها إيجابيا.. وكنت أرى وأسمع والدتي عندما يقع طفل ويغمى عليه، أنها تنفخ في وجهه وهي تردد (الله.. محمد.. علي..) وتضيف حيثما ذكرت اسم سيدنا علي (أبو حسين ركاب الميمون – راكب الميمون) ولم أعرف أن فرس سيدنا علي أسمها (الميمون) إلا بعد أن كبرت.. وتضيف أحيانا إلى الأسماء (الطيّار)، وتستعين، بعد الله والرسول، بأي من هذه الأسماء وغيرها منفردة أيضا..

أعود لأقول: توازن الحمل فوق الدابة، وسقت الحمارين المحملين، واستعجلتهما في المشي لأصل إلى الفتحة، وبعدها إلى حيث أهلي مع بقايا النهار، أو بقايا النهار والجزء المبكر من الليل في الأقل، بعد أن أخذ مني سقوط الحمل وإعادته إلى حيث كان زمنا طويلا نسبيا.. وعبرت الفتحة بالفيري (والفيري هي الجنية أو الجني) باللغة الإنكليزية، على وفق ما كان يقول هذا ممثلو شركات النفط التي كانت تستثمر نفط كركوك عندما يستخدمون هذه الوسيلة لعبور نهر دجلة من الفتحة، وقد كان العبور في الفيري مناسبة لأن أتناول عددا من التمرات مع قطة خبز كانت معي متاعا لذلك الطريق، ومع أنني، وفق العادة، عرضت استعدادي لاستضافة من كان على مقربة مني على ما قسمه الله، ولكن أحدا لم يشاركني فيها... بعد أن شكروني على استعدادي ليشاركوني في تلك الوجبة، وعلى مسافة ما بعد الفتحة، وربما في منتصف الطريق بين الفتحة وعرب أحمد العامود، واجهني خيّال على فرسه، ومن الطبيعي أن نقول أن الأرض كانت خالية من الناس، وقد سألني:

- إلى أين، يا ولد؟

قلت له:

- إلى أهلي القريبين من هنا

ولم أقل له أن أهلي بعيدون عن المكان الذي كنت فيه لكي لا يطمع بالحمولة، وربما يهتدي إلى قطع الذهب (الحلي) أو المصوغات التي كانت معي، ومع أنها بسيطة ولكنها قد لا تكون شيئا بسيطا بالنسبة له، خاصة وهو قادر على أن يغلب طفلا بعمر ثماني سنوات من غير مجهود كبير، أو احتمالات الحد الأدنى ليقدم تضحية من جانبه، وكان قادرا على هذا لو سوّلت له نفسه ذلك، خاصة وهو مسلح ببندقية.. ولم يكن معي إلا عصا وخنجرا صغيرا.. وعندما سألني:

- وهل معك أحد؟

قلت له:

- نعم، عمي ووالدي، لقد تأخرا قليلا، ولكنهما سيحضران في أثري..

عندها عطف بفرسه باتجاه خط أثري وصار (يهذب) بفرسه بالاتجاه المعاكس لخط مسيري، وكنت، عندما سألني، أريح قدمي راكبا على ظهر إحدى الدواب، ولكن بعد أن رأيته يهذب بفرسه بالاتجاه المعاكس، وكأنه يبحث عما إذا كان هناك فعلا من يعقبني في المسار، كما قلت له، أو أنني وحدي فحسب، أو هكذا تخيلت.. قفزت من الدابة، وصرت أحث الحمارين بعصاي وصوتي، فطاوعاني، وصارا يحثان خطاهما بسرعة ما كنت أتوقعها، حتى أصبحت على أرض مرتفعة باتجاه خط سيري، وصرت فجأة على مقربة من (عرب) كبيرة تنزل في بيوت من الشعر على مقربة من الطريق، وعندها لحق الخيّال بي بعد أن قطع مسافة في الطريق الاتجاه المعاكس، وما إن صار على نقطة من المكان المرتفع الذي وصلته ورأى أن المسافة التي تفصلني عن العرب ليست بعيدة، تركني من غير أن يتكلم، أو يقترب مني كثيرا، وتوارى في جوف البر..

وصلت عرب أحمد العامود مع صلاة العشاء، ومع إنزال أحمال التمر من فوق ظهري الدابتين، سلمت والدتي المصوغات التي بعثت بها جدتي وخالاتي هدية لها ولأخواتي، كأنني بهذا أردت بأسرع ما يمكن أن أتخلص من عبء الالتزام الذي وضع معها على كاهلي.. ومن الطبيعي أن تسأل والدتي تفصيليا: كيف حال جدتك؟ وماذا قلت لها؟ وماذا قالت لك؟ وهل سألت عنا؟ وهكذا عن خالاتي واحدة واحدة، وعن خالي عبد اللطيف، وكانت حصة خالي مال الله من الأسئلة هي الحصة الأكبر.. فهو شقيقها الأكبر، وشمعة العائلة.. وقد أجبتها عن أي شيء سألته، ومع أن والدتي مقلة في أسئلة كهذه، ولكن ألا يعذر ذو غربة إذا ما خرج عن عادة أنه مقل، عندما يسأل عن أهله ومحبيه وعن المعارف والأقرباء؟

عاد عمي إبراهيم من البيجي، والتحق بنا في الحويجة، وعدنا إلى حياتنا الاعتيادية، وعندما حل فصل الربيع رحلنا مع الغنم والدواب مع من رحل من العرب، إلى منطقة تسمى أبو ذويل، وكانت أرضنا مفتوحة، تصلح للرعي الطبيعي للأغنام والحيوانات، وكان أهم ما قمت به هناك أنني كنت أنعت أو أسوق الغم ليلا من غير تكليف من أحد، وأذهب بها بعيدا عن مكان مجمع بيوت الشعر.. وكانت بيوت الشعر مثلما هي الآن تسمى، وتحسب أرقامها على عدد الأعمدة التي تنتصب وسطها، ولعلها تدل على مرتبة وقدرة مالكيها، فتبدأ من العمود الواحد الذي يسمى (الخص)، وهو غالبا تسكنه أرملة، أو رعاة الأغنام، حتى تنتهي إلى العدد سبعة في منطقة الحويجة، وقيل أن بيت كبير شيوخ العشيرة، التي ينتسب إليها أحمد العامود، كان على سبعة أعمدة، أما ضمن العرب التي نحن فيها في أبو ذويل فإن أكبر بيت شعر كان على أربعة أعمدة، أما بيتنا فقد كان على ثلاثة أعمدة ويسمى بيت الشعر من عمودين (المكورن) أو (المقرون)، وقد يراد في ذلك القرنين.. ثم (المثولث) و (المروبع)، و(المخومس) و(المسودس)، و(المسوبع).. ولكن عندما يكبر البيت بعد المروبع يكون بحاجة إلى أن يقسم ليحمل، أو بحاجة إلى (جمال) لتحمله.. وأجملها في استقامة ظهره وأناقة نصبته هو (المثولث) و (المروبع) فحسب.. ولكن (المكورن) جميل في نصبته أيضا، مع أنه بيت صغير..

كنت أسري في الغنم في جوف الليل، ولم أترك فرصة لذئب لأن يظفر بنعجة أو حتى بحمل صغير، ولأن الذئاب كثيرة في تلك المنطقة، كان بعضها يقتل من حين لآخر، وكان بعض الناس يأكلون قلبه أو أي شيء من أحشائه، إذا أرادوا أن يتصفوا بالقوة، وفق من أفتى لهم بإمكانية ذلك، وبعضهم يقتلع عينيه ويحملها لكي لا ينام، وبخاصة إذا كان مطالبا بدم إنسان، أو بشيء مما يجعل حياته مستهدفة، وكان كفا الذئب يقطعان (ليكفخ) بها ثدي امرأة، أو ناقة، إذا مرض أو احتبس فيه الحليب وصار لا

يدر على طفلها.. وكانت امرأ' في أبو ذويل قد أصيب ثديها بتقرح، كما كنا نسمع من النساء، ورغم كل المحاولات التي بذلت، ومنها (كفخ) الثدي بكف ذئب ليخف المرض، فإنها لم تشف إلا عندما جرح زوجها صدرها بموسى حلاقة، وأخرج القيح المخزون فيه.

عندما يفز عمي في أي ساعة من ساعات الليل ولا يجد الغنم، ويتأكد من أن الراعي نائم، فإنه حين يلاحظ أن فراشي خالٍ، يخمن أنني قد (نشرت) بالغنم، وهو تعبير عن رعي الغنم عندما تنفش في الأرض أو الزرع ليلا.. وكان أحيانا يأتي إليّ حيث المرعى ليتأكد من أنني والغنم بخير.. وكانت هذه المبادرات تجد من عمي تشجيعا كبيرا، وتزيد من وزني لديه، بالإضافة إلى أسباب أخرى يستطيع هو أن يستنتجها..

****

" إذا كان لعدوك سيف طويل فأضعف خاصية سيفه بثبات جنانك، واجعل عقلك يقدح حيث يثقل يديه سيفه، وناور بالحركة وسرعة الوثوب، واقترب منه قبل أن يهوي به عليك، ليكون سيفك القصير قادرا على أن ينفذ في إبطه، وبذلك تلغي خاصية سيفه، وتتمكن منه"..

وفي أحد الأيام قبل الذهاب إلى أبي ذويل، شكا لي راعي الغنم بأن الرعاة لا يسمحون له بأن يرعى في وادي الحجل، وهو وادٍ يسيح فيه ماء المطر من جوانبه إلى حيث المنخفض فيه، أو يأتي بماء المطر كمسيل من أماكن بعيدة، ولذلك غالبا ما يكون خصبا.. وقد عزمت على أن أواجه هذا التحدي، وذهبت معه في اليوم التالي لنرعى الغنم، على أن نذهب بها إلى وادي الحجل ونواجه الرعاة، وعندما وصلنا الوادي، كان الرعاة قد تجمعوا في مكان واحد، في الوقت الذي كانت أغنامهم تسرح في الوادي، وعندما رأي راعينا هذا، تملص وابتعد عن الغنم وأبقاني وحدي، ولكنني لم أتردد عن قراري، وفعلا (نفشت) غنمنا في الوادي أيضا، وعندها جاء حوالي سبعة من الرعاة، كانوا كلهم شبابا، إلا واحدا كان عمره بحدود اثني عشر أو ثلاثة عشر عاما.. كانت لدي عصا طويلة نسبيا، قطعتها من الصفصاف المزروع على النهر الرئيس قبل أن نأتي بالغنم، وعندما قالوا لي: ما الذي جعلك تتجاسر، يا ولد، وتأتي بغنمك إلى هنا؟ قلت لهم: أن هذا الوادي لا يعود لأحد، وإنما هو ملك الله، لذلك جئت بغنمي لتسرح هنا مثلما تسرح أغنامكم..

وفي الوقت الذي كانوا يحكون معي، اقتربوا لينتزعوا العصا مني، ولكنني كنت متنبها لذلك، وكلما اقترب أحدهم مني ضربته، أو أهوّم عليه فيبتعد، وقد رمى أحدهم بجسمه عليّ، وهو يقتحم عصاي، وبعد أن وقعت على الأرض، انتزع العصا مني، ولكنه لم يضربني لأنه كان شابا وكنت بعمر لا يزيد على تسع سنين، ولكن من ضربني وأوجعني كثيرا هو ذاك الصبي ذو الثلاث عشرة سنة من العمر، وطردوني أنا وغنمي من الوادي..

وبينما كنت مهضوما على ذاك الحال، إذ بعمي إبراهيم يأتي متحزما بخنجر، ويحمل عصا غليظة وقضيب حديد، و(يدرج) رأسه بيشماغ ليقيه جزئيا من ضربة على الرأس، وكان راعي الغنم في أثره، وعند ذلك فهمت أن راعي الغنم عندما رأى الرعاة يحيطون بي وأنا (أهارفهم) بالعصا الطويلة، أسرع إلى عمي ليأتيا لإنقاذي، وعندما رأى الرعاة عمي هربوا.. أو هرب من ضربني في الأقل، وجاء بأبيه وهو يحمل مسحاة..

كنت أعرف أن عمي إبراهيم شجاع، ولكنني لم أعرف أنه يجيد فن القتال بالعصا، وفق ما أثبت ذلك بالتجربة، لذلك قلقت عليه من طول مسحاة حاملها، أبي ذلك الراعي الذي ضربني، وما أن التقى عمي وذاك الذي جاء يتعارك، بدلا من الاعتذار لعمي لتجاسر ولده عليّ، رفع صاحب المسحاة مسحاته بكلتي يديه ليهوي بها على عمي، ولكن قبل أن يهوي بمسحاته إلى حيث أراد، وفي لمحة بصر، صار عمي أقرب ما يكون إليه، و(مطله) بقضيب الحديد، حتى التوى هو وقضيب الحديد، وفر وهو (يجمح) يصيح ممسكا بخاصرته، وما إن صار قربي، وكانت في يدي عصاي التي استرجعتها، حتى ضربته على يده، وجاءت ضربتي على إصبعين من أصابع يده، وعلمت فيما بعد أنه قال إن أكثر ما أصابه من أذى إنما هو من تلك الضربة، ذلك لأنه لم يتصور أن تأتيه الضربة مني عندما مر بقربي وأنا بذلك العمر. وعندها فرّ الرعاة كلهم، حتى أولئك الذين لم يكن لهم دخل في إيذائي.. ومن ذلك اليوم صرت أذهب مع الراعي، وصار الراعي بعدها يذهب بمفرده، يرعى الغنم في وادي الحجل، ولا يعترضه أحد.

وبهذه الروح تمكن العراقيون أن يواجهوا الغطرسة الأمريكية والحلف الصهيوني الغربي في العدوان الثلاثيني، الذي امتد هو وقواه الأساسية أحد عشر عاما، وانتصروا عليه بصمودهم وصبرهم، وقدرتهم على المطاولة، ومثل ذلك فعل شعب فلسطين البطل في مواجهة الصهيونية منذ عام تقريبا، وهو في وقفته الجهادية، كأنه توأم شعب أم المعارك.. نعم.. هل يمكن أن يلد الرحم الواحد والصلب الواحد غير أخوة؟.. ذلك لأنهما عرب.

****

كان كثر من الفلاحين يخصون الثيران المعدة للكراب (للحراثة) تخلصا من مشاكلها مع البقر، ويخصون بعض تيوس الماعز المعدة للذبح، حيث أن الفحل الذي يخصى يصبح أسمن وأكبر حجما، وأقوى في سحب المحراث، أو حمل أي أثقال أخرى، وما عداها فهو ضعيف في تمثيل صفة جنسه.. ومن هذا الدرس يبدو أننا يمكن أن نستنتج أن الخصي، أو المخصي من شخص أكثر قدرة منه، ومن الخصيان، بعض حكام الدول الصغرى، وكثر منهم في العالم المسمى بالثالث، لا يصلحون بعد ذلك إلا للكراب، أو الأحمال الثقيلة، فمن هو على هذا الوصف، يا ترى!؟ إن الشعوب هي الأعرف، وإن شعب أمتنا متميز في الفراسة، ومشهود له بها..

وبمناسبة الحديث عن إخصاء الثيران والتيوس، فإن إخصاءها يتم بطريقتين كلاهما مؤلم، فإما أن يفتح الصفن، وتستخرج منه البيضتان (الخصيتان)، وإما أن يربط، ويقلب على ظهره، ويضرب بعصا مناسبة على خصيتيه حتى يتأكد من يقوم بهذا من أنهما لم تعودا صالحتين.. وعندما كان عمي يفعل ذلك بمساعدتنا، ويستخرج خصيتي ثور أو تيس، يعطي الخصى للصغار، وكانوا من فورهم يضعون الملح عليها ويدسوّها في النار ليأكلوها بعد ذلك، ولذلك كان منظرا شبه طبيعي، وإن كان مؤلما، بل كان محزنا بالنسبة لي، ولكن لكي لا يفسر ألمي على الثيران أو التيوس ضعفا فقد كنت أخفي ذلك.. أقول مع أن منظر التيس أو الثور يتلوى من فرط الأذى الذي يصيبه مؤلم، ففي الوقت نفسه كان الأطفال يضعون خصيتيه على النار بعد أن يملحوّهما ليأكلوهما.. وكان هذا منظرا شبه طبيعي.. وقد صادف في أحد الأيام، وأنا بعمر التاسعة، وربما دخلت العاشرة، أن بطحنا ثورا على ظهره بنفس الطريقة، ولكنه كان ضخما، وبعد أن كتفنا رجليه في الوقت الذي ربطنا الحبل في قرنيه، انتفض وقام وهو ينفخ قبل أن تكتمل عملية قص خصيتيه، وكان همام يمسك معي برأس الثور، ولكن

ما إن وجد همام الثور قد هاج كالوحش، حتى ترك معاونتي وتركني وحدي مع الثور، ولا أعرف كيف أمسكت به من قرنيه، كل يد تمسك بقرن واحد، وكنت لصيقا بصفحة رقبته ومقدمة جسمه، ولويت رقبته بكل ما أوتيت من قوة وعزم، وما إن فعلت ذلك حتى وجدته، مع التواء رقبته، يطلق ثغاء يائسا، و (تكوم) أي سقط، بعد أن ارتطمت مؤخرته على الأرض، وأنا أجلس فوق مقدمة جسمه، ويداي تمسكان بقرنيه بإحكام، وما إن رأى عمي وهمام الحال، حتى أسرعا يكتّفان الثور مرة أخرى، في الوقت الذي كان عمي يطلق كلمات تشجيعية منها (حو.. يمة.. حو) ولا أعرف ما يقابلها باللغة العربية، ولكن أعرف أن معناها الاعتزاز بالموقف..

نعود لنقول إن ربيع ذلك العام كان من الفصول الجميلة التي قضيناها في أبو ذويل، بعد أن شبعنا من الكمأ هناك.. وكانت الأبقار والأغنام تحلب مرتين، وأحيانا ثلاث مرات، مما جعل حتى الكلاب تشبع لبنا.

****

عدنا إلى عرب أحمد العامود في نهاية شهر نيسان، أو بداية شهر أيار، لنمارس حياتنا المألوفة هناك، وقد وصلنا خبر مع أحدهم أ، خالي أطلق سراحه من السجن، وأنه وعددا من وجوه العشيرة يتوقع أن يحضروا إلينا في عرب أ حمد العامود في أي لحظة.. كنت آنذاك قد تجاوزت التاسعة بقليل.. وفعلا حضر خالي ومعه عدد من وجوه العشيرة، أساسا لإرضاء عمي لكي يعود إلى ديرته، وقد حصل الرضا فعلا، وعدنا، بعد أن لملمنا حالنا وجمعنا الحبوب، و كانت تلك السنة وفيرة.. وكنا هناك لا نزرع الشعير بل الحنطة فقط.. وكان أحمد العامود لا يأخذ حصة الملاك مما نزرع، وإنما يتركنا نحمل الحبوب كلها، إكراما لنا.. ولأننا نتولى بأنفسنا كل العمليات الزراعية، بما في ذلك حبوب البذار..

عدنا إلى بنت النهر ورمز القرى على مرحلتين، في المرحلة الأولى، نزلنا في قرية (شويش)، على مسافة ما جنوب شرق الفتحة من الجهة الغربية، وأمضينا الصيف فيها، وفي المرحلة الثانية عاد أهلي إلى رمز القرى.. وقد حصل تطور جوهري في حياتي في قرية شويش.

كانت قرية شويش كبيرة نسبيا، وتضم خليطا غير متجانس من الناس، من عشائر مختلفة، نزلوا هناك.. وكانت أرضها طيبة وصالحة للزراعة.

تقع شويش على الضفة الغربية لنهر دجلة بين الفتحة والبيجي، بالقياس إلى جريان نهر دجلة، وكانت تقابلها من الجهة الجنوبية الشرقية للقرية وسط نهر دجلة، جزيرة تحيطها المياه من كل جانب، وكان من يريد لأبقاره أن ترعى رعيا طبيعيا، أجبرها لتعبر إلى تلك الجزيرة، وكانت في الجزيرة الكثير من الخنازير والذئاب، ولكن الخنازير والذئاب لا تؤذي البقر، أو لا تستطيع إيذاءه، لأن البقر بقرونه، عكس الغنم، قادر على الدفاع عن نفسه.. وهناك كنت أقود الأبقار العائدة لنا إلى الشاطئ المقابل للجزيرة، ويفعل مثلي آخرون، وكنا نحيطها من كل جانب جماعيا حتى نجبرها على عبور نهر دجلة إلى هناك، وعندما يعاند البقر، كنا نركب فوقه حين يكون الماء ضحلا، ونجبره على العبور، ويكفي أن تبدأ هذا بقرة واحدة حتى يتبعها باقي البقر مسرعا خلفها، وكانت الأبقار التي تحرن وتمتنع عن العبور هي الأبقار التي لها عجول صغيرة تتركها خلفها في بيوت أصحابها، وأسبقها في العودة عندما تعود.

كنا نسبح في دجلة بعد أن يعبر البقر، وفي أحيان كثيرة كنا نعبر معه إلى هناك، ونتجول في الجزيرة، وإذا ظفرنا بخيول هناك (أشبعناها) عدوا ونحن عراة فوق ظهورها، ومن غير سرج أو لجام، ولا حتى (رشمة)، وإنما نمسك بها من (معارفها) الأعراف لنتوازن فوق ظهورها، عندما نغير بها، ولا نتوقف إلا بعد أن تتعب، وما دمنا نتحدث عن الخنازير على مقربة من الفتحة، أستذكر أن والدتي قد روت لي كيف اعترض والدي السيد حسين، رحمه الله، خنزير، وكيف حمل عليه بفأس أو عصا، وعندما حاصره في أحد سفوح جبل حمرين، وفي أحد المسالك الضيقة بين الصخور، وقريبا من الماء، وسدّ عليه المسلك وضايقه، هجم الخنزير على والدي و (نجله) نطحه برأسه حتى رفعه عن الأرض أكثر من متر، وعندما وقع على الأرض لم يصب بأذى جدي، ولكن الخنزير خلص نفسه منه.

****

في أحد الأيام، تمددنا على الرمل الحار قرب الشاطئ، وكان (سلطة) معنا، وسلطة هو ابن عم والدتي، وكان يخطب بأصبعه، ويحفر على الرمل خطوطا لم أعرف لها تفسيرا، وعندما سألته عنها، أجابني هذا رقم واحد.. وهذا اثنان.. وذاك الحرف دال.. وهذا الحرف زاي.. وهذا اسمي (سلطة).. وعندما سألته:

- أين تعلمت هذا؟

كان يقول:

- تعلمته في المدرسة.

- وهل تقبلني مدرستكم تلميذا فيها؟

- نعم.

كان سلطة وفق ما أشرت أبن عمر، عم والدتي، وكان قد حضر إلى قرية شويش في تلك السنة إلى شقيقته شمسة، التي كانت قد تزوجت فيها، وكان سلطة يسكن أساس في بنت النهر مع عائلته، وجاءت زيارته لأخته في العطلة الصيفية ليكون وجوده هناك مؤقتا، ليعود بعد ذلك إلى بنت النهر، وقد أفضى لي بأنه سيعود إلى بنت النهر في اليوم التالي، بعد أن تعرف على رغبتي في السفر معه إلى بنت النهر لأدرس هناك...

كان قراري في هذا نهائيا، ومن غير أن أسأل أحدا ابتداء، وكان سلطة بنفس عمري تماما، وربما الفارق أيام أو أسابيع، وقد دخل المدرسة ضمن العمر الطبيعي، ولكنه رسب في الصف الثاني الابتدائي في تلك السنة التي جاء فيها إلى شويش، إذن، مضت على دخوله المدرسة سنتان، وإذا كان قد دخلها في السابعة، كان عمره تسع سنوات حينها، وإذا كان قد دخلها في الثامنة من عمره، كان عمره آنذاك عشر سنوات.. وعلى هاذ أقدر أن عمري كان عشر سنوات، أو تسع سنوات وخمسة أشهر، إذا حسبن الولادة في نيسان..

طرحت فكرة الدراسة على والدتي، وكانت رغبتها أن أدرس، ولكن عندما طرحت الفكرة على عمي إبراهيم، رفضها من أساسها، ولعن الدراسة ومن يدرس، ولم يسمح لوالدتي أو لي بأن نناقشه،

وعندما وجدت أنني بانتظار إقناع عمي كمن ينتظر أن تفوت الفرصة عليه، اتخذت قراري النهائي من غير أن أبوح به حتى لأمي.. وتظاهرت بالنوم، وكنت أنام تحت لحاف أو (شف) واحد، أنا وأخواتي الثلاث الصغار، حيث تنام أمي على أقصى طرف الفراش، وأنام على الطرف المقابل الآخر، ونحصر الأطفال بيننا، لكي لا (يتكشفوا) ويمرضوا بعد أن يرفسوا الغطاء.. كنا في أيلول، وهواء ليل أيلول عليل وطيب، وبخاصة في تلك المناطق، بل حتى لو كنا في بنت النهر ورمز القرى، فإن هواء ليالي أيلول جميل وعليل..

كان عمي ينام قربنا على فراش منفصل ويتدثر بشف، وكان النوم يغالبني مع كل نسمة، ولكنني انتصرت عليه ببقائي يقظا، فما أعسر من أن يقاوم النعاس في إحدى ليالي أيلول من هو بعمري، بعد أن تنهكه السباحة وتلفحه حرارة الشمس في ظهيرة يومه ذاك! حيث كنت أنا وسلطة وآخرون نسبح في بنت النهر، وكنت أغلبهم، عدا واحدا، ربما زاد عمره قليلا عن عمري، وكان يسبح سريعا نظرا لقصر يديه المتناسب مع طول جسمه، حيث كان يضرب بهما الماء سريعا، ويرتد بهما ليقوم بذلك مرة أخرى، وعلى هذا فقد كنت أجهد نفسي، وأحاذر في أغلب الأحيان، لكي لا يغلبني في السباحة، ولكن في ركوب الخيل لم يكن أحد يغلبني..

أقول تظاهرت بأنني خلدت إلى النوم في تلك الليلة.. وكنت أحضرت قربي عصا جديدة، بعد أن قررت أن أذهب إلى بنت النهر، ولكن لم يلفت انتباه والدتي أو عمي، أي يضع القروي عصا أو سلاحا في متناول يده، لأن هذا من الأمور المألوفة، ولعل من لا يقوم بهذا ولا ينتبه إليه كان يذم، مثل من يطلق ذيل ثوبه، ويسحبه وراءه على الأرض من غير أن يتحزم.. وكان عمي يذم همام على إهماله ذلك، وعليه كان وضع عصا قرب فراشي لتكون في متناول يدي لا يلفت الانتباه، وكنت رصدت مكان ثوبي الأفضل، وحددته داخل البيت قبل أن يسود الظلام، وقبل أن آوي إلى الفراش، ولكنني لم أستطع أن أتناول طعام العشاء في تلك الليلة انزعاجا من عمي، لأنه لم يوافقني على فكرتي حول الدراسة..

كانت الساعات تمر ثقيلة، من غير أن نعرف توقيت الساعة، لأن أحدا من العائلة لم يكن يملك ساعة، بل كان كل أهل شويش لا يملكون ساعة.. وكان النعاس يغالبني.. وكنت أتغلب عليه قبل أن يغلبني أو يصرعني، وكنت عندما أضعف جزئيا أمامه، وقبل أن يتمكن مني، أقول في نفسي: إن دخول المدرسة فرصة العمر بالنسبة لي، وكادت المدرسة، وفق ما قال سلطة فيما بعد، ترفض تسجيل طلاب جدد فيها.. وكانت هذه المدرسة هي المدرسة الأولية في الحارّة.

بقيت مستيقظا حتى تأكدت من أن كل من هم حولي نيام.. وانسللت خارج الفراش، والتقطت عصاي، واستدرت لأكون خلف ظهر عمي من جهة الغرفة التي فيها ثوبي (دشداشتي) لكي لا أكون قبالة وجهه، وبعد أن أخرجت ثوبي، ووضعته تحت إبطي، سرت مبتعدا عن المكان، وعندما كنت في الفراش، وقبل أن أنهض، هممت بأن أقبّل أخواتي الصغيرات، أو في الأقل من كانت منهن ملاصقة لي في المنام، ولكنني منعت نفسي لأن ذلك قد يوقظ الأطفال، ويفسد عليّ مشروعي..

اتجهت ناحية الفتحة بعد منتصف ليل ذلك اليوم من أيلول عام 1947 وهو العام الذي دخلت فيه المدرسة.. كنت أسير في الليل مع احتمالاته ومخاطره الكثيرة، ولكنني تدربت على ذلك من قبل، عندما كنت في حويجة التأميم، بل ما كان أي شيء يهمني، ولا أي مفاجأة تواجهني، وإنما أن تنجح

خطتي، والأهم أن لا يحس عمي، ولا يتفقد مكاني قبل طلوع الشمس، ويتبعني لو خمن اتجاهي، فيمنعني من تنفيذ فكرتي..

كان عواء الذئاب وبنات آوى يسمع من أكثر من مكان، وكنت أجلس على الأرض القرفصاء، أو أمتد على الأرض، وانظر حولي من حين إلى آخر، لكي أتبين ما إذا كان أي منها صار قربي لأتهيأ له.. وكن أحمل، بالإضافة إلى العصا، حصاة قادرة على أن تؤذي لو أصابت، كرديف لمواجهة عدو قبل أن ألتحم معه بالعصا.. كنت أفعل ذلك، ثم أنهض لأواصل سير.. و(مع رفع الإبريق) مثلما يقول الفالحون، أي مع الوضوء لصلاة الفجر، أو قبل أن يتبين المرء ما إذا كان يراه ذئبا أو كلبا.. وفي كل الأحوال قبل طلوع الشمس، وصلت الفتحة، وهناك، كان علي وكامل، وهما ابنا عمي، يعملان رئيسي حراس لمن يحرسون المنطقة.. وكان كلاهما شاب وسيم، يرتدي ثيابا أنيقة ونظيفة بسبب ما يدره عليهما راتباهما، وكان كل منهما ذا معشر حلو..

كان علي أشقر، ذا عينين صفراوين، تداخلهما خضرة بسطة كلون عيني.. وكان كامل أسمر، أقرب إلى اللون الحنطي، مبتعدا عن السواد..

اندهش علي وكامل لوجودي في هذه الساعة المبكرة، وللمسافة التي قطعتها مشيا وسط المخاطر، من غير أن يكون عمي أو همام معي.. وعندما عرفا هدفي، كان سرورهما كبيرا بقراري، لأن كليهما كان قد سجل في المدرسة من قبل، ولكنه لم يصمد فيها، ولم يحث نفسه ليكون جديا فتركها، أو أن حاجة أهلهما إليهما ليكونا إلى جانبهم في العمل ضيّع عليهما فرصة المدرسة، مثلما ضاعت على همام، وكان حرمانهما من المدرسة، أو تقصيرهما الذي حرمهما منها، جعلهما يندمان عندما كبرا وصارا يدركان قيمة المدرسة (ولات ساعة مندم).. إن هذا الشعور، وحبهما لي، مثلما هو نفس شعور كل أعمامي وأخوالي، جعلهما يفرحان بقراري ويشجعانني عليه، وبعد أن عرفت ذلك، قلت لهما: علينا أن نعمل على الفكرة بسرعة، وأهم شيء فيها أن أبتعد عن منطقة الفتحة، لأضمن عدم مجيء عمي في إثري بعد ساعات، فيحرمني من قراري.. لذلك قلت لهما: اعملا جهديكما لأكون في أقرب سيارة للشركة تذهب إلى البيجي.. وقد فعلا ذلك فعلا، بعد أن تناولت وجبة إفطار سريعة عندهما، وأهداني علي مسدسا كان يسميه (صميط)، وأظن أنه كان يقصد أنه نوع (سميث).. ولكنه كان مسدسا قديما، أهداني إياه مع عدد من الرصاصات، بعد أن دربني عليه من غير أن أطلق رصاصة منه..

أوصلتني السيارة مع من كان فيها من العمال إلى البيجي ومن هناك من وسط البيجي، حيث سوقها المتواضعة، ودورها المبنية من الطين، ذهبت إلى حيث بيت خالتي التي تزوجت ابن خالتها الذي كان يعمل هناك على ما قلنا سابقا،.. وأمر طبيعي أن تفرح خالتي هيلة بي، وبعد أن أجبتها عن استفساراتها عن والدتي، وعرفت أنني جئت لألتحق بالمدرسة، حيث بيت خالي مال الله في بنت النهر، فرحت كثيرا أيضا.. لأن كثرا من أبناء المدن حتى الصغيرة صاروا يعرفون قيمة المدرسة بعد العام 1940، ولو بصورة نسبية، ولكن ليس كثرا هم الذين ينتسبون إليها، ونادرا ما ينتسب إليها أحد من أهل الريف..

بدأ أخوالنا وخالاتنا من فرع عشيرة العزة في البيجي، أبناء وبنات صالح، أبي حليمة، وأزواجهن، يتوافدون على بيت خالتي هيلة، ليسألوا عن والدتي صبحة، ويرحبوا بي.. كانوا جميعا يحبون والدتي، ويحبونني، ويحبون والدي من قبل، ويقدرون عمي إبراهيم، لذلك عندما كانوا يتوافدون على

بيت خالتي هيلة، كانوا كلهم شوق للالتقاء بي، وتوزيع القبلات على خدي وجبيني، ومن الصدف أن يكون عمر بنت خالتي البكر قريبا من عمري، وكان والدها، قبل ولادة عابدة، قد قال أنه (يعطي) فوزية لصالح لو اتفقا.. ولكن هواي كان هناك، حيث بيت خالي، ووفق ما ركزت والدتي في ذهني..

في اليوم نفسه، ومن غير انتظار لليوم التالي، وفق ما أعلنت خالتي رغبتها هي وزوجها وأولادها بخلاف تلك الرغبة، سافرت إلى بنت النهر في سيارة (باص)، بعد أن دفع زوج خالتي هيلة الأجرة بدلا عني..

ركبت السيارة المتجهة إلى بنت النهر بعد الضياء الأول، وبدأت السيارة حركتها، وكان الطريق ترابيا، ولكن مرور السيارات عليه جعله وفق قياسات ذلك الزمان صالحا لمرور العجلات.. كانت الأتربة تدخل على الركاب من كل جانب من خلال فتحات وجد الهواء منها سبيله، وهل يمكن أن يمنع الهواء من دخول سيارة قديمة بهذا الوصف، وفي طريق هذا وصفه؟ كانت مفاصل السيارة، بما في ذلك مفاصل أبوابها، ترسل أصواتا متنوعة، يمكن أن تصفها بأنها أنين تارة، وأصوات أمعاء فلاح جائع تارة أخرى، وما أقل من يكون شبعانا في تلك الظروف! أو كأنها جراء أو قطط صغيرة تستعجل أمها لترضع، بعد أن تأخرت عن توقيتها انشغالا بما شغلها، أو أي نوع من الأصوات التي يمكن أن يتصورها من يطلق لخياله العنان، على جدول مقارنة حول ما يمكن أن يتذكره من أصوات، بما في ذلك أن يتصور أنها موسيقى صاخبة، جريا على ما يمكن أن يسمع الآن من الإذاعات الأمريكية أو المتأمركة!!

وكانت السيارة تهبط وترتفع مع طيات الأرض، وعندما تهبط بعد ارتفاع، كانت كأنها تسحب قلوبنا إلى الأسفل بخيط خفي، ولكننا، أو لأقل عن نفسي، وأترك ما يمكن أن أرصده عن الآخرين، كنت مسرورا، ذلك لأنني أركب السيارة ثاني مرة، بعد أن ركبتها من الفتحة إلى البيجي، والآن إلى بنت النهر، ولا أتذكر أنني ركبتها قبل ذلك التاريخ، وإنما ركبت القطار عندما سافرنا إلى بغداد برفقة خالي، وعندما عدت إلى بنت النهر برفقة والدتي والعم إبراهيم.. إذن كنت مسرورا بالسيارة وعالمها، وكنت مسرورا لأنني وضعت البيجي خلف ظهري، ومع حركة السيارة وابتعادها عن البيجي، صار الأمل مستقرا في نفسي بأنني سأكون أحد تلاميذ الصف الأول الابتدائي، وينتهي أي احتمال لأن يغير عمي إبراهيم هذا..

وصلت سوق المدينة، لكنني لم أستدل على بيت خالي من سوق المدينة، لأنني لم أسلك طريق السوق إليه، ولم أشأ أن أسأل أحدا ليدلني على بيت خالي، ولكنني كنت أتذكر الطريق الذي كنا، قبل أن نبحر في دجلة متجهين إلى الحويجة، نسلكه من السوق إلى مكان سكننا القديم في محلة الحارة، وكنت أعرف الطريق إلى بيت خالي القديم الذي انتقلوا منه إلى بيتهم الذي هم فيه الآن، وكانوا عندما انتقلوا إلى هناك، ساعدتهم في تحويل محتويات الدار بأن حملت (تختة) الحمام معهم إلى هناك، لذلك بقيت صورة البيت والطريق إليه مرسومين في ذاكرتي.. وهكذا بدلا من أن أسأل عن بيت خالي، وهو معروف في المدينة، أو أتجه إليه مباشرة على التخمين، كأنني في هذا أخبط خبط عشواء، اتجهت إلى بيت خالي القديم، ومن هناك تصورت حركتي وأنا أحمل (التختة)، حين انتقلوا إلى بيتهم الذي أقصده الآن، عندما كنت صغيرا قبل سفرنا من شاطئ بنت النهر إلى الحويجة، وعقبت الطريق على ما انطبع في ذهني من صورة له من قبل.. ابتدأته من بيت الحاج طالب، أبي رديف.. وتوغلت فيه كأنني اتجه غربا، ثم انعطفت إلى اليمين، وبعد ذلك مشيت باستقامة الطريق، وقبل نهاية استقامته، كان بيت أول

موظف صحي في تكريت على يساري، وهو بيت إبراهيم (أبو جغدة) الذي كان يكنى (همّي)، فانعطفت بعده إلى اليسار ومشيت بضع خطوات، وفي ملتقى الطريق الذي ينحدر إلى النقطة التي كنت فيها من علو، من اتجاه الغرب، قبل أن انعطف إلى اليمين، وكنت في تلك النقطة عند ملتقى ثلاثة شوارع، أو قل أزقة، هناك تجمع عدد من الصبية حولي مبهوتين من منظر (عغبي زغيغ) ويقصدون (عربي زغير)، أي صغير، وغالبا ما يطلق أهل المدينة على كل الفلاحين والبداة خارج مدينة تكريت كلمة وصفة (عغبي) عربي صغير، أو زغير.. ومن أهل مدينة بنت النهر ومن ذكرانا علاقات غالبا ما يشوبها عدم الارتياح، ذلك لان أهل بنت النهر يعتبرون أنفسهم أرقى تصورا وتصرفا من (العغب).. وأن أهل المدينة عانوا من هجمات أهل الريف والبداة على المدينة، في محاولة منهم لينهبوها، حيثما وجدوا فرصتهم على المدينة، ومع أن هذه الصور اختفت تماما منذ ان صار أمير المدينة عمر الكبير، وهو جدنا من السادة الحسينيين، ومن بعده المتوسط أو الوسط، ثم الصغير، فإن أهل المدينة، ظلوا جيلا عن جيل، يحملون ويرثون حالة الاشمئزاز منهم أحيانا، وكأن ما لاقوه من أجداد أولئك مع نوع من التعالي الذي يحمله أهل مدينة عمرها أربعة آلاف سنة، على أهل الريف على ا لحال الذي وصفنا جزءا يسيرا منه..

نعود لنقول إن الصبيان الذين تجمعوا حوالي همّوا أن يتحرشوا بي بعد أن وجدوا (عغبي زغيغ) يحمل مسدسا ويمشي حافيا.. ومع أن قلة ممن هم بهذا العمر من أبناء المدينة كانوا يلبسون حذاء، فإن المهم الذي لفت انتباههم لهذا العمر أنني كنت أحمل مسدسا، في وقت ربما لم يكن في المدينة كلها آنذاك عشرة مسدسات.. ومن أجل أن أبسط سطوتي عليهم، وأعلمهم احترام قدر (الرجال)، سحبت مسدسي من قرابه، و(هوّمت) به باتجاههم، بل قبل أن (أهوّم) به باتجاههم، صار كبيرهم يعثر بصغيرهم، وبعد أن ارتمى من ارتمى على الأرض، نهضوا وهم يصرخون مذعورين، تاركين المكان لي وحدي، وواصلت مسيري منعطفا إلى اليمين، معقبا الطريق، وتركت بيت حسان والفرع الذي يأتي من بيت أمين المكسّر إلى اليسار، وبيت علّو على اليمين، وانحدرت مع الطريق، وتركت الفرع الذي يأتي من بيت كاظم الغثيث من اليمين، وكلما انحدرت مع الطريق صارت الأرض التي أتركها أعلى من الأرض التي أتجه إليها، وما إن وصلت إلى تقاطع طريقين حتى استدرت إلى اليسار، وكان بيت خالي ثاني بيت على اليسار، يقابله بيت عمر الطوكان من الجهة اليمنى، مع انحراف بابه عن باب بيت خالي، ويلاصق بيت عمر الطوكان بيت حميدي العبطة.. وكانت ملكية بيت خالي تعود أساسا إلى كامل عبد الباقي، ويسمى كامل الريس، لأنه رئيس بلدية المدينة، أو بالأحرى بيت والده عبد الباقي، وورثه أولاده وبناته عنه.. وكان على من يريد أ ن يطرق باب هذا البيت أن يصعد ثلاث درجات على مستوى سطح الشارع، وكان بالقياس إلى البيوت الأخرى يعتبر بيتا منتظما، وفي كل الأحوال لا تدخله مياه الأمطار مهما هطلت، بسبب ارتفاع أرضيته عن الشارع.. لم أطرق الباب، ذلك لأنني وجدته غير مقفل، وإن كان يقترب من أن ينسد، لأن صفحة الباب المتحركة لم تترك إلا فتحة بسيطة بين الصفحة الثابتة والمتحركة..

دخلت ممر الباب وما إن لاحظت أن الديوانية تقع على يسار الممر بالنسبة للدخول، وأن بابها أمام باب (الحوش) الرئيس، ومن يريد أن يصعد إليها عليه أن يرتقي درجتين عن مستوى سطح الممر حتى لم يبق لديّ أي شك بأنه بيت خالي، وبخاصة عندما تطابقت صورتان من الصور التي احتفظت بها مطبوعة في ذاكرتي، صورة المدخل الرئيس في الطريق، وصورة الديوانية التي ما إن فتحت

الباب الخارجي للدار حتى صارت أمامي هي وبابها، وما إن ولجت الممر القصير وقبل أن أطل على الجالسين على الأرض عند مدخل غرفة المعيشة الكبيرة، في ظل جدرانها، صاح أحدهم:

- من في الباب؟

وقبل أن أجيب صرت أمامهم، وركضت خالتي وجدتي وخالي لطيف باتجاهي، واتجه خالي مال الله بأثرهم يمشي.. وكان منظرا يصعب عليّ وصفه.. إذ تدفقت العواطف كأنها شلال امتلأ عمقه بالماء، بعد أن احتبس، ثم رفع عنه باب الاحتباس فجأة، واختلطت الدموع بكل هذا، حتى لو وضعت هذه الصورة بشكل صامت أمام من يراها، قد يختلط عليه ما إذا كانت صورة حزن أم صورة فرح، ومن اختلاط الصورتين على من يراقب الدموع يجعله يتأكد من أن الحزن هو النتيجة المؤكدة، ولكن من يحاول أن يستدل على المعنى من مظاهر أخرى غير الدموع، فإن استنتاجه قد يكون حاسما بأنها صورة فرح.. وقبلّني خالي ما الله، ولكن عابدة وعدنان ظلا جالسين.. كانت عابدة ناجحة من الثاني الابتدائي.. وكان عدنان ناجحا من الأول الابتدائي حتى ذلك اليوم من أيلول..

فرح خالي مال الله وجدتي وكل خالاتي بقراري، وأطروا عليه، وقالوا جميعا: لو لم تتخذ هذا القرار وتأتي إلينا ما كان إبراهيم سيقوله..

- إن الزمن الجديد يحتاج لمن يدرس، لا لمن يفلح فحسب.. قال خالي، وكلف عبد اللطيف وجدتي بمتابعة تسجيلي في المدرسة وإجراء كل ما يلزم لذلك..

وجد خالي عبد اللطيف كأنني أخ صغير له، وفرح بوجودي مع فارق العمر بيني وبينه..

ورغم أن عابدة وعدنان، وخاصة عابدة، كانا منكمشين إزائي بعض الشيء، لأنهما يلتقيان بي لأول مرة، ولأنهما تركا والدتهما في بغداد، وجاءا إلى بنت النهر في بيت أبيهما، فقد كانا حريصين على أن لا ينافسهما أحد على أبيهما وعلى العائلة كلها.. ولكننا مع الزمن تعايشنا، وكان عدنان أسهل في هذا، عدا خطأ واحد صغير ارتكبه تجاهي، كأنه أراد أن يتجاسر متصورا خطأ أن أهل بغداد أقدر في العراك، فوضعت حدا له، وعندما توالت الأيام، ازدادت محبة عدنان لي، مثلما ازدادت محبتي له، ثم تعايشت عابدة معي هي الأخرى، عدا خطأ واحد ارتكبته، حينما كانت خالاتي وعابدة في بيت خالتي ليلى التي كانت تجاورهم، ولا أعرف لأي شيء أو سبب أنشبت أظافرها في وجهي ورقبتي، ولكنني لم أضربها أو أدفعها، وإنما بكيت بحرقة، وأنا انتحي جانبا لوحدي، وقد تألمت خالاتي لأنهن رأين المنظر، ليس على ما قامت به عابدة، وإنما على الطريقة الراقية التي تصرفت بها، وكأن رجلا مؤدبا تصرف بلطف ومستوى عالٍ من معاني الرجولة إزاء تصرف امرأة ارتكبت حماقة.. ولم أمنعها من أن تنال مني، ولم أحجزها عني، ولم أضربها، وكانت خالاتي يعرفن أنني قادر على ذلك، بل ربما كانت عابدة نفسها تعرف ذلك، مع أن عمرها كان بحدود الثامنة أو بعد الثامنة بقليل.. لا شك أن عابدة لم تكن تعرف أن جدي أعطاني إياها، وأن عطية الجد لا ترد.. إن خالي لا يمكن أن يحكي بذلك، ولا يمكن أن يسمح لأحد بأن يحكي به أمامه وأمام عابدة، وهذه هي عادة الرجال، بل إنها عادة والدتي أيضا وخالاتي وجدتي.. كانوا يستنكرون أن يتحدث أحد أمام (الجهال)، ويقصدون الأطفال، عن الزواج وما يتصل به، لأنهم يظنون، وظنهم صحيح، بأن الحديث أمام بنت عن شيء من هذا القبيل يقوّي عين البنت، أي

يقوّي رغبتها به، وعدم مطاوعة ولي أمرها في ما هو بخلاف رغبتها، بما في ذلك حتى لو كانت رغبتها خطأ..

لم تكن عابدة تعرف ذلك لأن أحدا لا يمكن أن يحكي لها عنه، وربما ما كانت لؤلؤ، بعد أن انفصلت عن خالي مال الله، ترغب في أن تسمعه عابدة، بينما حكت لي والدتي كل ذلك كأنها تهيئني له، ولأنني كنت أعرف، عليّ أن أتحمل، لذلك عندما بكيت بمرارة، فإنما كان ذلك ليس من ألم جراح أصابتني بها عابدة في رقبتي وفي وجهي، وليس لأنني لم أرد عليها رغم أنني كنت وما زلت أتألم من أي اعتداء يقع عليّ، أو يقع على من يتوجب أن أرد عنه الاعتداء، ولم تتهيأ لي فرصه عليه.. لا ليس من أي من هذه الأمور، بل لأنني أحب عابدة أساسا.. ولأنها تصرفت بما هو عكس ذلك..

حزنت لأن عابدة لم تعرف ما قرره جدي، ولم تكن تعرف أنني أحبها. ذلك لأن والدتي زرعت هذا في خلفية تفكيري.. ولذلك مع أن والد فوزية وخالتي هيلة (أعطياني) فوزية، لكن هواي لم يكن عندها، وإنما عند عابدة، رغم أنني لم أكن قد رأيت عابدة من قبل بعمر يجعلني، قبل مجيئي إلى بنت النهر، قادرا على أن أتذكر ملامحها.. وحاولت جهدي أن أخفف من ثورة خالاتي وجدتي فيما بعد عندما علمت بذلك، ورغم أن عابدة (أكلت راشدي) من إحدى خالاتي، وأعتقد أنه مأخوذ مما يرشد أو (علقة) وفق المسمى المصري، وبكت، ولكن بكاء عابدة لم يكن كبكائي.. إنها بكت لأنها عنفّت على فعلها، أما أنا فعلى شيء آخر.. وعندما حاولت جدتي أن توجه لها ضربة، (حجزت) عنها، وقبلت يد جدتي متوسلا لكي لا تفعل ذلك.. وتوسلت إلى الجميع، عندما عرفت بنية بعضهم، أن لا يشكون عابدة عند خالي.. وكررت و ألححت على خالتي الصغيرة بدرة ورجوتها أن لا تفعل ذلك..

الجزء الحادي عش

سارت الأمور بعد ذلك سيرا اعتياديا.. ودخلت المدرسة في الصف الأول الابتدائي في المدرسة الأولية الابتدائية.. في جانب الحارّة، وكنت أتنافس أنا وطالب اسمه (حميد) على من يحوز المرتبة الأولى في تلك المنافسة.. وكان لحميد أخ اسمه مجيد، أقرع، بالكاد نتحمل الجلوس معه في الصف، بسبب الرائحة ومنظر التقرحات المنتشرة في رأسه، وكان مجيد بسبب هذا، وربما لأسباب رديفة أخرى، لا يهيئ واجباته، ومع أنه أصغر منا سنا، ربما كان عمر مجيد ثماني سنوات أو سبعا، في الوقت الذي كنا أنا وحميد بعمر متقارب، كانت المنافسة بيني وبين حميد تفضي ألن نكون كلانا أولا وأولا مكررا، وكنا نتناوب على هذا في المدرسة الابتدائية الأولية.

وفي المدرسة، لبست (لباسا) سروالا داخليا لأول مرة، بعد أن هجرته منذ غادرت بغداد، ورغم أن السروال الداخلي يبدو وكأنه يخنق من لم يعتد عليه، مثلما قال خال أحدهم من الفرات الأوسط لابن أخته جوابا على سؤاله: لماذا لا تلبس (لباسا) داخليا؟ ولكنني كنت مسرورا به باعتباره كساء إضافيا إلى ما كنت قد اعتدت على ارتدائه..

وفي درس الرياضة، كنا نخلع (دشاديشنا) ونبقى (بالفانيلة واللباس)، وأمر طبيعي أن نقول أن (اللباس) الداخلي كان لكل الأغراض، أو على الأقل لأغراضه العامة المعروفة، ولكنه نفسه، وليس غيره، للرياضة أيضا.. وكان بعض الطلاب لا يشاركون في درس الرياضة ليس لأنهم لا يحبونه، أو لا يقدرون على فعالياته، وإنما لأنهم لا يملكون (لباسا) داخليا يظهرون به في الساحة وفق ما كان مدرس الرياضة عبد الرزاق الكميت يصر.. ومن الطبيعي أن أتفوق في درس الرياضة مثلما تفوقت في الدروس الأخرى.. أليست حياة الفلاحين وأبنائهم معدة لأعلى مراحل التحمل البدني!؟ ولم تكن الرياضة على عهدنا إلا نوعا من الإعداد والتحمل البدني، ومع أن حميد كان ابن المدينة المتصلة حياة وشؤونا أخرى بالريف، فإنه وأبناء المدينة غالبا ما كانوا يمشون حفاة بعد انتهاء الدوام في المدرسة، ولكنه كان بدنيا، وكان أقل نشاطا مني بكثير، حتى أنه عندما كان يركض، كانت تفاصيل كثيرة من جسمه تهتز كأنها تحاول أن تنعزل عن جسمه، ولكنني كنت رشيقا، ومع أنني كنت أغبطه على جسمه الريان، فإنني كنت أتفوق عليه، ولكن مدرس الرياضة يعرف المنافسة بيني وبين حميد، ويعرف بأنه لو (كسره) بدرس الرياضة، سيقلل اندفاعه في الدروس الأخرى، وسأكون وحدي دون منافس، لذلك كان لا يكسر درجته، ولم أحتج، أو أعترض، أو أتململ من هذا، لأن حميد كان مثلي في الدروس الأخرى كثير الاهتمام والاستيعاب، وقد تتصورون أن سمنة حميد النسبية بالقياس إليّ وإلى آخرين متأتية من قدرة أهله المالية، لا.. إنني آكل أفضل منه، وألبس أفضل منه، ولكنه كان يأكل الكثير من الخبز والبصل، أو الشاي والخبز وحده، وهي وجبة الإفطار السياقية.. وكانت طبيعة جسمه تختف، بينما طبيعة جسم شقيقه مجيد غير هذا، كان مجيد أبيض، مائلا إلى اللون الأحمر، وكان رشيقا، مع ما ذكرنا عن حال رأسه..

وكان شاكر معنا في الصف الثاني، بعد نجاحنا إليه أنا وحميد، وكان شاكر راسبا في نفس الصف، ربما أكثر من سنة، وكان كسولا، على قياس المقارنة بين الشاطر والكسول آنذاك، ولا أظنه أكمل السادس الابتدائي، وكان يحاول أن يداري حاله بأن يكتب أرقاما ما ويكررها عدة مرات في دفتره، وإذا ما طلبت منه إعداد واجب كتابة بعض الكلمات التي يعرفها مكررة، أو بعض الأرقام بعينها، أحسن كتابتها، ولا شيء غير هذا..

وكان ابن عمي أمي، سلطة، يقصّر في الواجبات المدرسية، ولكنه لم يكن بمستوى شاكر دبنة، بل لعل الذين بمستوى شاكر قلة..

كان شاكر يجلس إلى جانبي على رحلة واحدة، لأنه طويل وأنا طويل نسبيا أيضا، ولكن كان بيني وبين شاكر فارق عمر لا يقل عن ثلاث سنين.. وكان شاكر جيدا في درس الرياضة فقط، ولا شيء آخر، حتى افترقنا، لأنني صعدت إلى الصف الجديد، وبقي هو ضمن صفه، وأعتقد أن هذا حصل في الصف الثاني الابتدائي..

كان التقليد أن من يقصر في واجباته المدرسية، ويكرر التقصير، يخرج إلى الساحة أمام الطلاب، بعد أن يصيح باسمه مدير المدرسة، ويجلده بعصا على يديه الواحدة بعد الأخرى بالتناوب، وعندما يكون المدير بحالة عصبية يضربهم (فلقة) على أرجلهم، والفلقة تعني أن يرفع فراشان من فراشي المدرسة الطالب متعاونين، بعد أن يكون قد خلع نعاله، أو حذاءه، ويجلد على أسفل رجليه بالتناوب كل وفق

استحقاق ما قرره له المدير أو المعلم المختص.. ومع أن سلطة كان يجلد بقسوة على كفي يديه، فإنه كان يتحمل بجلد ثقل العصي، ولا يفعل مثلما يفعل آخرون، بأن يتأخروا في مد اليد، أو أن يمدوا أيديهم ويسحقونها عندما يهوي عليهم المعلم أو المدير بالعصا، فتأتي الضربة في الهواء أو شيء من هذا، ومن الطبيعي أن نقول أن أساليب الطلاب تلك لم تكن تجدي نفعا، بل قد (يتعصب) المعلم أو المدير أحيانا، فيضربان بالعصا الظهور، أو حتى الرؤوس بدلا من الأيدي..

كان سلطة مثلما قلنا يتحمل الجلد، إلا مرة واحدة بكى بعد الجلد بحرقة، وهو يهمهم بكلام لم أعرف معناه، وهو يعاود الانضمام حيث مكانه في (الاصطفاف).. ولقد تألمت له، مثلما كنت أتألم لغيره من التلاميذ، وإن لم يكن بالدرجة التي تألمت بها على سلطة.

****

في عام 1948، كنا في الصف الثاني الابتدائي، وكان معلم الرياضة عبد الرزاق يشرح لنا على السبورة كيف هاجمت الجيوش العربية الكيان الصهيوني وطوقته من كل اتجاه، وما هي إلا أيام حتى ينتصر العرب ويندحر اليهود مثلما قال... ولكن اليهود في الكيان الصهيوني لم يندحروا بعد أكثر من خمسين سنة على قوله ذاك، وان العرب انتصروا في ميادين أخرى، كل تحت المسمى المناسب وفق معركته، إلا أن الفلسطينيين سينتصرون، وسينتصر العرب، إن شاء الله في منازلة الصراع العربي الصهيوني.. وبعد أ، شرح لنا عبد الرزاق خطة العرب، وفق ما تصورها من مصادر الإعلام آنذاك، خرجنا إلى الساحة، كل طلاب المدرسة، واخرجوا (رحلة) واحدة، وقف عليها المدير وألقى كلمة حماسية.

كان المدير متحمسا وهو يلقي (خطابه)، ولكنه لم يكمله، حيث أغمي عليه من وطأة إحساسه بقيمة الحدث، ومن شدة حماسه وهو يلقي الخطاب.. ودعا خالي ومع من المثقفين الشباب للتطوع، وأعلنوا أن التطوع لمن يزيد عمره عن الثمانية عشر عاما، وقد تبرع خالي لواحد من المتطوعين ببندقية، إذ كان من شروط التطوع أن يحمل المتطوع بندقية على حسابه، لأن الحكومة لا تتمكن من تزويد المتطوعين بالبنادق.. وقد حمل أهل المدينة المتطوعين على الأعناق، ولكن هل يمهل الملوك والرؤساء العرب من يتطوع في عمق الوطن العربي ليأتي إلى فلسطين؟ لقد استجابوا لضغط الاستعمار الغربي، وأوقفوا هجوم العرب على اليهود.. وكان جيش العراق يقاتل آنذاك على حافات مدينة جنين.

عندما كنا في الصف الأول كان معلمنا (ملائيا) وليس خريج مدرسة ريفية، وكان رجلا متدينا، لكنه كان قاسيا مع بنت أخيه المتوفى.. وكانت أمها، حسبما قيل لنا في حينه، من اليمن، وكان قاسيا مع الطالب المهمل، لكنه كان يحبني ويحترمني.. وهكذا كانت علاقاتي مع كل معلمي المدرسة ومديرها.. وتقديرا من الجميع لنشاطي وتفوقي، كنت أخص بأن ألقي المحفظة التي أختارها بتحية الصباح للعلم، وبرفع العلم في صباح كل خميس، وصرت أتناوب على هذا مع صديقي صابر المهيدي فيما بعد.. وقد خبط الماء على هذه العلاقة أحد أبناء المعلمين، ومثلما تعرفون، فإن أبناء معلمي المدرسة، الذين

يدرسون في نفس المدرسة، التي تكون أمهم أو أبوهم معلمة أو معلما فيها، غالبا ما يتصرفون تصرف المدلل.. لقد كان ذاك الطالب معي في الصف الخامس الابتدائي، وبقرار من مدرس أراد أن يحابي والده، جعله مراقبا على الصف ليضبطه قبل دخول المعلم، ويصيح عند دخول المعلم: (قيام)، وبعد أن يستقر المعلم في وقفته يقول للتلاميذ: (جلوس)، وفي أحد الأيام مر مدير المدرسة من أمام باب صفنا، وكان المعلم قد تأخر في دخول الصف، وكان الطلاب في الصف يتكلمون بصوت عالٍ، وكنت أجلس على رحلتي في الخلف.. وعندما دخل المدير الصف، لاحظ عدم انضباطه، وكان قد خزن في ذاكرته أنني ما زلت مراقبا للصف، وزاد انزعاجه أكثر عندما لم يجد من يوعز للتلاميذ عند دخوله الصف بالقيام له احتراما وفق التقليد المعتمد.. حيث كرص (خنس) المراقب في رحلته، كأنه أراد، بعد أن عرف أن المدير رأى عدم انضباط الصف وهو يدخله فجأة، أن لا يظهر أنه المراقب تخلصا من التوبيخ، فصاح عليّ المدير، وهو يرتجف، ولم ينتظر مني أن أقول له أن لا دخل لي بواجب المراقبة، ورفع يده عليّ ليضربني، ولكنني منعته عن ذلك باقتدار، وخرجت من المدرسة، وبعدها لم أعد إلى المدرسة، وإنما انتقلت إلى مدرسة أخرى خارج محلتنا.. ومن الطبيعي أن أقول أن هذا لم يؤثر فيّ تجاه مديري، وبقيت فيما بعد أكرمه باحترام كلما التقيت به.. ورغم أن المدير أسف على تصرفه عندما عرف الحقيقة، ولكن هل يمكن أن يظهر المدير أسفه لطالب آنذاك!؟

كان أحد المعلمين صغير عقل وشأن، ويبدو أنه كان يكن حقدا خاصا على أعمامنا السادة كلهم، ولا أعرف سببا لذلك، مع أنني سألت أهلي عن مغزاه، لقد تفوه بكلمات لا تدل على الرصانة وعلى مستوى الحد الأدنى مما ينبغي أن يتحلى به من الناحية التربوية.. فقد قال لسلطة وهو يعاقبه على أمر لم أجد يومها أن سلطة يستحق أن يجلده ذاك المعلم بسببه.. ومع العصي التي كان يهوي بها على يدي وأصابع سلطة بكل قسوة في صباح يوم بارد، فقد بدأ كأنه ينفس عن حقد دفين.. كان يقول لسلطة:

- راح عهد أهل (الجزم الحمر) – ويقصد بهذا أجدادنا وأعمامنا، حيث كانوا ينتعلون بأرجلهم وفق ما قيل لي من قبل _ جزم جوزية).

عدا هاتين الحادثتين كانت الحياة التي قضيتها حتى أكملت الابتدائية جميلة.

****

في أحد سنوات الابتدائية حصل حادث مؤسف في العشيرة.. قتل أحد رجالها وهو في طريقه من بغداد إلى بنت النهر، قتل هو وفرسه في منطقة (سميكة) التي هي الآن قضاء الفارس على الشارع العام، وعندما تحرى أهله وعشيرته على مدى التاريخ القريب أو البعيد، عن السبب، لم يكتشفوا أن لأي من العشائر في تلك المنطقة (طلبة) معهم.. وعندما تقتل الفرس مع القتيل، فمعنى هذا أن هناك قصدا مسبقا، وأن المقصود هو راكب الفرس، وليس أمر آخر.. وبعد التحري والحوار فيما بينهم، مع أنفسهم، حامت الشبهة حول أحد رجال العشيرة من فخذ آخر.. وكان عمي إبراهيم واحدا من أبناء عمومة القتيل الأقرب إليه في العشيرة.. حاول عمي إبراهيم مع عقلاء القوم بكل الطرق أني يعينوا المشتبه به على نفسه ليطرد الشك والهواجس من عقول وصدور أعمامه أهل القتيل، ولكنهم لم يفلحوا، ولم يتعاون معهم كما ينبغي.. وكان مبعث الشك فيه أن المشتبه به كان في بغداد في الوقت

الذي كان القتيل في بغداد أيضا، وأن كلا من القتيل والمشتبه به، وهما ابنا عم ضمن العشيرة، كانا يتنافسان على شابة من العشيرة، كل يحاول أن يحظى بها ليتزوجها، ورغم أنهما كانا متزوجين، وأسماهما عبد الله ومحمد، فإن عبد الله لم ينجب، بينما أنجب محمد ولدا وبنتين، وكان مستواهما واحدا، فهما ابنا العشيرة نفسها، إلا أن حال عبد الله كان أفضل، فمع أنه متزوج مثل محمد، إلا أن عبد الله لم ينجب بينما أنجب محمد.. إذن على قياس الحسابات المجردة كان عبد الله أحق بها.. ولكن هل يعرف المحب خارج النفس أين هو الحق وأين هو الباطل دائما،و بخاصة في منافسة كهذه، ليس فيها تقليد ثابت ليقول أحدهم لنسأل الفتاة، ويكون رأيها الفصل؟ وكيف؟ ومن يضمن أن تقول الفتاة رأيها بحرية!؟ ومن الطبيعي أن نقول مما عرف عن أهل الفتاة أن أمها كانت تميل إلى تزويجها من عبد الله عندما تسأل نفسها لتقرر بمفاضلة بين اثنين كلاهما ابن عم غير مباشر، ولذلك كان هواها أن تختار من ليس له (خلفة)، ومن وضعه الاقتصادي أفضل.. وهكذا وفق ما قيل كانت الأمر ترجح تزويج ابنتها من عبد الله، ولم يظهر من أشقائها ميلا لتزويجها من محمد، لأن حالة كهذه تضع الرجال في حرج إلى الحد الذي لا يقولون رأيهم، إلا عندما يكون حاسما ويتصل بمسؤوليتهم.. وعندما لم يقتنع ذوو المقتول محمد بما قدم لهم عبد الله من مبررات، أو مسوّغات قالوا له إن الشك سيكون يقينا لدينا إذا أقدمت على زواج الفتاة التي نافست عبد الله عليها.. ولكن عبد الله أغلق منافذ تفكيره، وأقدم على الزواج من الفتاة، وبذلك صار الشك يقينا في عقول ذوي القتيل، وصارت أجواء العشيرة ملبدة بالغيوم.. وكان عمي إبراهيم لا ينام كثيرا في الليل، وهو يقلب ويداور الأمور مع نفسه، ويحاول بكل الطرق أن يهدئ أخوة القتيل، ويحاول ذلك أيضا مع المشتبه به عن طريق وسطاء ليقنع أعمامه ذوي القتيل، ولكن عبد الله كان عنيدا، ولم يكن ذا نظرة وافق بعيدين في هذا الموضوع عفي الأقل..
وكان واحدا من التطورات، التي اعتبرناها مهمة آنذاك، أن عمي إبراهيم اشترى بندقية (برنو) طويلة، وكنت مسرورا بها، وكذلك عدنان الذي كان يزور رمز القرى معي في العطل، حيث كنا بعد انتهاء الدوام، بعد ظهر كل خميس نذهب إلى رمز القرى، ولا نعود إلى بنت النهر إلا عصر يوم الجمعة.. أليس حدثا مهما أن يشتري فلاح بندقية بثلاثة وخمسين دينارا، ويشتري لها طلقات بسبعة دنانير ونصف الدينار، إضافة إلى ستة مخازن (أمشاط) من (الفشك) في عام 1951؟ لقد اشتراها عمي من أحدهم في بنت النهر، وكنت معه في الشراء، وعندما جئنا بالبندقية إلى رمز القرى.. كانت هي الوحيدة في قرية البو حسن، بل هي الوحيدة من نوعها في رمز القرى كلها، مثلما كان مسدس عمي (البرونك) هو الوحيد في هذه (العرب) من قبل ذلك..

صادف بعدها، لحاجة دول الغرب الاستعمارية إلى مزيد من القطن لتشغيل معاملهم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، أن شجعت الحكومة الفلاحين على زراعة القطن من خلال توفير البذور، وحث الإقطاعيين على إنتاج القطن.. لأن إنتاجه سيكون مجزيا لمن ينتجه.. هكذا أشاعوا، وهذا ما تولى الإقطاعيون وأصحاب المصالح إشاعته، وهكذا استفاد المرابون الذين كانوا يقرضون الفلاحين لشراء بذور القطن.. وقد زرع كل واحد من أهل رمز القرى وفق مقدرته على الزرع، وعلى أساس ما مخصص له من حصة مائية.. وقد كان إنتاجه مجزيا بالفعل، حيث صارت قيمة ما جمعه كل فلاح نشيط، إذا كانت أرضه تتجاوب مع الزراعة، خمسين دينارا، وبعضهم وصلت حصته إلى سبعين دينارا.. وبعضهم تزوج، وقد اشتروا كلهم على وجه ذلك الشتاء ثيابا للبنين والبنات والنساء والرجال دليلا على الاقتدار الإضافي الجديد، ومكافأة لدورهم في جمع المحصول، واشترى بعضهم بنادق، ومنهم غالب وأخوه الأكبر حيث اشترى كل منهما بندقية خاصة به، ومما غلظ قلبي غالب وأخيه،

شقيقي القتيل محمد، هو أنهما قالا أن زوجة عبد الله التي تزوج عليها وانفصلت عنه بعد الزواج، جاءت بالقرآن الكريم إلى بيت أحدهما، وحلفت لهم واضعة يدها على المصحف وهي تقول (إن محمد في بطن عبد الله).. وقد قتل غالب عبد الله.. وانقسمت العشيرة من (خلفة) عمر الوسط (الوسطاني) إلى قسمين. ومن هذا يمكن أن يتبين القارئ أي تصرف خطير تتصرف المرأة عندما تغضب، أو تحقد حتى ضد من يكون زوجها!!. ومنه أيضا يفهم أي نار تشب في جناحيها، بل وفي قلبها، لو تزوج عليها زوجها، بغض النظر عن المسوّغ، أو السبب بما في ذلك لو كان شرعيا!!

سجن عمي إبراهيم بتهمة التحريض مع عدد من وجوه الفخذ الذي ينتمي إليه غالب، ولم يكن لعمي إبراهيم أي دور في العملية، بما في ذلك تهمة التحريض، بل على العكس كان يدعو إلى التهدئة، ويتمنى أن تنقذ (معجزة) عبد الله بتبرئته أمام غالب وأهله.. ولكن شيئا من هذا لم يحصل..

كنت في المدرسة، وانعزل همام مع والدته في بيت يجاورنا في رمز القرى.. وكان عمي إبراهيم، على أساس حسه المكتسب، وفطنته، وربما ممن يسرب له أخبار الشرطة عندما يتهيئون لليوم التالي من أول ضياء، ليفتشوا رمز القرى بحثا عمن يقصدون إلقاء القبض عليه، وبحثا عن غالب، ورغم أن غالب سافر إلى ضواحي الموصل، لدى عائلة كريمة من عشائر شمر العربية هناك هربا من الشرطة، فإن الذريعة ظلت نفسها، وهي تفتيش المنطقة بحثا عن غالب، ولأن عمي كان يخشى أن تقع بندقيتنا وبنادق إخوته وأعمامهم في أيدي الشرطة، كان يبعث إليّ، وهو في التوقيف، بعد أن يصبح قرار الشرطة نهائيا بأنهم سيكونون في رمز القرى مع أول ضياء من اليوم التالي، بحثا عن مقصدهم، ويطلب من أن أسافر في تلك الليلة إلى رمز القرى، التي تبعد مسافة عشرة أو ثمانية كيلومترات إلى الجنوب من بنت النهر، وكنت آنذاك في الرابع الابتدائي على ما أظن، ورغم ما يتخلل طريقي من شعاب، بما فيها من ذئاب مع كل احتمالاتها الأخرى، فقد كنت أذهب إلى هناك فورا، وأبلغ بإخلاء كل من لا يريد أن يرى الشرطة أو تراه.. ومن الطبيعي أن أطلب إلى الجميع إبعاد البنادق عن الديار، سواء بمفردها أو مع رجالها..

كانت والدتي تدير المنزل، وتوجه الاهتمام بالزرع، تعاونها أم همام وهمام.. وقد عبرت تلك السنة بأقل ما يمكن من الخسائر، حيث أطلق سراح عمي إبراهيم ومن كانوا معه، بعد أن مكثوا في التوقيف ستة أو سبعة أشهر.
عادت حياتنا في رمز القرى، وفي بنت النهر، إلى سياقها المعتاد: دراسة، وزراعة، وحصاد، وتربية حيوانات، وما يتصل بالزراعة والدراسة.. ولكي لا تفوتنا الإشارة إلى نوع النشاط الذي كان مال الله يمارسه بعد خروجه من السجن، لا بد أن نقول أن مال الله أعدّ نفسه ليواجه هذه الظروف بعد خروجه من السجن.. فقد أتقن في السجن اللغة العربية بما في ذلك قواعدها، ودرس اللغة الإنكليزية، وصار متفوقا فيها تكلما وكتابة، ولذلك ما إن خرج من السجن حتى أسس مدرسة (تفيض) أهلية متوسطة وثانوية، وكانت بنت النهر خالية من هذه المدرسة، ولم يكن فيها بعد الابتدائية أي مستوى آخر..
وكان كثر من الذين لا يستطيعون دفع أقساط استحقاقهم من ثمن المدرسة إما يعفيهم كليا أو جزئيا، أو يقدم لهم تسهيلات من النوع الذي يمكّن أبناءهم من الاستمرار في الدراسة، وكانت العائلة تعيش على راتبه كمدير لهذه الإعدادية، ومن إشرافه على الزراعة في أرضه عبر النهر بمستوى يعتبر بالنسبة لبنت النهر من الصف الأعلى فيها.. ومن الطبيعي أن أقول أنني عندما دخلت الابتدائية

وعمري عشر سنوات، لم أجد أنا أو غيري حرجا في هذا، وإنما كان الحرج مع من يدخل المدرسة بسن السابعة، وكان أحد أولاد المعلمين ابن السادسة عندما أدخله أبوه الصف الأول الابتدائي باعتباره معلما ويفهم قيمة المدرسة، وكنا نعتبره صغيرا على المدرسة وهو بذاك العمر، ومن هذا يمكن أن يخمن عمر مخرجات الابتدائية إلى المتوسطة والثانوية بعدها.. كان كل شيء مظهرا ومضمونا، وكان كثر منهم يقوم مع الدراسة بعمل محدود ليوفر أقساط الدراسة، إلا قلة منهم، وكان أهل رشاد قادرين على أن يجعلوه ينصرف إلى الدراسة في مدرسة التفيض الأهلية التي كان خالي مال الله يديرها ويشرف عليها.. وكان البنطلون قد دخل حديثا إلى هذه المدينة، وكان يمكن الاستغناء عنه لولا أن المدير مال الله لم يكن يتساهل في هذا، ولذلك كان كل واحد منهم يرتدي بنطلونا، ولكن قلة منهم كانت لا تستخدم قميصا مع البنطلون، وإنما الدشداشة نفسها، وكان كثر منهم يلفون طولها على بطونهم ويلبسون فوقها البنطلون، ولكن رشاد كان يرتدي قميصا نظاميا مع البنطلون، ولكن أحدا لم يعرف لماذا لم يتحزم بحزام جلد وإنما بحبل من القنب، حتى أصبح شائعا ومعروفا من أبناء صفه أنه لم يكن يلبس تحت البنطلون سروالا داخليا، وقد (نصب) له الطلاب فخا في أحد الأيام، فعندما طلب المدرس من أحد الطلاب أن ينظف السبورة (بالمساحة)، رجاه كل الصف أن يأمر رشاد بذلك، وكان الذين يجلسون إلى جانب رشاد وخلفه في ترتيب الجلوس هم أصحاب هذا الفخ، وقد قصوا حزامه من الخلف (بتا، بتا) أي خيطا خيطا من غير أن يعرف، ولم يبقوا منه خارج القطع إلا جزءا للربط الاسمي أو المؤقت من الحزام، وهو بالكاد يصمد عندما يكون رشاد جالسا، وعندما أوعز المدرس إلى رشاد بالحركة إلى السبورة للقيام بمحو الكتابة من عليها، وتنظيفها لتكون مهيأة ليكتب عليها من جديد، وبينما رفع رشاد يديه إلى الأعلى، تحت إلحاح ومناداة الطلاب له من الخلف أن يفعل ذلك، وبعد قليل من مباشرته محو الكتابة عن السبورة، انقطع الحزام، ولأن البنطلون غير نظامي، وكان أعرض من قياس خصره كثيرا، سقط البنطلون من فوره على الأرض، حتى صار عند قدميه، وقد حل برشاد مصاب عظيم وهو على هذا الحال بعري كامل، وسط الضحك الهستيري لجميع من كانوا في الصف..

التقط رشاد بنطاله وخرج من الصف راكضا، ولم يعد إلى المدرسة أبدا، مع أنه كان في ذلك الوقت في الصف الخامس وهو الصف النهائي في الثانوية، وبعد التخرج فيه تنفتح أمام الطالب اختيارات واسعة.

الجزء الثاني عشر

" من لا يهتم إلا بحقوقه، ويهمل رؤية ورعاية حقوق الآخرين، يعيش وحده، ويموت وحده، ومثلما ينفرد لنفسه في ما يراه، يترك وحده ليواجه الذئاب، واللصوص، والعادين عليه"..

لم أبنِ صداقات بعينها في خضر إلياس، وإنما معارف فحسب، ولكن أهل خضر إلياس كانوا يعيشون، بوجه عام، كأنهم عائلة واسعة في حقوقهم وواجباتهم الاجتماعية داخل المحلة.. ومع أن ميدان الصداقة في (الأطرف) أو المحلات القديمة في بغداد أوسع نسبيا منها في المحلات الحديثة، إلا أن الصداقة بمعناها الواسع، الذي يتضمن تزاورا في البيوت، محدودة بالنسبة للرجال، على غير ما هو

عليه الحال في ميدان العمل أو علاقة الجيران المباشرين مع بعضهم، أما الشباب، فإذا أردنا الابتعاد عن صداقات اللهو غير البريء، فهي في الغالب صداقة بين طلاب يدرسون معا في بيوتهم متناوبين، أو يقفون في مكان بعيد نسبيا عن الأبواب المباشرة للبيوت، يتحدثون مع بعضهم وقوفا على أقدامهم، أو يتكئون على الأسيجة المطلة على نهر دجلة، أو يركبون متجولين على دراجات هوائية، ولأن دخول غريب في بيت خالي يجعل حرية أهل البيت مقيدة، ويفرض على النساء ما يشبه حالة الطوارئ، فمن الطبيعي أن أتجنب هذا، أما تنمية الصداقة على الأشكال الأخرى التي ذكرتها فلم أكن من أهلها.. ولأنني كنت أفرق بين مجرد معرفة الآخرين والصداقة، لم تتحول أي معرفة بيني وبين من أعرفهم إلى صداقة في خضر إلياس، غير أنني وجدت في صفي متفوقا في الدراسة مثلي، كان ابن ريف أكثر منه ابن مدينة، ونشأت بيني وبينه مودة يمكن وصفها بأنها أعلى من مجرد معرفة، لكنها، لأسباب تتعلق بتباين بعض ما هو أساسي في صفاتنا وطباعنا، لم تتحول إلى صداقة..

وفيما أرى، يمكن تعريف الصديق بأنه أخ تميز، ينوف على غيره من الأخوة بصلاته المحببة، ويميزه صديقه في كل شيء سوى أنه لا يرث صديقه، ولا يحلّ عليه محرّم.. كان الشخص الذي ذكرته قبل قيلي معي في الصف، وكان ذاتيا بعض الشيء.. ومن الطبيعي أن لا تكون قياسات التعرف على خاصيات الناس والاقتراب منها في فرصة ليست أوسع من لقاء في مدرسة مثلما لو كانت في عمل، أو في قرية.. وكان الطلاب يحاولون أن ينظروا إلى ما يكتب (الشطّار) المتمكنون من دروسهم أثناء الامتحان، ليصححوا لأنفسهم ما كتبوه خطأ جوابا عن سؤال، أو أن يكتبوا ما لم يتذكروه جوابا عن سؤال وفق ما يقرأون في جواب من يجاورهم من الجيدين، وكنت لا أجيب من يسألني في الامتحان عن شيء، خشية أن يؤدي هذا إلى كلمة خشنة يطلقها عليّ المدرس.. وكان الطلاب يعرفون ذلك عني، ولكنني لم أكن أقرّب رأسي من الدفتر الامتحاني، وأحيطه بيدي عمدا، لأمنع عمن يحاول أن ينظر إلى الدفتر، أي فرصة لأن يرى ما كتبته لو أراد ذلك، بينما يفعل هذا صاحبي الذي كان معي على رحلة واحدة، ولذلك، ولأسباب تخص الطلاب، كان الطلاب لا ينظرون إلينا بمعيار واحد، رغم أن كلينا متفوق في الرياضيات واللغة الإنكليزية، بل كان أعلى مستوى مني في درس اللغة الإنكليزية، ذلك لأنه أتيح أمامه أن يعمل في مصفى نفط الدورة، الذي كان يدار من شركات أجنبية..

على أية حال، كنا أحيانا، وفي الأيام التي يقترب فيها الامتحان، أو حتى في أيام الامتحان، نلتقي في مقهى من مقاهي الكرخ، تطل على نهر دجلة، وكان صاحبها يحرص في مثل هذه الأيام على أن يهيئ للطلاب جوا دراسيا فيها، فلا يفتح مذياعا، ولا يسمح لأحد بأن يلعب طاولة (زار)، ولا صوت يطلق إلا بصورة خافتة، ومن غير هذا، لم نكن نلتقي إلا في المدرسة، ما خلا مرة واحدة ذهبنا بها إلى السينما، ولا أتذكر ما إذا كان هذا مع العدد الإضافي من الطلاب الذين ذهبنا معهم جماعيا لمشاهدة فيلم عراقي ينتقد الحكومة العراقية بصرة غير مباشرة آنذاك، أم أنا وإياه وحدنا.
كان عدنان أسهل مني في إضفاء صفة الصداقة على معارفه، وكان أسهل مني في قبول فكرة ركوب الدراجات في الطرقات، أو الوقوف معهم في مكان بعينه ليتحدثوا وقوفا، أو متكئين على جدار واطئ، ولكنه لم يكن بالسهولة نفسها التي كان عليها أصدقاؤه الآخرون.

كان عدنان كأنه حال وسط بين من لا يفرق بين الصداقة والمعرفة إلا قليلا، ولا يمنح الصديق من العناية والاهتمام والحقوق أكثر من تلك التي يمنحها للمعارف، وبين نظرتي إلى الصداقة.. والأهم أن

عدنان كان قادرا أكثر مني على تكوين وسط معارف، أو وسط صداقة على الطريقة السهلة أو الأكثر سهولة، بينما لم يكن لي في مرحلة الابتدائية كلها إلا صديق واحد خارج إطار صلتي بأبناء عمومتي، ولم يكن لي غيره في المتوسطة حتى الصف الثاني المتوسط، وقصته المعروفة، ولم يكن لي خارج الحزب إلا من أشرت إليه حتى الرابع الثانوي، وكان هذا حالة بين الصديق والمعرفة، ولم يكن لي صديق خارج أبناء عمومتي في كل محيط رمز القرى وبنت النهر إلى علي الرشاد، مع أن الفارق بين عمري وعمره كان حوالي السبع سنوات أو أكثر، وبعدها كسبته إلى الحزب..

أما عندما انتميت للحزب، وصارت دائرة المعارف واجبة للكسب الحزبي، وانتقلنا من (بيت كبر) مستأجرين دارا تعود لبيت الوسواسي، تقع على (الشط) مباشرة، وفيها غرفة (للخطار) للضيوف خلف باب (الحوش) تماما، يفصلها عن (حوش) الدار ممر مغطى بستارة فاصلة، فقد وسعت دائرة معارفي، لأ،ها صارت ضرورية لانتقاء من يصلح منهم للحزب، وصار بإمكاني، وبإمكان عدنان أيضا، أن نصطحب من نرى أن واجبنا الحزبي يستوجب اصطحابه إلى غرفة الضيوف، بعد أن استأذنا خالي مال الله بهذا، حيث كنا نعقد اجتماعاتنا الحزبية..
كانت حياتي الدراسية، وعلاقاتي مع المدرسين، ومستوى دراستي ودرجاتي العالية، كلها محل ارتياحي، وكان خالي يفخر بي، ويعتز، ذلك لأن (صالح سبع، ومتفوق في دراسته) مثلما كان يقول.. أما عابدة وعدنان فقد كانا ينجحان في المدرسة، عدا ما سجله كل منهما كسنة إخفاق واحدة، سجلها عدنان في الثاني المتوسط، وسجلتها عابدة في الخامس الثانوي..

كان خالي مال الله لا يدخن، ولا يشرب القهوة إلا نادرا، ولم ينحدر إلى ما انحدر إليه بعض المتمدنين من الموظفين بشرب الخمر.. وكان ينام مبكرا، ولا يسهر إلا نادرا، متمسكا بشعائر الدين، وكان من النادر أن تجد في بيته من لا يصوم ولا يصلي إلا بعذر شرعي، عدا استثناءات، فقد كانت عابدة لا تستطيع من الناحية الصحية أن تصوم إلا بضعة أيام في شهر رمضان، وكان خالي عبد اللطيف لا يصوم إلا قليلا آنذاك.. وكنا جميعنا صغيرنا وكبيرنا نؤدي فرائض الصلاة، إلا خالي عبد اللطيف، ومثلما احتجب عن الصوم إلا قليلا احتجب عن الصلاة، إلا قليلا أيضا، وربما، بل المؤكد أن واحدا من الأسباب التي جعلت خالي مال الله يشدد على خالي عبد اللطيف أحيانا هو أن خالي عبد اللطيف دخّن في وقت مبكر، ولم يواظب على الصوم والصلاة..

كانت العائلة كلها تذهب في العطلة الصيفية إلى بنت النهر، ومنها يذهب من يذهب إلى بيتنا في رمز القرى، أما في العطلة الربيعية فكنت أنا وعدنان فحسب، نذهب إلى بنت النهر، ومنها إلى رمز القرى، وهناك كنا نصطاد (الدراج)، ونلتقي مع أبناء عمومتنا والمعارف والأصدقاء في سفرات في الفلاة (الجزيرة) القريبة من رمز القرى، وبنت النهر، أو نعاون أهلنا في شؤون الزراعة والسقي الذي كان بأقل ما يمكن في الربيع، حيث تتولى الأمطار سقي المزروعات، ولا يوجد محصول ناضج ليقطف في هذا الفصل إلا بحدود قليلة، لذلك كان العطلة الربيعية هي العطلة الأكثر ملائمة لنا لنتمتع بها في هذا الفصل، وعندما كنت في الثالث المتوسط، وكان عدنان في الرابع الثانوي (إعدادي) قرأنا معا في العطلة الربيعية كتابا كبيرا عنوانه (أزميرالدا) مؤلفا من ثمانية أجزءا، وربما اثني عشر جزءا، وفي اليوم الأخير من العطلة قال لي عمي إبراهيم:
- لو استطعت أن تستيقظ مبكرا، ربما قبل صلاة الفجر، قد تظفر بـ (وز) من الذي يأتي طافيا على

الماء تحتنا في النهر، على مسافة تقرب من مائة متر عن الدار، ويسرح على الشاطئ، بل حتى يخرج إلى الزرع أحيانا.
قلت له:
- سأفعل ذلك، إن شاء الله.
نمنا ليلتنا، واضعا هذا في بالي، وقربت بندقية الصيد التي كانت في بيتنا من فراشي، وما إن حان الوقت الذي قدره عمي حتى التقطت البندقية، بعد أن استيقظت من غير أن يتولى أحد إيقاظي، وهي عادة بقيت تلازمني منذ الصغر، إذ عندما أحتاج لأن أستيقظ، يكفي أن أخزن هذا في فكري، وأكون قد استيقظت في الموعد المحدد، ربما بفارق دقائق قبل الموعد أو بعده، إلا قليلا من الاستثناء، أو نادرا ما يحصل عكس ذلك..

اتجهت صوب المكان المخمن كمسرح للإوز البري، ولكنني بدلا من أن أتجه إلى هناك ماشيا وجسمي منتصب كما هو في حالته الاعتيادية، انحنيت بعد عشرين مترا، وأنا أبتعد عن الدار، وصار صدري موازيا للأرض فوق الركبتين، وعندما صار المكان المقرر يبعد عني مسافة تقرب من الخمسين إلى الستين مترا، بدأت أزحف على كوعيّ وركبتيّ، والبندقية في يدي، كما يفعل جندي المشاة، وقبل أن أمتد على الأرض لأزحف كما قلت، انتبهت إلى أن كلبنا كان يتبعني، فنهرته بإشارة من يدي من غير أن أصيح به، لكي لا يطير الإوز، وكررت عليه عدم رغبتي بمرافقته بأن قذفته بحجر صغير لكي يعود أدراجه، ولا يفسد عليّ بغيتي..

اتجهت إلى المكان المقرر بين الأشواك والشجيرات، حتى صرت أسمع أصوات الإوز تحت المكان الذي كنت فيه مباشرة، وعلى مسافة قدرتها بما لا يزيد عن ثلاثين مترا.. وكان من مساوئ المكان الذي كنت فيه أنه مرتفع عن المكان الذي فيه الإوز، حيث كان على شاطئ النهر، وعلى الماء القريب من الشاطئ، بينما كنت على كتف النهر الذي يرتفع على بطن النهر ومجراه.. حاولت أن أتبين أي هدف لأطلق عليه النار، ولكنني لم أهتد إلى تشخيص دقيق، ولأن من يقف على أرض واطئة يرى أكثر ممن يقف على الأرض الأعلى، وصاحب المرتسم الأقل في طوله أو ارتفاع جسمه يرى بصورة أدق صاحب الجسم الأكبر والارتفاع الأعلى في الليل، فقد حرصت أن لا يظهر مني من الأمام إلا عيني ليريا، وما هو فوقهما من الرأس من خلال الشجيرات والأشواك، على أن لا يرتفع رأسي في كل الأحوال عن الأشواك، فيشكل مرتسما غريبا على المحيط الذي اعتاده الإوز يوميا، وبعد أن عجزت عن تبين الإوز بسبب ظلام الليل حصرت المكان الذي كان فيه ضمن نظري، ومن خلال الأصوات التي كانت تنطلق منه وهو يأكل الحشائش في الماء، إذ أن مناقيره تخرج أصواتا تسمع، سحبت البندقية التي كانت موازية لي، وأنا ممتد، وحاولت أن أسللها رويدا رويدا من بين الأشواك بما لا يجعلها تصدر صوتا مع الحركة، خاصة وأن الشوك كان يابسا آنذاك، وعندما يكون يابسا أو جافا غيره عندما يكون أخضر، فإنه في الحالة الأولى يرسل أصواتا مسموعة، وفي الحالة الثانية يكون صوت المشي عليه، أو صوت تسلل بندقية من خلاله أقل، وعندما أكملت تسديد البندقية، وحصرت مكان حركة الماء مع أصوات الإوز، ضغطت على الزناد، وانطلق الرصاص، وطار الإوز، ولكنني سمعت صوت خبط في الماء، فركضت إلى الشاطئ فإذا هن ثلاث من الإوز في المكان.. وعندما ذبحت اثنتين واحدة بعد الأخرى، كانت الثالثة لا تزال تخبط في الماء على مسافة من مكاني، وما هي إلا كلمح البصر حتى وجدت واحدا من بنات آوى ينقض عليها من بين الأدغال ليفوز بها، ولكنني لحسن الحظ كنت قد هيأت

البندقية تحسبا لاحتياجي لها في أمر آخر، وقبل أن يفوز ابن آوى بها، بل ربما كان فمه قد أمسك بجناحها، صوبت البندقية عليه، وضغطت على الزناد فألقى بها مهزوما، وهو يتعثر ويقع على الأرض ثم يستوي، وصارت الإوز الثلاث في حوزتي..
سمعت عمي إبراهيم يصيح مع صوت الإطلاقة:
- ثار ملح العشار من مشومخات صوتهن يشلع الدور..
أهلهن حضور وبيرق الموت لمن دنا منشور
طبخت والدتي اثنتين من الإوز لوجبة غداء اليوم نفسه، واحتفظت بالثالثة، وجهزتها لنا متاعا عندما ركبنا القطار في الليلة التالية أنا وعدنان من محطة (عنيقة)..

لو كنت تعلم كم عانيت من دهري
وما أصبت من قرّ ومن حرِّ

فقد تحملتهُ مالا يطاقُ كما
أصبتُ بعد ضناهُ المرّ باليسرِ

لطار لبّك هولا واجفا وأنا
لما يشب في عزّ الصبا شعري

وجهان ما فارقت روحي الهوى أبدا
جرح يئن ويعلو شأنه قدري

****

كان الريفيون يقولون أن لابن أخت الغانم ثلاث دبكات على صدر خاله، ويقصدون وطأة دالة عليه بما يثقل صدره، فلا يخف منها حتى ينجزها لابن أخته.. فإذا كان خاله غانما ينجزها له.. واحدة أن يسلحه، وأخرى أن يخيّله، أي يهديه فرسا، والثالثة أن يزوجه.. فإذا فعلها لابن أخته يعدّ خالا متميزا، والدبكة وفق لغتهم هي دالة لابن الأخت الغانم على خاله الغانم، ولأن خالي مال الله غانم، فقد فعل اثنتين منها، ولكن، هل يفعل الثالثة فتكون خاتمتها مسكا؟
هكذا كنت أقول في نفسي، عندما اشترى لي خالي مسدسا نوع (سميث) بثلاثة وعشرين دينارا، حين كنت في الثالث أو الرابع الإعدادي، وكان العرب الحقيقيون وأهل المعاني، ومنهم عرب الريف، يتعاونون على هذا فيما بينهم، ويتمنون للشاب الذي تعز طلعته العشيرة، الفرس الجيدة (الركوضة) والبندقية الجيدة (النواشة) ويفضلون له المرأة (الموَصلة)، أما إذا كانت حلوة فليس هذا شرطهم الأساس، وإنما سلوكها وأهلها.. نقول أما إذا كانت حلوة فخير على خير.
لقد (خيّلني) خالي و(سلّحني)، ولم يفعلها مع أخيه ولا مع ابنه، وإنما فعلها معي، بعد أن ثبت له أنني أهل لها في كل ميادين الحياة التي احتاج فيها نخوتي وقدرتي واستعدادي للتضحية، أو التي احتاجها الوطن فيّ، وكان شاهدا قريبا عليها، ولأن تفاصيل الحياة كثيرة، ولا أريد أن أثقل على القارئ بتفاصيلها، ولكن خالي كان رجلا شجاعا وكريما، وكان وطنيا غيورا، ولأنه على هذا الوصف،

كان من يحمل صفاته، بغضّ النظر عن درجتها، سواء كانت أعلى، أو أدنى قليلا، قريبا إلى نفسه، وكانت أمي تشترك معه في هذه الصفات، ولكن حنانها وخشيتها عليّ كانا يمنعانها أحيانا من أن تظهر مستوى غبطتها عندما أمارس دور الشجاع المتميز، أما الإباء والكرم والعفة والترفع عن الصغائر قولا وفعلا، ومستوى الأدب والحنان الذي أتعامل به ضمن وسطي، وخاصة معها ومع إخوتي وأخواتي وأبناء وبنات الديرة، فكان مبعث فخرها ونشوتها، وهي تتحدث عني، وتطري موقفي وتصرفي..

ومن الطرائف عن والدتي أنها عندما اشتد عليها ضغط الأحداث، بعد أن دخلت ميدان الانتماء للبعث، وما اتصل بهذا من التزامات، كنت أنفذها بالتزام عالٍ، كانت تقول لي:

- لقد ألبستك أقراطا (تراجي) في أذنيك وأنت صغير يا ولدي، ظنا مني أن هذا قد يخفف من تركيز وراثة الشجاعة عن أبيك وأجدادك، ولكنني لم أستطع أن أخفف هذه الصفة..

ثم تقول، وهي تكفكف دموعها بعد كل شدة تواجهني على الطريق:

- أنا، يا ولدي، أغبط من ابنها فلاح، لا طالب مدرسة، فيسلك الطريق الذي سلكته، ذلك أن من ابنها فلاح تستقبله، بعد أن تعاونه في غسل أقدامه من الطين، وتراه يوميا حتى لو خرج منها باكرا في بداية النهار، لأنه لا بد آتٍ إليها عند المغرب، أما أنت فقد صرت في بغداد، وأنا بعيدة عنك في رمز القرى، ولا أعرف ماذا يحمل لك الغد، بل لا أعرف كيف تفكر وإلى أين أنت متجه، يا ولدي.

وعندما أمزح معها، وأقول لها:

- ألم يكن جدك فلاحا، وأخواه الشابان فلاحين، ومع ذلك قتلهم الأتراك!؟ ألم يكن جدي رباح فلاحا، ومع ذلك كان دوره متميزا في (دكة اليوزباشي) ثأرا لوالده وأخويه؟ ثم إذا كان ما يخيفك من المدرسة هو أن خالي مال الله، قد دخل المدرسة، وصار ضابطا، وشارك في الثورة ضد الإنكليز، فلا أعتقد أن السبب الأساس أنه درس وصار ضابطا، ووجد عليه التزام أن يثور مع الثوار، وإنما لأنه وطني غيور، وعراقي شريف، ورجل بمعنى الكلمة، ولأنه على هذه الصفات كان عليه أن يقوم بما قام به.

وعندها تحبس حسرة في صدرها، وتعود لتنفثها، كأنها تقي نفسها لكي لا يحترق صدرها، وتقول:

- إيه، يا ولدي، سجنت شهرين وأنت بهذا العمر، ولا أعرف ماذا يخفي لي وعليّ الدهر بعد ذلك.

وأضحك، وأقول لها:

- إن شاء الله خير، يا أمي، ولكن أن تطمئني من أنني لن أستخدم المسدس الذي اشتراه لي خالي إلا لما يعز الخيرين والناس أجمعين.

- نعم يا ولدي، إلا أنت، يقتضي أن تعمل على ما يعز الخيرين والناس أجمعين.. لماذا لا يقوم بذلك آخرون لهم أخوة أكثر منك؟

ثم تعود لتقول:

- إن أخوتك صغار، ولو استطاعوا حمل السلاح لكانوا معك، يسندون ظهرك، ويشدون عضدك.

وبعد أن أتبسم، أعود لأناكدها، فأقول لها:

- ومن بإمكانه أن يكون بديلي في واجبي من المحيط الذي تعرفينه!؟

وعندما أستفزها، تقول:

- لا يوجد أفضل منك في أي أمر كبير، ولكنني أقول لو حمل كل واحد جزءا من الحمل، لخفّ عليك حملك.

وكانت عندما تقول هذا، تتصور أن من يمكن أن يقوموا بالواجب الوطني هم عدد من الأشخاص

فحسب، أنا واحد منهم، مثلما كان خالي مال الله واحدا من بين عشرات الضباط الذين قادوا ثقل فعل الثورة ضد الإنكليز..
كان مثل هذا الحوار، وشبيهه، يدور غالبا بيني و بين والدتي، بعد كل محنة نلتقي معا.. ثم تقول بعد أن تيأس:
- لقد غلبت طبيعة وخواص البذرة التي نبتّ منها.. التطبيع الذي أردته لك.
وعندها أمزح معها فأقول:
- لم تلبسيني الأقراط في أذني لأنك أردت أن تخففي تركيز عامل الشجاعة الذي ورثته، وإنما لأنك تحبينني، وربما أردت أن تدلليني، مع أن الدلال مفسدة، وأنت لا تقرّين به، مثلما لا يقرّ به عمي إبراهيم بصورة مشددة، وخالي بدرجة أخرى.. وأردت أن يتوهم من يراني بأنني بنت وليس ولدا لكي لا يحسدني.. أنا أعرف أنك لا تطيقين الضعيف، حتى لو كان ابن أخرى غيرك، فكيف إذا كان ابنك؟ أنا أعتقد أنك تريدينني شجاعا، وأن تعتزي وتفخري بشجاعتي، ولكنك تتمنين أن تضعيني تحت سلة، وأن (تكبيها) تقلبيها فوقي، لتحميني من غراب أو باشق، كما تعمل بعض مربيات الأفراخ الصغار عندما يعتنين بأفراخهن.
تنتفض وتقول:
- بل أريدك صقرا، يا ولدي، صقرا يفقأ عيون الغربان، ويخيف البواشق.
وعندما تعرف أنني استدرجتها إلى ما أريد، تعود لتقول:
- انتبه لنفسك، يا ولدي، وانتبه من أجلنا، من أجلي أنا والدتك، التي تحملت الشقاء في الريف لكي تكبر، وانتبه من أجل إخوتك، بأمل أن يكون لهم طريق آخر غير الفلاحة، وتعب القلب (شلعان القلب) لو صرت قادرا على أن ترعاهم في الدراسة، وانتبه لنفسك من أجل عابدة التي تنتظر تخرّجك، وعملك موظفا لتتزوجا حتما.
كانت عندما تقول ذلك، يشرق وجهها وعيناها، وتزادا ثقتها بنفسها، ويشرق معها وجهي وعيناي، ولكن خيال الوطن والشعب والأمة كان الأكبر والأكثر قدرة على الجذب، والنفس أكثر مطاوعة له، بل، كأنها في اختيارها كما لو كانت أسيرة له، ولم يكن أسرها لينفك لتكون في جانب من فعلها لنفسها، إلا عندما ترفع الغمة عن الوطن والشعب، ويشرق نورهما وقدرتها بهيين معافيين.

نسابقُ الريحَ ونطفي السعير
بمهرنا والليلُ داجٍ عسير

ونهزمُ الأعداءَ مهما طغوا
جميعهم صغيرهم والكبير

نقهرهم في صبحهم والمسا
نرديهم شيخهم والأمير

إن قام يوما قومنا إننا
أهلُ رماحٍ نحن فيهم غزير

نعدلُ المعوّج في حكمنا
ونرتضي الصادقَ فينا سمير

نطاردُ الباغين أهلَ الخنا
واللهُ يحمينا الغنيّ والفقير

ما همّنا الصوفُ لبسنا ولا
كنا لبسنا بعد ذاك الحرير

نلوي اللواتي هاجها روعها
ولا نشحَ مع ضيفنا والأسير

بعد أن بدا عليّ كأنني اكتفيت بما قلته لوالدتي في الحوار، عدت لأقول:
- إذا احترق درانا..
وعندما قلت (إذا احترق دارنا) لم تنتظر والدتي أن أكمل الجملة، حيث قالت:
- بسم الله الرحمن الرحيم.. بعيد الشر.
عدت لأقول، بعد أن أكملت والدتي ذلك:
- إذا احترق دار، فهل أقف لأراقب النار، وأتفرج عليها، أم أحاول إطفاء النار، وأصيح على الآخرين لتجمعوا ويعاونوا في إطفاء النار!؟ وكذا لو جاءت الذئاب إلى ..
وكدت أقول إلى غنمنا، لولا أنني استدركت لأقول:
- لو جاءت ذئاب تفري بطون غنم، هل أصيح؟ أم أتفرج على منظرها وهي تقتل الغنم؟ أم أتصدى لها؟
أجابت والدتي:
- بل تباشر إطفاء النار، وأنت تصيح ليساعدك الآخرون، وكذا تتصدى للذئاب ريثما يتجمع ساكنو القرية.
عندها صحت بحرقة، كأنني أهم بأن أبكي مع قولي:
- إن العراق يحترق، يا أماه.. إنه يحترق.. لقد أحرقه الإنكليز بمعاونة من نسب نفسه إلى أهله، لقد أحرقوه، يا أماه، وأكلت الذئاب غنمه، ولم تبق لشعبه إلا العظام، وكلما ظهر فيه مشروع فارس وفرس.. خيل وفرسان.. أسقطوا الفرسان من فوق ظهور الخيل، قبل أن يتعلموا (الطراد)، واستخدام الرمح والسيف، وقبل أن تشتد سواعدهم لحمل الراية، وقطعوا أرسن الخيول وتركوها نهبا للذئاب.. لقد أكلوا العراق.. أو أحرقوه، يا أماه، لقد قتلوا يونس السبعاوي، وفهمي سعيد، وصلاح الدين الصباغ..
ورحت أردد أسماء، وأنا (أعضّ) على بداية شاربي، ودموعي تنسكب، وشاركتني والدتي البكاء عندما قلت هذا، خاصة عندما صرت أردد أسماء من تعرفهم، وكانت ترددهم على مسامعي، وهي تحكي لي عن خالي مال الله، وكيف، ولماذا اعتقل، وكيف ولماذا قتلوا الملك غازي! كانت تقول لي الشيء نفسه، بالمفردات نفسها تقريبا، مع فارق واحد فقط هو أن المدرسة أعانتني في استخدام المفردات التي استخدمتها بصورة مرصوفة أفضل ربما مما كانت تستخدمها، وفي السابق كانت تحكي

لي عن أخيها مال الله الذي كان مسجونا بعد أن أصيب بشظايا الإنكليز، وأن أخاها مطلق السراح الآن، ومحال على التقاعد، وقد غادر أمله في أن يستمر ضابطا في جيش العراق، وصار مدير مدرسة أهلية، ثم مدير مدرسة الصناعة الرسمية، وفي السابق كانت تسمع كل هذه المفردات، أو كثيرا منها، من أخيها عندما كانت معه في بغداد، وأنا طفل، كانت تسمع تلك المفردات منه قبل أن يشترك في الحرب ضد الإنكليز، كانت تعرف رأيه في الوصي على العرش عبد الإله، وبشخصيات الحكم، أما الآن، فصارت تسمع المفردات نفسها، وإن جاءت بصوت ولسان آخر، من ابنها، كأنها وراثة في مواجهة السوء الذي يدهم شعبنا من الأجنبي.. في السابق كان العثمانيون الأتراك يقاومهم شعبنا، ومنهم أعمام أمي وأبوها، وصار الإنكليز هم الذين يقاومهم شعبنا الآن، ومنهم، بعد أخيها، ابنها، يا للوراثة والوارث!! متى الخلاص؟ عونك يا رب.. كأن والدتي قالت ذلك مع نفسها، بعد أن كفكفت دموعها، ولم تزد على ما قالته، سوى أنها قالت بإيمان، كأن كل حرف قالته تغمس في بئر زمزم، بعد أن امتزج بكل ما تعنيه الأم الطاهرة المؤمنة:
- حماك الله، يا ولدي، وحمى خالك.. وحمى العراق..

نسابقُ حتى الريحَ أو نقهر الردى
بمهر لنا لا يعرف الخوف أجردا

ونطفي لظاها كلما اشتدّ وهجها
ونبلغُ في أعلى أقاصيها المدى

ونهزمُ من قد رام غدرا بشعبنا
ونسمعُ من يجهل لنا حقنا الندا

إذا الحرب ذرت قرنها تستفزنا
فنحنُ أعاليها وفي الأسفل العدا

ولأول مرة قدمتني، وهي تدعو الله لي ولخالي، من غير أن تقصد.. لاحظت هذا ولم أعرف يومها، ولم أفهم أن الابن غالٍ مثلما الأخ، ومثلما يتقدم عند الأم والأب في الاهتمام أي من أولادهما الصغار، عندما يمرض، يأخذ أي من الابن أو الأخ، عندما يكون أقرب إلى الخطر من غيره، الاهتمام والتركيز بأسبقية الذكر والهواجس والدعاء، ومن ذلك الوقت لم تعد هواجس والدتي تنزاح عن صدرها، ولم تتوقف دموعها عن الجريان، إلا بفواصل صغيرة من الزمن.
****
جاء القطار القادم من الموصل إلى بغداد، وصعدت فيه أنا وعدنان من محطة (عنيقة)، وكان عدد من الطلاب المجازين قد ركبوا القطار قبلنا من بنت النهر، وكان عدد من الطالبات من بنات بنت النهر، الدارسات في دار المعلمات الابتدائية في بغداد آنذاك، يركبن القطار هن الأخريات بعد أن انتهت العطلة الربيعية، قاصدات بغداد من المحطة التي سبقت محطة (عنيقة)، حيث أن عنيقة كانت واحدة من المحطات المؤقتة التي لا يتوقف القطار فيها إلا قليلا، وقد رأيت منظرا لم أستطع تحمله، فقد وجدت

كل الذين ركبوا من محطة بنت النهر واقفين حيث لا توجد مقاعد يجلسون عليها، والأدهى من ذلك أنني وجدت أن أغلب من ينطبق عليهم هذا الحال من النساء، بينما يتمدد رجال نيام على المقاعد المخصص كل منها لثلاثة ركاب.. وعندما مشى القطار ولم يتغير المنظر، صحت بصوت مسموع:

- يا إخواننا النيام، ليجلس كل منكم على مقعد واحد، وليفسح المجال لجلوس اثنين معه رجاء.. ولكن أحدا لم يتحرك

كررت القول بصوت أعلى، لكنهم لم يعدلوا حالهم، بل رفع أحدهم رأسه، وكان ذا جسم ريان، وشارب أشقر، ورأس كبير، وعينين صغيرتين نفاذتين، بعد أن دفع إلى الوراء براحة يده قليلا من شعر رأسه المتهدل على جبينه، ووضع سبابته على فمه ليقول لي:

- (أس).. لا تزعجنا، دعنا نائمين.

عندئذ قفزت عليه، وسحبت مسدسي من حزامي، وصفعت وجهه بقبضة المسدس، وأدميته، وصحت بهم بقوة:

- اخرجوا جميعكم من هذه العربة (الفاركون)، واتركوها للنساء، وإلا سوف يندم من لا يفعل ذلك.

عشنا ولم نغلب دوما من الهوى
والخوف ما يلقى لدينا مركبا

كل غلبنا وهو في عنوانه
رعبا وأرعبنا لديه الركبا

عندها وجدت كل أولئك الذين كانوا يتظاهرون بأنهم لا يسمعون، أو يسمعون ولا يرعون، يهبون واقفين ويتزاحمون على الباب الذي أشرت لهم عليه، وهو الباب الذي وضعته أمامي، وظهري على الباب الآخر من العربة (الفاركون)، لكي لا أترك لأحد فرصة أن يمر قريبا مني، وكنت أشهر مسدسي والشرر يتطاير من عيني، وكان عدنان يمسك بعصا غليظة لا أعرف من أين وكيف جاء بها، ويقف خلفي، وقريبا مني في الممر، وهو متهيئ لنزال.. صحت بالنساء الواقفات: أن اجلسن إلى جانب من بقين من النساء، وسارت الأمور بهدوء، ولكنني لم أستمر في القطار إلى بغداد، وإنما نزلت في محطة المشاهدة التي توقف فيها القطار قليلا، مثلما توقف في (عنيقة) من قبل..

تركت القطار أنا وعدنان ونزلت هناك، وعندما قال عدنان مستفهما:

- لماذا ننزل هنا؟

قلت له:

- لو استمررنا ربما كان المعنيون قد سبقونا بشكوى باتصالهم ببغداد عن طريق مسئول القطار، ولذلك من الأفضل أن ننزل هنا.

ومن هناك ركبنا عربة تجرها الخيول إلى بغداد.

الجزء الثالث عشر

بنفس الروحية التي ناقشت بها والدتي حول بلدي الذي يحترق، وأهله الذين تأكلهم الذئاب، كنت أناقش نفسي، وأنا أبحث عن سبيل للإنقاذ، وكان الأساس في ما كنت أتصوره هو أن أدخل الكلية العسكرية، أو كلية القوة الجوية، وبعد أن أتخرج ضابطا أقوم بانقلاب ضد الحكم الملكي والإنكليز، ولم أفكر بأن أنضم إلى حزب لأنني لم أهتدِ بعد إلى العنوان الذي يصلح لما في صدري وعقلي، بل ولطاقتي ونفسي أيضا.

عندما كنا في بنت النهر، ونحن لا نزال تلاميذ في الابتدائية، عرض علينا أحدهم فكرة (الإخوان المسلمين)، ويومها كان عمري بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة، ورغم أنني كنت معجبا بدور الإخوان المسلمين عندما واجهوا الإنكليز في قناة السويس وفق ما كنا نسمع من مثقفي المدينة ومن خالي، فإن أفكار الإخوان المسلمين لم تستقطبني، رغم أنني زرتهم في مكتبة أعدت لنشاطهم بصورة خاصة في بنت النهر، فانقطعت عنهم، ونصحت أبناء عمومتي بأن ينقطعوا عن مراجعة تلك المكتبة. ثم حاول شخص آخر في بنت النهر أن يعرض علينا منشورا للحزب الشيوعي، وهو يحكي عن الديمقراطية، والطبقة العاملة، حتى صار أحد أبناء عمومتنا يلفظها تبكيتا (قمطراطية) أو (قمطراطيات)، وصار (سعيد) الذي قتل في شمال الوطن فيما بعد، في حركات التمرد، هزءا من الحضور، وهو يجلب صورة ستالين بشاربيه المعقوفين إلى الأعلى، ومع أن شاربي ستالين أعجبا قسما من الأولاد أو الشباب الحضور، ولكننا لم نجد داخل أنفسنا أي صلة حية وحارة مع ما قرئ علينا، ذلك لأن ما قرئ علينا كان أجنبيا أيضا، بالإضافة إلى أن الدعاية بالغت ضد الشيوعية ومنهجها الإلحادي آنذاك، حتى أن الانطباع لدى أبناء بنت النهر كان أنهم يتزوجون أخواتهم.

إن ما نفرنا من (حزب) الإخوان المسلمين وأبعدنا عنهم هو أن جل ما كنا نسمعه منهم هو أنهم يدعون إلى الإيمان وقراءة القرآن ولا شيء آخر، وأن أحدهم كان يجوّد أو يرتّل آيات القرآن الكريم، وكانوا يفكرون ويتصرفون كأنهم ينوءون تحت إرث ثقيل مع أنه ثمين، ولكنهم لا يستخدمونه لإحياء الإنسان في الحاضر، وإنما ينوحون فقط على الماضي وذكرياته..، وفيما كنا نبحث عن الثأر من اليهود لتحرير فلسطين، ونبحث عن الطريق للثأر لأبطال العراق الذين أعدموا بعد فشل ثورة العراق ضد الإنكليز عام 1941، ونبحث عن طريق يخلص شعبنا من البؤس الذي كان فيه، ونزرع فيه روح الوثبة باتجاه أهداف تتصل بثورة روحه على الواقع المر، والتطلع إلى المستقبل، بغد تغيير الحاضر ضمن خصوصيات أمتنا، كانوا يتحدثون لنا عن حسن البنا وجماعته في مصر، وفي الوقت الذي كانوا يتحدثون فيه عن ضرورة قراءة القرآن، ويقرأون لنا كتبا لم نكن نفهم معناها عن فتاوى دينية في أمور لم تكن ضمن اهتمامنا في ذلك العمر، فإن كل واحد منا يتذكر أن في بيته، حتى في الريف، قرآنا كريما، وأن الكل يذكرون الله، وإن كان قلة هم الذين يداومون على الالتزام بالشعائر الدينية بصورة نظامية، ومنها الصوم والصلاة، ولكننا كنا نتذكر أحد أعمامنا يملأ القرية بصوته العالي وهو يقرأ القرآن وقت الظهيرة.

وإن ما نفرنا أبعدنا عن الحزب الشيوعي هو أن قائده فهد من أصل أجنبي فهو أفيلي من أصول فارسية، كان في الاتحاد السوفيتي، وأرسل من هناك رئيسا للحزب الشيوعي العراقي، إذن هو أجنبي

مثلما الإنكليز المستعمرون أجانب، وإن كارل ماركس، صاحب النظرية الشيوعية يهودي ألماني، وإن لينين، مكمل نظريته التي صارت تعرف بـ (الماركسية اللينينية) كان متزوجا من يهودية، مما يفسر السبب الذي جعل الاتحاد السوفيتي أول دولة في العالم تعترف بالكيان الصهيوني عند قيامه في عام 1948..

وكانت منشورات الحزب الشيوعي العراقي تتحدث عن أمور لا تهم أبناء بنت النهر، ولم تكن من اهتمامات العراقيين، إنهم يتحدثون عن الطبقة العمالية وحقوقها، ولا يأتون بذكر على حقوق الفلاحين، في الوقت الذي لم نكن نعرف من العمال في بنت النهر إلا اثنين كانا يكنسان بعض الأزقة، هما (شيمي وسعيد)، وكانا عندما يكنسان الطريق، ويجمعان ترابه، يهملانه إذا لم يأتِ الحمار وعليه (السابل)، ليضعا فيه ما كنساه، ويذهبا به إلى إحدى الحفر خارج المدينة، ليستفاد منه بعد أن يتجمع كسماد لزرع الشواطئ، بعد أن يمر عليه موسم الشتاء.. فأين هي المصانع والمعامل آنذاك، ليس في بنت النهر فحسب، وإنما في العراق كله، لتتشكل منها طبقة تأخذ الأسبقية في البناء الإيديولوجي والسياسات المرتبطة به!؟ وكيف يمكن أن يهمل الفلاحون وتهمل فلسطين، ويهمل الجانب القومي، والقيادة القومية النابعة من روح الأمة؟، وقبل هذا، وفوق هذا، كيف يمكن لعربي أصيل، يعتز بتراث أمته الخالد، وبدورها الإيماني العظيم، أن يتجاهل الموقف الإلحادي للماركسية اللينينية؟ كل هذه التساؤلات وغيرها كثير، كانت السبب الأساس لنفورنا، وابتعادنا عن الحزب الشيوعي من أول عرض لمن مثله آنذاك.
ومن يومها طردنا سعيد.. وبعد محاولته تلك معنا، لم أره، حتى سمعت فيما بعد أنه قتل في شمال الوطن..

تناقض العثّ في الأوصافِ والنحل
كل يقال له ما يحسن القولُ

لا يرحم العثّ شيئا قد يحيط به
والنحلُ يصبحُ من أضداده النذلُ

والعثّ مخربة في كل زاوية
فيها يمرّ وفيها يقطع الحبلُ

هذا بخيلٌ شحيحٌ كله ضررٌ
والنحلُ تهفو إليه النفسُ والطلُّ

كذا عدوا لنا كالأرضة انتشرت
ونحن في أرضنا يا سائلي نحلُ

سبحان من خلق الأضداد مقتدرا
في كل وقتٍ له الإحسانُ والفضلُ

وعندما سألت خالي مال الله عن حزب الاستقلال، بعد أن اطلعت على نشريات أو صحف له، تركها خالي في السرداب الذي كان ينام قيلولته فيه، عندما كنا في بنت النهر، وقبل أن ينقل خالي إلى مدير للتفيض الأهلية في خانقين على ما مر ذكره، ورغم أن خالي قال: إن حزب الاستقلال حزب قومي، ولكنني، وهو يشرح لي أهدافه ومبادئه، لاحظت أن خالي لم يقلها من قلبه وكل كيانه، لذلك لم أهتم به، وبقيت أفتش عن الطريق، وبعد حين اهتديت إليه في بغداد، اهتديت إلى الطريق الذي منه نرى الأمة، في الوقت الذي ولد من رحم الأمة، وخطته روحها على جدران بغداد، وهل ثمة طريق يرفع الأمة بعد أن تلده لا يبدأ من بغداد، أو يستقر، بعد أن يرتكز على أرضيته الرصينة فيها، حتى عندما تكون بدايته الأولى خارجها؟ أليست بغداد سرة العراق، وضمير الأمة؟ ألم تبدأ الخليقة بولادة النبوة في العراق؟ ألم ينتشر إشعاع أي شمعة وقنديل ضوء في أي بقعة في العراق، ليضيئا أرجاء الوطن الكبير كلها، ويتعديا ذلك إلى ساحة الإنسانية؟ أليس في بغداد سر الدنيا والحياة، ومجمع عقل الكون، والحياة موروثة عن قرون وقرون منذ سومر وآكد وبابل واشور؟ أليس بغداد وريثة أول حضارة فتحت للإنسانية شباكا للرؤية، تهتدي إليها وبها حتى العيون العمياء؟ وفتحت على عقول الإنسانية منافذ لتعقل، وتشاء وتؤمن، بعد أن ترى فتجيب!؟

نعم، في بغداد رأيت الطريق.. جاءني في أحد أيام عام 1956 من يعرض علي الانتماء لحزب البعث العربي الاشتراكي، ويجيب عن أسئلتي، وبعد أن وضح، وكان يومها طالبا في الصف الذي يسبقني في المدرسة، قلت له: لنتحاور غدا، وكان في ذهني أن أستكمل المعلومات عن الحزب، رغم أن ما عرضه علي كان قد لامس نفسي وروحي.. إن حزب البعث حزب من الجماهير.. من الناس أبناء العروبة، ومثلما لديه فرع في العراق، لديه فروع في كل قطر عربي، وإن أهدافه هي وحدة العرب من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي في دولة واحدة، تكون القيادة فيها لمن هو أفضل، وفق ما كان عليه العرب قبل أن يجزئهم ويشرذم دولهم الاستعمار الغربي، وإن الحكم الحالي في العراق عميل للأجنبي، وأنه ليس بمقدوره، بعد أن رهن نفسه بإرادة الأجنبي، إلا أن يطاوع الأجنبي على كل ما يسيء للشعب والوطن ولا يعزهما، هكذا قال لي ممثل الحزب.

****

أرجأنا كلامنا إلى اليوم التالي عند هذا الحد.. وبعد انتهاء الدوام، تناولنا طعام الغداء مع خالي، واستأذنت منه لأنتحي به جانبا، وبعد أن استجاب خالي، جلسنا في غرفة منعزلة، وسألته عن الحزب من غير أن أقول له ما دار بيني وبين من فاتحني للانضمام إليه، قال:

- إن ما أعرفه عن هذا الحزب أنه حزب قومي، وأنه يدعو إلى الوحدة والحرية والاشتراكية، وهو حزب نظيف وقيادته نظيفة، وإن قيادته العامة – هكذا قال، ولم يقل قيادته القومية- في سوريا، وكلهم عرب، وهو حزب شباب، وكذلك أغلب من يقولون به، وليس له علاقة بالحكومات، ويدعو إلى الثورة على الاستعمار الغربي.. الخ

قلت لخالي:

- لو كنت شابا، وعرضت عليك الأحزاب التي تعرفها في العراق، فهل تميزه وتنتمي إليه؟

أجاب خالي:
- نعم، أفعل هذا.

ورغم أن خالي في السؤال الأخير عرف قصدي، وكان في جوابه كأنه يشجعني على الانتماء إليه، رغم أن سؤالي لم يترك له مناورة في هذا الموضوع، لم يسألني عن السبب الذي دعاني لأن أسأله عن حزب البعث، ولم يذكرني بهذا لاحقا أبدا.

شكرت خالي، ونهض بعد أن كان جالسا، ووقفت مع نهوضه، وانصرف إلى غرفته، وذهبت إلى غرفتي التي كنت أشغلها مع عدنان، وهي غرفة تشكل ركن بيت (عريبي الكبر) وتطل على (الدربونة) من فوق مدخل الدار نفسه، علما بأن دارنا (دار خالي) هذه كانت بالأساس نهاية (دربونة)، أي نهاية شارع مغلق، وكأنها تشكل في نهاية الشارع سدادة القنينة فيه، ولكننا تركنا هذه الدار كما قلت، واستأجرنا دارا أخرى مطلة على نهر دجلة، قبالة وزارة الدفاع، بجوار بيت حميد (أبو سنون)، ,المقصود (أبو الأسنان)، استعارة من مهنته طبيب أسنان، ولأن اهتمام العراقيين بأسنانهم جاء متأخرا في ذلك الوقت، لم تكن مكانة طبيب الأسنان كمكانة طبيب الباطنية.. وإلى مسافة من بيت حميد أبو سنون، وهو جار طيب، وفي الجهة المقابلة لبيته يقع بيت عارف السويدي، وزير المعارف (التربية) السابق، وشقيق توفيق السويدي رئيس الوزراء، قبل قيام ثورة تموز 1958..

جلست في غرفتي أستعيد كلام الطالب الذي فاتحني بالانضمام إلى الحزب، وأعيد كلام خالي مال الله، ولم أجد تناقضا بينهما، إذن كان الشخص الذي فاتحني صادقا في ما تحدث لي عن حزبه، هكذا قلت في نفسي، ثم رحت أقلب الأمور وأتساءل: هل يعمل هذا الحزب على قلب نظام الحكم العميل في العراق؟ أم ينادي بشعارات، وينشط ثقافيا وإعلاميا فحسب!؟ كيف تتم الوحدة العربية؟ وما هي الاشتراكية؟ وهل هي مستنسخة من مرحلة ما من التراث فحسب؟ أم حالة أخرى، متجددة بروح الأمة، ومقتضيات المرحلة وفق اجتهاد، وإن انطلق من الأصل كنبع لروحه، ومسند ظهره، ولكنه يأخذ لون مرحلته؟ وما هي يا ترى!؟

أسئلة وأسئلة.. ولكنني توصلت إلى ما يقرب من أن يكون قرارا نهائيا بأن هذا الطريق هو الطريق الذي تفتش نفسه عنه قبل أن تراه عيناي، ويقبل به عقلي.. كان نومي يتخلله ما يوقظني على غير ما اعتدت عليه عندما أنام، وما إن بزغ الصباح، وبعد أن صليت صلاة الفجر، وكنت هذه المرة قد توضأت قبل أن يستيقظ خالي وعدنان وجدتي وخالاتي وزوجة خالي وعابدة، وبعد أن تناولنا طعام الإفطار مبكرا، حيث أن خالي يعبر نهر دجلة من الشريعة القريبة إلينا إلى (الصوب) الضفة الثانية من النهر، ومن هناك يركب (باصا) حتى يصل مدرسته، أما أنا وعدنان فغالبا ما نخرج معا، وأحيانا نخرج على التتابع من البيت حسب نشاط كل واحد منا.. وكان ذلك في بداية سنة دراسية على ما أتذكر.. وبعد أن وصلت المدرسة، وجدت صاحبي هنا، انتحيت بها جانبا، وبدأت بتوجيه الأسئلة إليه وهو يجيب، ثم عندما دق الجرس الأول معلنا بداية الدوام الصباحي.. تواعدنا على أن نلتقي في الفرصة الأولى، وهكذا فعلنا، ثم في الفرصة الثانية، وقبل أن يدق الجرس قلت لصاحبي:
- نعم، أقبل أن أنتي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، وسيكون انتمائي إليه بكل كياني وروحي، ولن أحيد عن مبادئه لإعلاء شأن الأمة والشعب.. وكان ذلك في العام 1956..

سرّ صاحبي كثيرا، وصافحني قائلا:
- على بركة الله.

قلت:
- على بركة الله
أعطاني نشرة عنوانها (بماذا تتسم حركتنا)، وفرحت بها كثيرا، وقبل أن أتمعن في معنى (الحركة) أو (الحزب) عندما قرأت أن من سمات حركة (البعث)، عرفن أن اسم (الحركة) هذا سبق اسم (الحزب) بتاريخه أو تسلسله الزمني، أو أنه جاء هكذا، ويقصد به الحركة العامة داخل الحزب أو حركة الحزب في المجتمع، على أية حال، فرحت عندما وجت أن هذا الكراس يتحدث عن (الانقلابية) وبعد أن محصت وجدت أن القصد ليس الانقلاب العسكري، وإنما انقلابية الإنسان داخل نفسه ليصير حالة جديدة بانتمائه، ومعها وفيها دور الإنسان المنقلب داخل نفسه، والمنقلب على أي سلبي فيها في المجتمع، وجعل المجتمع ككل ينقلب، بمعنى الرفض للمهترئ البالي، وكل ما هو سلبي في الحياة الاجتماعية، والسياسية، وغيرها، ببديل يعزّ الأمة والشعب ويرتقي بشأنيهما بعد أن يرتقي بمهمتيهما ودوريهما..
وبعد ذلك بدأت مرحلة جديدة من حياتي.

تلاقح الغيمُ حتى أنجب المطر
وابن أنهارنا الحبلى هو البحرُ

واستنفرت همة كانت مشتتة
فكان من أمرنا في أمرها خيرُ

نحنُ العراقُ ولدنا هاهنا وبه
من أمةٍ شاء أن يعلو بها القدرُ

من خير من أخرجت للناسِ قاطبةً
يهابها البغي والطاغوتُ والكفرُ

سبحانك الله قد باركت تربتهُ
أمواهه عذبةٌ، أبناؤهُ الدررُ

الرافدان وما أدراكَ شعبهما
بداوةٌ كثرةٌ والأكثرُ الحضرُ

خابَ الظلامُ وفينا نورُ القمر
والشمسُ بانت وولى عامنا العسرُ

راحَ التنائي فهذا عامُنا النضرُ
والجدب غابَ وجاءَ الخيرُ والمطرُ

وأقبلت نحونا ليلى كساريةً
يحفها الطيرُ والأنوارُ والسحرُ

جاءت إلينا كما شاءت على عجلٍ
بالفجرِ يعبقُ من أردانها الزهرُ

الأرضُ تندى لنا في كلّ خطوتها
يفوحُ مسكٌ بها أو يورقُ الشجرُ

ونحنُ ندى لها في غيرنا عدمٌ
جدباء لا ربعها ينمو ولا خضرُ

وجندنا كلهم فخرٌ ومكرمةٌ
لو يستقونَ سماء يهطلُ المطرُ

ونحنُ رمحٌ لها لو سار سائرها
نحشمُ القومَ أن قد جاءكم خطرُ

فلا نجيبُ ولا ترجى شجاعتهُ
من خافَ من هزبرٍ أو مسه خورُ

ولا يودُّ الذي من لا عهودَ لهُ
ولا حبيبٌ بسرٍّ منه ينتشرُ

ولا أصيل ولا ترجى حميته
من يجهلُ الجدَّ أو يودي به الضررُ

وليس نجماً إذا ماتَ الضياءُ بهِ
ولا كمياً إذا ما هزهُ الخطرُ

أنا وأنا وكلُّ المكرمات لنا
من مزننا هطل في أرضنا المطرُ

****

بدأت كسب الأقربين إلي، وكانوا كلهم أكبر سنا مني عدا عدنان، وكسبت عدنان، وكسبت خالي عبد اللطيف، وكسبت خال أمي محمد صالح، وكسبت علي الرشاد في بنت النهر، وكسبت أخي همام، ولم أعرض الانتماء على خالي مال الله، لأنه كان كبيرا في السن قياسا بما كان عليه شباب الحزب آنذاك، ولأنني قد لا أكون مستعدا لأجيب خالي مال الله عن كل ما يقنعه، مثلما فعلت مع الآخرين. وكسبت عددا من طلاب المدرسة.. ولكن المسؤول الذي تكفلني بعد أن قبلت الانتماء كان يدعوني إلى عدم التوسع.. وكنت كلما كسبت واحدا رفعت اسمه إلى مسؤولي مع كلمة سر ليرتبط به الحزب، وما إن أعطي أيا منهم كلمة سر، حتى ينتهي دوري في التعرف على نشاطه، بما في ذلك أنني لم أكن أسأله متى؟ ومن جاء مسؤولا له؟ وكيف؟ كنت لا أقبل لنفسي هذا، ولا أقبله لأحد، إذ طالما كان العمل سريا، فليكن سريا بكل معنى الكلمة.. ولم أكن أناقش أيا من الذين أكسبهم في أي شأن حزبي، بعد أن يجري ترحيل تنظيمهم ومسؤوليتهم، بمن في ذلك عدنان الذي كنت أسكن معه في بيت واحد، وننام في غرفة واحدة، ومن الطبيعي أن أكسب عابدة.. بعد أن صارت أجواء البيت بعثية..

****

" عندما تترك جيفة حولك، تكون أول من يشم رائحتها"..

بدأ العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، في نفس السنة التي انتميت بها للحزب، كان أحمد سعيد يحثّ العرب بصوته القوي على الثورة، ويخص الحكم في العراق بثقل أساسي في تعليقاته من إذاعة صوت العرب، وقبل انتهاء الحرب.. وأثناءها.. كانت كل مقهى، وكل بيت، يفتح المذياع على صوت العرب، عدا من لم يكن لديه مذياع أو اهتمام بالسياسة، وكانت العوائل تتجمع حول المذياع، وكذلك يترك رواد المقاهي أماكنهم ليتجمعوا حوله وينطلق الصوت: (صوت العرب من القاهرة) متحدثا عن المقاومة في بور سعيد، وعن الإنذار الروسي بالانسحاب متوافقا مع الموقف الأمريكي، وكأن الأمريكان وجدوا الفرصة على الاستعمارين البريطاني والفرنسي ليهووا على نفوذهما في الشرق الأوسط بهراوة (كاو بوي)، كان قد هيأ نفسه بين الأدغال، لينقض على فريسة كانت تتحسب من أن تكون ضربتها منه..

كان الشارع في العراق يلتهب، وكانت العواطف تغلي، وقد شخص العراقيون تشخيصا دقيقا، في الوقت الذي كانت المعارك تدور مع العدوانيين البريطانيين والفرنسيين واليهود الصهاينة هناك، عندما تصرفوا مؤكدين أن معركة مصر تحتاج إسناد العرب، ليس بالتأييد اللفظي، وبالمظاهرات، ورفع الشعارات المؤيدة لمصر والمنددة بالعدوان، على أهميتها، وإنما بالعمل على إزاحة عملاء الأجنبي في كل عاصمة عربية، ودفن جيفهم التي صارت تملأ أجواء الوطن الكبير، وهكذا خرجت تظاهرات من الكليات والمدارس، وكان جانب الكرخ، وبالذات ثانوية الكرخ للبنين، كأنها مركز إشعاع، وفتيل أساس لتفجير الغضب الجماهيري في جانب الكرخ، وكان الغضب في ثانوية الكرخ للبنين يتفجر، ويتفجر معه الغضب في ثانوية الكرخ للبنات، التي لا يفصل بينها وبين الأولى سوى شارع فرعي، عرضه لا يزيد عن اثني عشر مترا، وعندما يخرج طلاب وطالبات المدرستين، يمتزج مع نبضيهما نبض الشوارع المجاورة، وتتدفق من الأزقة الشعبية موجات من الناس، فيتكون بركان (الغضب الكرخي)، ويتجه لو أراد إلى رأس جسر الشهداء، وعندما تنطلق تظاهرة في جانب الرصافة، يلتقي (الغضب الكرخي) مع (الغضب الرصافي)، القادم بتظاهرة من الكليات تتجه إلى شارع الرشيد، وعند ذاك، يغص شارع

الرشيد بالجماهير، وتصنع الجماهير ملحمة الموقف القومي.. وتعلو الهتافات (يسقط نوري السعيد، يسقط حكم العمالة.. يسقط عبد الإله) وكأن الشعارات التي على أساسها قامت الثورة الوطنية عام 1941 عادت للحياة من جديد.. وكأشعار لبدء التظاهرة، كان يكفي أن تلقى لفافة صغيرة من مخلوط النورة والزرنيخ، في داخله حصى صغير، ينبعث منه انفجار كبير بعد قليل، ليخرج الطلاب من الصفوف، ويتجمعوا في ساحة المدرسة، ويبدأ أحدهم بالهتافات، ثم تنطلق الحناجر مدوية..وتتجه جموع الطلبة إلى الباب الخارجي للمدرسة، وعندما كنا نجده مقفلا، وهو باب ضخم من الحديد المشبك، تهزه سواعد الجمع عدة مرات حتى ينفلت القفل من موضعه وينفتح، وما إن يفتح باب مدرسة الكرخ للبنين، ويتظاهر طلابها خارجها، حتى يندفع من التظاهرة عدد من الطلاب، راكضين ليفتحوا باب ثانوية الكرخ للبنات فتتكون التظاهرة..

كان الحز سيد تظاهرات عام 1956، بع أن أفلت، أو كادت، نجوم الأحزاب الأخرى، وصعد نجمه الشاب إلى سماء استحقاقه، ومن الطبيعي أن نكون أنا وعدنان من بين المتظاهرين.. وكان عدنان يهتف مع من يهتف.. أما أنا فغالبا ما كنت أتجنب الهتافات كأنني أخجل من أن أطلق صوتا ضد جهة لا أراها، أو أن أستبد الفعل بالقول، وما إن تبدأ التظاهرة في الكرخ، حتى تتدفق جموع الشرطة لتحيط التظاهرة، لمنعها من السير في الشوارع، لأنها كلما سارت بعيدا عن المدرسة، ازداد عدد المنضوين إليها من الشعب، وكانوا يعتبرون اتجاهها إلى شارع الرشيد، والتقاء الكرخ بالرصافة هناك، هو الحلقة الأخطر في الفعاليات الجماهيرية، وعندما تبدأ الشرطة باستخدام الهراوات، أكون في مقدمة من يرمي الطابوق والحجارة على الشرطة، لنفتح المجال للمتظاهرين ليسيروا، ونحمي العنصر النسوي، لكي لا يصيبه سوء..

وفي أحد الأيام، بعد أن كانت التظاهرات تخرج كل يوم بهذه الطريقة، حصرت أحد رجال الشرطة، وأنا أتقرب منه وأرجمه بالحجارة، حتى أدميته، ومع أنني أعرف عقليا ومبدئيا أن رجال الشرطة ليسوا أعداءنا، وإنما الإنكليز وأذنابهم الحكام والنظام الملكي، ولكن عندما يبدأ القتال، يصير من يحول بين الجمع وأهدافه كأنه العدو في الميدان، تماما مثل قتال بين جيشين ملتحمين في معركة، فإن الجندي في أي صف فيهما لا يعود يتذكر دائما وتفصيليا الأهداف الكبيرة التي يقاتل من أجلها، وإنما مواجهة من يواجهونه في الميدان والانتصار عليهم.. وإن قتل أي واحد من الذين يواجهونه، كأنه حالة دفاع عن النفس.. فيكون تحت وطأة (ارمي لتقتل قبل أن ترمى فتُقتل)، وفق روحية هذا التفسير، وإن كانت مشاعر المتظاهرين تتجه إلى صورة أخرى أحيانا، في غمرة إرهاصات التواصل الميداني مع التفاصيل، حتى أن الشرطي الذي يسيء إلى المتظاهرين، يتحول ويصير كأنه الهدف الذي لا بد منه في تلك اللحظة للمتظاهرين، فتحل روح الانتقام بدلا من روح الثورة.. ومثلها يتحول المتظاهرون كهدف للشرطة عندما يقتل أحدهم، أو قسم منهم، وهكذا كان الميدان يتحول، إلا القليل منه، إلى ما يمكن وصفه بـ (الشرطة أعداء الشعب، والشعب أعداء الشرطة).. ولذلك عندما كان المرء ينغمر في المعركة، يعتبر عدوه من يواجهه، وليس أولئك الخونة الذين يجلسون على ما سمي عرشا لهم، ولم يكن في حقيقته إلا مخبأ سوء لخدمة الأجنبي..

كنت في تلك اللحظات أتعامل مع رجل الشرطة الذي حصرته في زاوية، وفق هذه المشاعر، وبعد أن رأي أن التهويم بالمسدس باتجاهي من غير إطلاق لم يجدِ نفعا، وأنني مستمر في تسديد أنصاف

وأرباع الطابوق نحوه، واقترب منه، خمن أنه سيكون في خطر، رغم أن التظاهرة كانت بعيدة عني نسبيا، حيث كنت أتقدمها مع آخرين خلفي لأصطدم برجال الشرطة، أطلق النار باتجاهي مرة وثانية، ولكنه لم يصبني، رغم أنني لم أكن بعيدا عنه، وما إن وجد رجال الشرطة أن صاحبهم في خطر، حتى تجمع عليّ عدد منهم، محاولين تطويقي والإمساك بي، وربما تصوروني المسؤول الحزبي للمدرسة، ولكن المتظاهرين هجموا عليهم فتراجعوا، ومع استخدام الهراوات والرصاص الذي كان يصيب كل يوم عددا من الطلاب، كان أفراد الشرطة يستخدمون الغاز المسيل للدموع، وعندها تسعفنا البيوت المجاورة بالنفط الأبيض وقطع القماش، نغمسها فيه ونزيل بالنفط الأبيض (الكيروسين) ما حول العينين والأنف، لنخفف تأثير الغاز المسيل للدموع، ويتناول بعض المتظاهرين القنبلة المسيلة للدموع، وهي (تبحث) على الأرض، قبل أن تستنفذ وقودها، ويرميها باتجاه الشرطة، ليكون تأثيرها عليهم، وفي إحدى التظاهرات، وأنا أصطدم بالشرطة، على هذه الكيفية، سمعت عابدة تصيح من خلفي:

- صالح.. صالح..

وعندما التفت نحو الصوت، وجدتها تشير إلي، أن أترك المكان وأتبعها إلى البيت!! كأنها في هذه الإشارة قد قلقت عليّ.. ولكنني قلت لها:

- اذهبي من هنا، ولا تبقي، اذهبي، يا عابدة إلى البيت..

وعدت لأنشغل في معركتي مع رفاقي وأبناء الشعب.. وهكذا ترون أن أول من استخدم الحجارة في المعركة ضد الاستعمار الغربي.. وعملائه.. هم العراقيون.. أليست هذه هي إحدى المظاهر التي تعطي تفسيرا للعلاقة المصيرية بين العراق وفلسطين، هو والموقف القومي الأصيل في إسناد شعب مصر؟، بحيث يسيل، مع الدم الذي سال في بور سعيد وأماكن أخرى من مصر، الدم العربي في بغداد ومدن العراق الأخرى، وبنفس الرصاص الذي أصاب مصر والمصريين؟ ألا يذكر هذا بالعمق الذي يجعل شعب العراق البطل سباقا في إسناد رجال الحجارة في فلسطين, واعتبار فلسطين والعراق حالة واحدة في خندق القتال ضد الصهيونية، ومن يدعمها من الغربيين..!؟

بعد أن يئست الحكومة من تمكن الشرطة من قمع التظاهرات وحدها، حاولت أ، توحي للمتظاهرين بأن الجيش معها، وراحت تستخدم الجيش بطريقة مظهرية استعراضية، بما يوهم بأن الشعب سيظن عندها بأن الجيش مع النظام العميل، وقد بعثوا لنا في إحدى التظاهرات، إلى ثانوية الكرخ، بعد أن خرجنا إلى الشارع، بضابط جيش برتبة عميد أو عقيد، ليهدئ التظاهرة، وما إن رآه المتظاهرون وعرفوا أ،ه ضابط من الجيش، حتى حملوه على الأكتاف، وصاروا يجولون به أمام المدرسة، وهم يهتفون للجيش والشعب، ويهتفون ضد الحكم.. وبالكاد أقنع المتظاهرين بإنزاله عن الأكتاف، وغادر ولم يعد مرة أخرى..

وأمام عجز الحكومة عن مواجهة التظاهرات في العراق كله، عطلوا المدارس، وقبل ذلك، وبعد أن أطلقت الشرطة النار على المتظاهرين من طلاب مدرستنا، ومن تجمع معهم من الشعب، مستخدمة الهراوات، والغازات المسيلة للدموع، انفضت التظاهرة.

وقبل أن أعود إلى البيت، كان عدنان قد وصل إلى هناك، واخذ مسدس خالي مال الله، واتجه إلى مكان

التظاهرة، وفي نيته وما قرر أن يطلق النار من مسدسه ذد الشرطة هناك، وقد قلقنا عليه، وكان قلقي اكبر، لأنني خمنت أنهم سيقتلونه إذا أطلق النار عليهم، وقد ذهبت مع من ذهب في أثره نفتش عنه، كان وضع النساء في البيت محزنا، بل مأساويا، ولكن القدر لطف بلطفه، إذ وجد عدنان أن الشرطة انسحبوا من المكان ولم يبق أحد، فعاد أدراجه، وبعد أن عدنا معا، أنا وهو إلى البيت، انتحيت به جانبا، وقلت له:

- إن الأساس يا عدنان.. يا رفيق عدنان.. هو أن نشعر الحكام بأن الشعب ضدهم، وان نعطي إشارة واضحة للجيش أن الشعب يرفض الحكام، وأن نشعر شعب مصر بأننا معه في الخندق نفسه، وإن بعدت المسافة بين القاهرة وبغاد، وأن شرايين القلوب ونبضها وعمق التاريخ المشترك لا تعطل الفعل المشترك لأصحابه كأبناء أمة واحدة تعبيرا عن المصير الواحد، مهما كان بعد المسافات.. وأن الشرطة ليسوا الهدف الأساس، وإنما نظام الحكم والحكام، وقد تحقق هذا بما قمنا به كطلاب مدارس.. ثم ألم نتفق، أنا و أنت، على أن ندخل الجيش لنقوم بدورنا في إعلاء شأن الأمة والشعب من خلال المبادئ التي نحملها!؟.. إنك لو استخدمت مسدسك لكنت أفسدت كل هذا، وستعتبرك الشرطة عدوهم في لحظة دفاع عن النفس، مثلما اعتبرتهم أعداءك لو أطلقت عليهم الرصاص، وقد يقتلونك، ومع أنني أؤمن بأن من يسعى إلى نتيجة جدية في النضال، لا بد أن يكون مستعدا للتضحية، ومن ذلك، أو في مقدمة ذلك، التضحية بالنفس.. إلا أن نفس المناضل ليست حالة مستوردة أو هامشية، ويمكن التفريط بها من غير أثر جدي، وفق خطة تحقق الغرض الذي يريد المناضلون تحقيقه، إنك بهذا تكون كمن يقدم نفسه في غير الوقت المناسب لتقديمها.. أرجوك أن لا تفعل ذلك بعد الآن.. ولا تجعل بيتنا ينقسم، إن تصرفك سيجعل النساء لا يقفن إلى جانبنا كما ينبغي، حرصا عليك، وقد يجعل هذا خالي مال الله قلقا من تصرفنا، إذا اعتبره من النوع الذي لا يقدر المسؤولية، ولا يعرف هدفه كما يجب.. وإنك تعرفني، وتعرف أنني أجيد استخدم السلاح أفضل منك، وأنني أملك مسدسا وبإمكاني أن أستخدمه، وإن تجربتي ربما تجعلني أكون قادرا على الإيذاء لو استخدمت السلاح، أكثر من احتمال أن أؤذى، ومع ذلك لم أفكر في استخدام السلاح.. إن السلاح أمانة في جوانب من مفاهيمه لدى المقاتل، ولذلك عليه أن لا يستخدم هذه الأمانة إلا من أجل هدفها الصحيح وعلى أساس توقيت صحيح.

ومن يومها وعدني عدنان بعدم استخدام السلاح، ولم يستخدم سلاحا بعد ذلك.. إلا وفق هذه المفاهيم.

الجزء الرابع عشر

تعطلت المدارس وذهبت أنا وعدنان إلى رمز القرى، ولم نعد مرة أخرى إلى بغداد.. إلا بعد أن أذيع بيان بعودة افتتاح المدارس ثانية، وبعد أن بقيت مقفلة عدة أسابيع.. وعدنا إلى الدراسة، ولا بد للتظاهرات التي خرجت تأييدا لمصر ولموقف عبد الناصر، ومواجهة الحكومة للمتظاهرين بالنار.. والعدوان الثلاثي على مصر، وموقف الحكومة في بغداد الموالي للغرب، وقبلها هزيمة، بل تواطؤ الحكومات العربية في قضية فلسطين، وما سمي بهزيمة العرب وجيوشهم أمام شرذمة الصهاينة المجرمين المسلحين في فلسطين، وثورة العراق الوطنية عام 1941، من أن تكون كلها قد شكلت خلفية محفزة للجيش ورجاله الوطنيين، ليفكروا في الثورة..

مر عام 1957، وبسبب انشغالي بالعمل الحزبي، لم أحقق نتيجة العفو الشامل بالدروس كلها، وإنما بدرسين فقط، هما: الرياضيات، واللغة الإنكليزية، اللذين حصلت فيهما على معدل العفو الفردي، أما باقي الدروس فقد امتحنتها بصورة اعتيادية، ونجحت إلى الصف الخامس، وكان المرحلة الأخيرة في الثانوية، وقبل أن أتجه إلى رمز القرى، التقيت مسؤولي الحزبي، وقلت له:
- لاحظت أن مدينة بنت النهر تخلو جدرانها من شعارات الحزب، وأحسب أن هذا غير جيد.. لقد أثبت الحزب جدارة في تعبئة الشعب في عام 1956 و 1957، وهذا العام 1958، وكان متميزا في موقفه على الحركات والأحزاب السياسية كلها، مما يقتضي أن لا يكتفي فقط بالوسائل المعتادة، التي يجري من خلالها كسب أناس للحزب وتنظيمهم.. وأنا أعرف أن للحزب تنظيما سريا في بنت النهر، ولكن ما هو الضير في أن تعرف شعارات الحزب وأهدافه وكل ما يعبئ الشعب على منهجه، عن طريق كتابتها على جدران الأبنية المهمة في المدينة؟

ورغم معرفتي أن ليس هناك جدران في بنت النهر لأبنية مهمة تصلح لتكتب عليها الشعارات، بالقياس النسبي بما في بغداد، لأن أبنية المدينة كلها من اللبن والجص، أو اللبن والطين.. وقلة منها مداخلها الخارجية فحسب مزينة بعدد من صفوف الطابوق على يمين ويسار بعض أبواب البيوت، بما لا يزيد على أصابع اليدين الاثنتين، وكأن أصحابها أرادوا في هذا الإعلان تمييز ما يملكون عن غيرهم، رغم أن كل ما يملكونه متواضع، بل وبائس..
وعندما وافقني مسؤولي على هذا.. طلبت منه أن يسجل لي الشعارات والجمل التي يرغب في أن أقوم بكتابتها على الجدران.. وقد سجلها لي فعلا على ورقة بقدر كف اليد..وبعد أن ناولني إياها، طويتها ووضعتها في جيبي.. واتجهت إلى بنت النهر، لأكمل واجبي، الذي اقترحته، ووافق عليه المسؤول، في مهمة أنفذها في بنت النهر، وبعد إنجاز هذا الواجب اتجه إلى رمز القرى..

سافرت بالسيارة مع الركاب، واتجهت إلى بيت خالتي ليلى في بنت النهر، وقبل أن يحل الليل، أحضرت أصباغا وفرشاة، وما أن اقترب الوقت من منتصف الليل، حتى حملت عدتي ووسيلتي دفاع عن النفس، هما عبارة عن مسدس وضعته في حزامي، وإلى جانبه خنجر، وفي جهة الخنجر علقت مصباحا (لايت) لأستخدمه في إضاءة المكان الذي أقرر الكتابة عليه.. وحملت الأصباغ في كيس، واتجهت أخط في الأماكن التي اخترتها..

بدأت أولا بمركز شرطة المدينة، وكتبت عدة شعارات على جدران مركز الشرطة.. ثم انتقلت إلى الحاكمية فكتبت على جدران المحكمة عددا منها.. وبهذا كنت قد كتبت في أماكن ما إن يراها المواطن حتى يقدر مستوى اندفاع الحزب ونوع مناضليه، وكان هذا أسرع إعلان مقلق لسلطة الحكومة في المدينة، بالإضافة إلى أنه تحدٍ للسلطة.. ثم بعد ذلك، رحت أكتب في كل (عقدة طرق)، أو جدار يمكن أن يظهر عليه الكتابة بصورة واضحة، وعدت قبل صلاة الفجر.. وبعد أداء الصلاة، بدلا من أن أنام اتجهت إلى رمز القرى، ابتعادا عن منطقة الخطر، فلو بقيت هناك، وأرادت الجهات المعنية أن تخمن، سأكون في أغلب الظن من تتجه إليه أصابع الاتهام..

ليسَ المسمى من به شجنُ

وإنما الروحُ إذ شحّت سواقيها

أحاورُ النفسَ دوما كلما هدأت
فتدمعُ العينُ درا من مآقيها

أقاومُ الضعفَ (فيهم) كلما هزلت
فتنتخي ذاتها حبا لباريها

تسافرُ الروحُ مني للفلاةِ فلا
تعودُ من ولهٍ عشقا لحاديها

لا تقصرُ الروحُ مني حيثما عصفت
وترتقي للعُلا.. فارت معانيها

بقيت في رمز القرى أمارس الفلاحة وما يتصل بها من شؤون لمعاونة عمي إبراهيم، حتى حلّت صبيحة يوم 14/ تموز 1958، وكنا بدأنا لأول مرة زرع فسائل نخيل في (جزرة أم العوسج)، وبينما كنا نقوم بذلك، لاحظنا أن ابن عمي، زوج إحدى أخواتي، يطلق في الهواء عيارات نارية من بندقيته البرنو، وغالبا ما كان يفعل هذا من لديه بندقية في الريف ليلفت الانتباه ويجمع الناس باتجاهه، أما من أجل الفرح، أو حالة وفاة، أو مشاجرة يريد فيها أن يستفزع وينخو جماعته، ليكونوا إلى جانبه في اللحظة المناسبة، وعرفنا أن غالب هو الذي أطلق العيارات النارية، وكنا نراه وهو يتجه إلينا مسرعا وبيده البرنو، ولكن أيا منا لم يخمن الخبر السار الذي سمعناه منه، وهو يصيح: لقد حصلت ثورة، وقتل الملك وعبد الإله.. وسيطر الجيش على الحكم..
قالت والدتي عند سماعها غالب يقول ذلك، لأن عملنا كان قريبا من البيت:
- اللهم (صلي) على محمد.
وقال عمي:
- يابة غالب على مهلك، لكي نتبين..
- أي شيء تريد أن تتبينه؟ لقد سمعت هذا من الراديو، وهو يذيع البيان الأول..
ثم أردف عمي يقول:
- على الله ما يكون مصير الثورة مثل مصير ثورة 1941.
قال ذلك كأنه أراد أن يستذكر تلك المحاولة الوطنية التي فشلت، وسجن خالي على إثرها، أما أنا فلم أسأل كثيرا، وتركت العمل من فوري، واغتسلت بأسرع ما يمكن على شاطئ دجلة، ولبست ملابس واتجهت إلى بنت النهر.. ومن الطبيعي أن أقول أن بيتنا في رمز القرى، كان يخلو من مذياع (راديو)، ولم أعد أتذكر ما إذا كان أي أحد في رمز القرى يملك مذياعا، ولا أتذكر كيف، وأين، وممن سمع غالب بالخبر السعيد أول مرة.. رغم أنه قال أنه سمعه من الإذاعة، ولكن أين، ومتى وجدا مذياعا ليسمع منه!؟

بعد أن تأكدت في بنت النهر من أن الثورة قد تحققت فعلا، اتجهت إلى بغداد، وهناك صار كل شيء واضحا: إن الثورة وطنية، هكذا قال الحزب، إن الحزب يشارك حكومتها بأمين سر القطر.. وبدأ خالي مال الله يعد أسماء الضباط الذين يعرفهم أو سمع عنهم.. وقال:
- إن أحمد – وهو الذي نوهنا بأنه تخرج معلما، مثلما تخرج بعد ذلك ضابطا هو وخالي مال الله- أحد الثوار البارزين، وإنه الآن آمر فوج في لواء المشاة الذي قام بالثورة.. وإن مسؤوليته الآن حماية الإذاعة في الصالحية، لذلك علينا أن نعمل عشاء له ولكل الضباط هناك.

طبخت النساء في البيت ما يقتضي، بما في ذلك ما أضيف إلى الطعام من حلويات، أبرزها ما كانت زوجة خالي تجيده من طبقات (المحلبي) في صحن واحد من أكث رمن نوع وأكثر من لون.. وبعد أن سبقنا خالي إلى إذاعة الصالحية، توجهت بالطعام أنا وعدنان في عربة تجرها الخيول إلى هناك، وربما بسيارة عسكرية بعث بها العقيد أحمد إلينا لهذا الغرض، ورأيت خالي أحمد برتبة عقيد للمرة الثانية، بعد أن كنت قد رأيته قبل هذا مرة يزور بيت خالي ما الله، لأنه ابن عمه، أو بالأحرى، كان أبو أحمد وأبو خالي مال الله (جدي رباح)، ابني عم، ولأنني أنادي خالي مال الله، خالي، كانت أقرب صفة للاحترام أن أنادي أحمد خالي أيضا، وكان عدنان يناديه عمو.

****

" عندما لا تدثر طفلك يموت، ولكنه يقتل أباه عندما لا يكون ابن حلال"..
لم تمض إلا أسابيع قليلة على قيام ثورة 14/ تموز/ 1958، حتى ابتدأ الشارع الشعبي يغلي بنفسه، بعد أن تأكد الجميع من أن التدخل الأجنبي البريطاني، وربما الأمريكي لم يعد ممكنا من جهة الأردن، مثلما كان يرغب النظام الملكي هناك، تحت ذريعة أن العراق والأردن كانا في اتحاد، وأن هذه الصفة تخوّل الأردن بأن يسعى، تحت ذريعة الحماية الدولية للكيان الاتحادي الذي أودع وثائق الاتحاد لدى الأمم المتحدة، لجعل بريطانية تتدخل لمعاونة الأردن في استرجاع الاتحاد.. وحشدت أمريكا الأسطول السادس قرب الشواطئ العربية.. نقول بعد أن تأكد العراقيون، شعبا وحكومة، بأن شبح التدخل الذي ضمن وحدة معقولة في الموقف، هو والترقب أملا بأن يكون نجاح الثورة فاتحة عهد جديد، يعوض الشعب عن زمن التبعية والبؤس والشقاء، في الأسابيع والأشهر الأولى، حتى بدأ الشعب بسبب فتائل البارود التي أشعلت سلسلة من الانفجارات في علاقة الشعب بالقيادة الجديدة، أو بالأحرى بالعناوين الجديدة.. وبدأت الجبهة الوطنية التي قامت بين الأحزاب، ومنها حزبنا، تنفرط هي الأخرى، وراح التصرف الأحادي لكل حزب أو تيار ينعكس بكتابات تقرأ من الجماهير، كل منها يعبر عن نفسه وفق ما يرى، من غير أن يرى أو يضع في اعتباره ما يرى الآخرون، وبعد أن جمع الموقف الموحد للضباط الثوار عملهم ضد الحكم الملكي العميل، بدأ إنجاز الهدف يفكك وحدتهم، وصارت الأغلبية فيهم لا يعجبها ما آل إليه وضعها بعد نجاح الثورة، ولم يعجبها ما حاز عليه آخرون من عناوين ومسؤوليات أيضا، وصار كل منهم، ومعهم السياسيون القدامى والجدد، يقف أمام المرآة ولا يرى إلى وجهه، وإذا رأى وجوها ما إلى جانب صورته ووجهه، فغالبا ما كان يراها مشوهة بالقياس إلى نفسه، واختلط الطموح المشروع مع الطموح غير المشروع، والنية الحسنة مع الهرطقة والهراء، ونية السوء التي يمتد بعضها، وإن جاءت تحت أغطية عراقية، إلى خارج الحدود، وبعد أن فاق

الاستعمار وشركات النفط التي كانت تسيطر على نفط العراق من الصدمة، بدأ كل يعمل بمفرده، أو مجتمعا، لخلق ما يتمكن منه في كل ما يخلق الفرقة، أو ينمي ما يذر منها بقرنه، واستيقظ وحش (الأنا) والأنانية عند كثر ممن كانوا في صف الانتظار الطويلة ومعه، وفاق من سباته من لم يجد له مكانا يعجبه في الفيلم التصويري للثورة أو السلطة، عندما وجد أن بإمكان عدد من الضباط، لو اجتمعوا، أن يصلوا إلى الحكم، قياسا بقيام الثورة بفوج مشاة واحد، على رأسه آمره العقيد عبد السلام عارف، من لواء المشاة التاسع عشر، الذي كان آمره العميد عبد الكريم قاسم، وكان العتاد في هذا اللواء قد سحب، وفق ما تقضي بذلك التعليمات إزاء كل قطعة عسكرية تمر في بغداد آنذاك، وبالتأكيد استطاع بعض ضباطه، وعلى رأسهم آمر اللواء العميد عبد الكريم قاسم، أن يخفوا عددا من الإطلاقات، وبالكاد كان بإمكانهم أن يوزعوا بعضا منها على القوة التي هاجمت قصري الزهور والرحاب، وهي تهجم على الحرس الملكي الذي كان ملاكه لواء مشاة كامل، ولكن الملك وولي عهده جبنا.. فماذا يمكن أن يفعل من يرفضه الشعب كله، والجيش كله؟ بل، وقبل هذا، ألا يكون العميل منحطا كانحطاط من يبصق في وجه أبيه، ويزني بمحارمه، وليس جبانا ورعديدا وحسب!؟..

كان هذا باختصار جانب من المظاهر التي ذرت بقرنها وسط الشعب، ومعها صار عبد الكريم قاسم، بعد أن أسكرته الدعاية الشيوعية والشعوبية من الحلف الشرير لشخصه، حتى صاروا ينسجون له الروايات والقصص التي صدقها بعد أن سوقوها عليه، بل حتى لو لم يقم الحلف الشرير بما هو مخرب، ليتصور عبد الكريم قاسم نفسه بأنه بمعزل عن الجيش والشعب حالة جاء بها القدر ليحكم فرديا، وما على الآخرين، بعد أن يقول ويقرر، إلا أن ينفذوا..

أقول: حتى لو لم يفعل هذا الحلف الشرير ما فعله.. ألا تحتاج السلطة والمال والجاه إلى حظ وعقل يحميان من يعنيه الأمر من سكرتها، ابتداء بأن يستذكر ولا ينسى، وقبل كل شيء أن يتذكر ولا ينسى، أنها بلوى؟ فإما أن ينجح في التعامل معها، وهذا فضل من الله أن وجد فيه عوامل الخير، وقدرة اتخاذ القرارات الناضجة، والتأثير في الآخرين، أو أن يهدرها، عندما لا يذكر فضل الله عليه فيها، ولا يحث نفسه عليها، ويتذكر ولا ينسى أنه ابن الشعب، حتى عندما يكون قائده، وأنه مدين للشعب، حتى عندما يهرق دمه في فرصة أتاحها أمامه الشعب والأمة، بعد الله، ليقوده.. وهل كان بإمكان آمر لواء، من غير أن تعركه حركة طليعية وتربية، ومن غير أن تكون في صفات الحد الأدنى لما ذكرنا، أن يمتد بصره وعقله، ويتسع صدره وضميره إلى ما قلنا من معاني المسؤولية، وشروطها وسط الظرف والحال الذي أشرنا إليها؟..

وقع عبد الكريم قاسم تحت ضغط عوامل الأثرة والفردية والغرور، التي تفرخ في العقول المحدودة القدرة والتفكير وصغيرة الوزن والرؤية، من ناحية، وتحت ضغط ما أرادت تحقيقه أطماع الحلف الشيوعي الشعوبي الشرير، الذي انضم إليه كل معادٍ للأمة العربية والوطنية الصادقة، بالإضافة لمريديه الذين جمعتهم شعاراتهم للوقوف بوجه الخط المقابل المضاد.. ولقد أسكرت عبد السلام عارف، على الطرف الآخر، دعوة القوميين العرب وأجهزة عبد الناصر، بأنه ممثل القومية العربية، وكان حزبنا، بأمين سره الشاب الذي كان عمره 28 عاما، ولم تكن له تجربة حكم، وبمنتسبيه وقيادته التي لم تتجاوز أعمارهم هذا العمر، بل إن، الغالبية الساحقة من منتسبيه كانوا أقل عمرا.. وعندما يكون العمر صغيرة، ووسط ولادة عسيرة، ومن خلال تجربة متنوعة، فهذا شيء، ولكنه عندما يكون

على هذا الحال، وليس في التجربة غير عمل سري لا يزيد عن عشر سنوات، فهذا شيء آخر، بل وأقل من هذا، كانت التجربة الأحادية مع العمر مع عدم تهيئة النفس لاستقبال الاحتمال الأصعب..
ولأن الصفحة الأولى في حياة الثورة والثوار، والتي يزاح فيها حاكم أو حكام قدماء ليحل محلهم من يخلفهم ليست هي الأصعب دائما، بلا ولا حتى كنس نظام قديم مرفوض، ليحل محله في واجهته الأمامية، وعند خط البداية من عناوينه الرسمية المباشرة، نظام جديد.. فإن استعداد القيادة لمواجهة المراحل والتطورات والمفاهيم والإمكانات والأعداء والأصدقاء على أساس التطورات اللاحقة يكون حاسما في نوع الدور والأثر الذي لا بد منه لتقسيم الأمور..

لم يكن حزبنا، ولا الشعب مهيئين لهذا.. وعندما أقول أن البعث والشعب لم يكونا مهيئين لهذا، رغم دور البعث الكبير في تعبئة الجماهير قبل الثورة، فإنني إنما أقصد القيادة في العنوانين والمكانين..
وعلى هذه الخلفية صار كل عنوان في العراق يصطرع مع عناوين أخرى، ولم تبق ساحة وعنوان من غير صراع، وقد تطور الصراع لتكون قاعدته الكره والحقد الشديدين، يردفه طمع عند كثر ممن كانوا يتصدرون عناوين الشعب والجيش.. صراع داخل الوحدة العسكرية الواحدة، والثكنة الواحدة، بين الآمر وضباطه، وبين ضابط وباقي الضباط والجنود، وبين جندي وجندي.. وبين الأحزاب، وداخل النقابات والاتحادات والمنظمات الشعبية والمهنية.. صراع بين الأخوة داخل البيت الواحد، وبين الأب وأبنائه، وتقف الأم لا تعرف مع من تقف، وبين بيت وبيت، بل بين طرف ومحلة، وطرف ومحلة أخرى.. بل وحتى بين مدينة وأخرى على نطاق أقل وطأة، وبين عشيرة وأخرى، حسب ثقل صلة كل عشيرة بالواجهات الأمامية للصراع..
وسط هذا الجو، وظروفه الدموية المشحونة بالموت في كل لحظة، حتى لم يعد الإنسان يأمن على نفسه، إذا خرج من بيته، ولا يأمن أن يعود إليه سالما.. ويجد أهله سالمين عندما يعود إليهم.. قتل رجل من عشيرتنا في بنت النهر.. وكان من قياديي الحزب الشيوعي، وصادف أن أقصي خالي مال الله من منصبه كمدير لمعارف بغداد (يقابل مدير عام تربية بغداد) في وزارة التربية، التي تولى منصب الوزارة فيها شخص شيوعي معروف، بعد أن انحلت الجبهة الوطنية، وانسحب الوزراء الذين كانوا يمثلون الاتجاه القومي العربي من الوزارة، ومنهم ممثل حزبنا وأمين سره.. قتل هذا الرجل وصادف مقتله وأنا أزور بنت النهر، وأسكن بيت خالتي ليلى.. وكنت قد أبديت استيائي قبل هذا الوقت، إزاء تصرف هذا الرجل الشيوعي، ليس لشيوعيته المتعارضة مع أبسط تقاليد وإيمان السادة الحسينيين المعروفين بورعهم وخشيتهم لله، وحبهم للقومية العربية التي بدونها ما كان الإسلام ليكون على ما هو عليه، وإنما لأنه تنكر لكل هذا، وصار أداة بيد الحزب الشيوعي، مما جلب العار على كل الحسينيين في بنت النهر، بالإضافة إلى إساءته للوطن والعشب.. ومن هذه وخلفية إيماني البعثي..
وجهت التهمة إليّ، واقتادتني الشرطة من بيت خالتي، بعد أن أيقظتني في إحدى ليالي خريف عام 1958، وبعد توقيف في بنت النهر دام عدة أيام، تم نقلي إلى مدينة سامراء لأسجن هناك عدة أيام أيضا، ومن سامراء نقلت إلى سجن السراي في بغداد، وكان أكبر موقف في بغداد آنذاك.. وهناك وجدت خالي مال الله، وعمي إبراهيم، وابني عم والدتي، وابن عمي، معتقلين بنفس التهمة..

كان عمي إبراهيم وخالي مال الله قد اعتقلا في غرفة على السطح، ومعهما ضابط شرطة معتقل في نفس المكان، ولكن بتهمة أخرى، نسبت إليه تعبيرا عن الصراع بين القومية من جهة، والشعوبية والشيوعية، ومعهما عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والحاكم بأمره في العراق، من جهة أخرى.

كان اعتقالي، ومعي ابنا عم والدتي وابن عمي، في الموقف الرئيس، الذي كان عبارة عن قاعة مساحتها 42 مترا، وأبعادها ستة أمتار في 12 مترا، أو نحو ذلك، وفيها باب محكم، وشباك واحد يطل على الباحة الداخلية، وليس فيه أي منفذ آخر.. وكانت جدرانه مصبوغة (بالبوية) وليس بـ (البنتلايت)، ومع ذلك، كانت الجدران مليئة بالكتابة بألوان متعددة بنفس تعدد ألوان المعتقلين، سياسيين وعاديين من الذين مروا على هذا الموقف منذ آخر مرة صبغت فيها جدران القاعة. ولعل ذلك كان قبل عدة سنوات، وليس أشهرا، ولك أن تتصور ألوانها، وتنوع ما كتب عليها، وكان كل من يكتب حقله على الجدران، يضع التاريخ بعد الانتهاء من كتابته، وكان في ذلك التوقيف كله مرحاضان فقط، غالبا ما كنا نجد أرضيتهما غارقتين بالقاذورات، وكانوا يخرجوننا لقضاء حاجتنا مرتين يوميا.. ورغم أنني كنت أبتعد عن وضع فراشي قرب باب المكان الذي أكون موقوفا فيه، وفق ما كان عمي إبراهيم ينصح بذلك، لكي لا يخف وزن الموقوف بأن يبقي عينيه مفتوحتين على الباب كلما فتح، ومع ذلك اضطررت هذه المرة، عكس ما كان عليه الحال في بنت النهر وفي سامراء، لأن أضع فراشي قريبا من الباب، ولكن ليس لصيقا له.. ذلك أن أرضية صالة التوقيف كانت بمستوى واحد، عدا الجزء الواقع على مسافة متر ونصف المتر من مدخل القاعة والملاصق لجدار الغرفة، ومساحته 2.5 متر×5 متر أو 3 أمتار× 3 أمتار، فكان يرتفع عن أرضية القاعة بثلاثين سنتمترا أو نحو ذلك، وكان مبلطا بالكاشي الذي ربما كان أحد أصحاب الإمكانية الخاصة قد هيأه لنفسه، عن طريق ما قدمه من مال لشرطة نوري السعيد، عندما تم توقيفه في هذا السجن آنذاك.. إذن كان هذا المكان مبلطا بالكاشي، عكس أرضية القاعة التي كانت مبلطة بالأسمنت الكونكريت، وقد خصنا بهذا ضابط الشرطة الذي كان مأمور المركز المسؤول عن التوقيف، مثلما خص خالي وعمي قبل ذلك، بأن يكونا في غرفة على سطح المخفر، ولكن الصراع لف مأمور المركز، لينضم إليهما موقوفا بعد أكثر من شهر، وصار الشخص الثالث مع خالي وعمي في غرفة التوقيف على السطح..

ولكي يأخذ القارئ الكريم علما بما يعنيه، ولو جزئيا، على رسم صورة للموقف الكلي، أستعرض عمل كل واحد من الموقوفين الستة، بتهمة قتل الشيوعي الذي مر ذكره..

صالح، طالب في الصف الخامس الثانوي، ومال الله، مدير عام معارف بغداد، وصار بعدها مفتشا تربويا.. وأحمد، شرطي.. وياسين، موظف صحي.. وإبراهيم، فلاح.. وعبد الكريم، فلاح.. بعضهم كان يسكن بغداد، وآخرون يسكنون بنت النهر، ويسكن عمي إبراهيم في حويجة العوسج في رمز القرى.. فأي شيء جمعهم على تهمة واحدة؟ أو أي حال جمع ضدهم تهمة واحدة وقعت في مكان بعينه، وفي زمن بعينه، حين حصل القتل، وهم موزعون بين بغداد وبنت النهر ورمز القرى؟ إنه الصراع الذي تحدثنا عنه، وما نشأ عنه، بعد أن بدأ الشيوعيون بالتصفية الجسدية للقوميين الذين يقودهم البعثيون، سحبا بالحبال حتى الموت، أو رميا بالرصاص، أو سحقا بالعصي والهراوات وتحت الأقدام حتى الموت، وما قابله من رد فعل من القوميين بقيادة البعث.. أليس لكل فعل رد فعل، إن لم يساوه في المقدار، لا بد أن يكون معاكسا له في الاتجاه؟ ولم تسلم من ذلك حتى المدارس، حيث كان الصراع والشجار والضرب يدور بين الطلاب والمعلمين والمدرسين، وبين طلاب الكليات والمعاهد، وبين أساتذة الجامعة وموظفيها، وبين قسم من الطلاب مع قسم من الأساتذة، وبين رؤساء الدوائر والموظفين التابعين لدوائرهم، وبين الموظفين مع بعضهم، وبين العمال والموظفين المسؤولين عنهم،

وبين العمال مع بعضهم، وبين الفلاحين مع بعضهم، الخ.. كانت هذه هي الظروف التي أودعت التوقيف فيها، وأودع من أودع معي بتهمة قتل ذاك الشيوعي..

كانت الحياة السياسية والاجتماعية والأمنية، وما ينعكس منها حكما على الأوضاع الاقتصادية، تزداد تعقيدا وسوءا يوما بعد يوم.. وغصت السجون بالقوميين والوطنيين الأشراف في كل أنحاء العراق، وحتى إصلاحيات الصبايا والصبيان امتلأت، وعندما كان المرء يدخل إلى السجن، يجد فيه صورة الشعب بكل عناوينها وشرائحها، من راعي الغنم إلى وزير سابق في حكومة الثورة، عند أو تشكيلها، ومن الجندي إلى قائد في الجيش.. وفي سجن السراي، الذي كنا موقوفين فيه..صرنا نستقبل جماعات وجماعات من المعتقلين الذين كانوا يمكثون معنا عدة أيام، ويساقون بعدها إلى سجون ومعتقلات أخرى، وبعضهم يبقى عدة ساعات ثم يجري ترحيله إلى معتقلات أخرى، مثلما حصل للمجموعة التي ارتادت سينما النصر في بغداد، وكان في الفيلم المصري الذي عرض على شاشة السينما مقدمة يظهر فيها الرئيس الراحل عبد الناصر، رحمه الله، وصادف، أو كان الأمر باتفاق مسبق، أن كان بين رواد تلك السينما في ذلك الدور عدد من الطلاب، وما إن ظهر عبد الناصر على شاشة السينما، حتى تعالى التصفيق والهتاف بحياة عبد الناصر والقومية العربية، وهل هنالك ما هو أخطر من تهمة محبة عبد الناصر، أو الانتماء للقومية، أو البعث آنذاك!؟ ما إن حصل هذا، حتى جاءت قوة لتطوق السينما، وبعد أن أكل من أكل استحقاقه من العصي، سيقوا معبئين، كما أثاث مهمل، أو أجزاء من طابوق لم يعد للبناء به حاجة، بعد إنجاز مهمته، في شاحنات عسكرية، وجاءوا بهم إلى السراي، ليوزعوهم على سجون أخرى بعد حين..

هنا تعرفت لأول مرة على واحد منهم اسمه محمود.. كان محمود هذا من مدينة سامراء التاريخية المعروفة، وتقع ضمن منطقة مدينة بنت النهر، وكانت كلتا المدينتين تابعتين إداريا إلى محافظة بغداد.. ومنذ أن تعرفت على محمود هذا، بدأت حياتي مرحلة جديدة وفق ما سيرد ذكره.. ورغم أن الصدفة قد جمعتني بمحمود، يبدو أن محمود كان يعرف مما يعنيه من خطط الحزب مم الم أعرفه، ولذلك انتهز محمود، على ما يبدو، فرصة اعتقاله معي، لينتبه إليّ كثيرا وتفصيليا، لأنه سمع عني الكثير مما يعز، مثلما قال لي، وأنه سمع كيف قتل الشيوعي، وكيف اعتقلت، وكيف رحلت من توقيف بنت النهر إلى التوقيف في مدينته سامراء، وكيف أنه، كما قال، كان يعرف عن صلابتي وشجاعتي، وحسن تصرفي مع الشرطة ومع الموقوفين معي أيضا وعندما قلت له:
- أليس من مسؤولية البعثي أن يؤثر في المحيط الذي يكون فيه حيثما حل؟
قال:
- نعم، هو كذلك، ولكنني لا أطيق الشرطة، ولا أحسن التعامل معهم.. إنهم شرطة نوري السعيد، والقسم الأكبر منهم الآن شرطة عبد الكريم قاسم.
وكنت أخالفه في أمور، وأعدّل له الأسباب التي ينسب الظاهرة إليها.. وأقول له مازحا:
- وغدا، عندما يكون البعث قائد السلطة سيكونون معه أيضا..
- ومن يفعل هذا معناه انتهازي..

ومع أنني لم أعارضه بالمباشر، ولكنني لم أوافقه على هذا الحكم القطعي والمطلق بالنسبة للشرطة.

الجزء الخامس عشر

الكلب الذي يتبع كل من ينادي عليه، لا ينفع للحراسة، والذي لا ينبح قد يعقر"..

- ألا تختلف طبيعة عمل وإعداد الشرطة، عن طبيعة عمل وإعداد الآخرين.. كل الآخرين.. يا رفيق محمود!؟

- وكيف ذلك!؟..

- يعد الشرطي على أساس أنه مسؤول عن تنفيذ أحكام القانون، ويكون تدريبه وإعداده النفسي على هذا الأساس، ويخصص راتبه وكل امتيازاته على هذا أيضا، ولذلك، من لا يكون على صفة أنه ينفذ أمر من بيده القانون، طبقا لواجبه، لا يكون شرطيا جيدا.

- وماذا بشأن الإجراءات والتدابير غير القانونية للشرطي آنذاك؟

- اجتهاده في أن يقبل أو لا يقبل تطبيق أمر غير قانوني.

- ولكن أمر الجهة الأعلى مطاع في نظامهم، يعقب محمود.

- عند ذلك، له الحق في أن يجتهد، أو ينفذ بالطريقة التي لا تلحق به أذى، ولا يخالف جوهر العدالة وما يحبه..

عندها يقول محمود:

- إنهم يختلفون عن الجيش.. ويختلفون عن الشعب، كأنهم خلقوا ليخدموا نوري السعيد.. وقسم كبير منهم مع عبد الكريم قاسم الآن.

ويردف قوله:

- لهذه الأسباب كان الجيش يكرههم في العهد الملكي.. لأنهم كانوا مخلب السلطة آنذاك.. مثلما يسعى قسم منهم ليعود القهقرى بالوضع في عهد عبد الكريم قاسم، كأنهم يحلمون بعودة تلك السلطة إليهم، لا أن يكونوا جزءا من الشعب وضميره..

ثم يردف:

- إن ما يهمهم هو إلى أي مدى يستطيعون أن يأمروا وينهوا وينهبوا..

قد تكون مثل هذه الظواهر موجودة في كل عصر، ولكن المهم هو: هل تتحول الظاهرة إلى ما يشبه بالعرف أو القانون؟ وإلى أي حد تكون السلطة الأعلى راضية، أو رافضة، لأي ظاهرة مرضية؟ لقد جاءت سلطة نوري سعيد، ولأقل العهد الملكي، بالكثر من الشرطة، وأعني بذلك الأفراد وليس الضباط، من الشرائح الاجتماعية الأكثر انسحاقا في المجتمع، بحيث أن الشرطي عندما كان يراجع قريته كان وضعه المعاشي، وما ينتعل في قدميه، و(النطاق) و(القمصلة) التي يرتديها كلها أفضل منظرا وحالا من منظر وحال ما يرتديه كل أبناء عشيرته، مع أن راتبه محدود، فقد أطلقوا يديه ليكمل راتبه من جيوب الآخرين، كل على أساس (شطارته)، أليست المسؤولة، بل المجرمة هنا، هي السلطة العليا، نية وتصرفا، وليس الشرطة!؟

أعود لأقول له: إنهم عراقيون، والعراقيون من جوهر واحد بوجه عام، وروحهم واحدة.. ولكن

ظروف الشرطة وإعدادهم، بل وحتى توريطهم ممن يقوم بذلك أول مرة ويستمر في توريطهم، مستغلا ظرفهم، كلها تختلف عن الجيش.. فمسؤولية الجيش الأساسية حماية الوطن، ويتم إعداده العملي والفني والنفسي على هذا الأساس، لذلك يعتبر الجيش الحاكم الذي يضعف همة الشعب، ولا يجعله يشكل العمق العظيم للجيش، ليكون وضع الجيش بحال يستطيع فيه أن يدافع عن الوطن، كأنه يوجه سهاما قاتلة إلى صدره، مثلما يوجهها إلى صدر الوطن، وعلى هذا الأساس، يعتبر الجيش أن من واجب حماية الوطن والدفاع عن النفس، أن يقاوم هذا النوع من الحكام، بل ويثور عليهم، وعلى أساس هذه المبادئ، ثار جيش العراق في عام 1941، وثار في 14/ تموز/ 1958، وسيثور حتما لإنقاذ الوطن والشعب من الحالة التي وضعا فيها، في الوقت الذي كان الأمل يتجه إلى أن تعتق ثورة 14/ تموز الشعب والوطن من هذا المصير..

- هل هذا هو رأي خالك مال الله، أم هو رأيك؟
- لا، إنه رأيي، ولكن لماذا توقعت أن يكون هذا رأي خالي؟
- لأن خالك ضابط سابق، وأحد ثوار 1941،÷ وصاحب تضحية فيها، وصاحب غيرة قومية ووطنية مشهود له فيهما، وهو من أهم الشخصيات التي نسمع بأنها قريبة من حزبنا فكريا وواقعيا، رغم أنه غير حزبي..
- لا، هذه ليست أفكار خالي، بما في ذلك أنني أتوقع أن لا يبقى جيشنا وحزبنا الحال على هذه الكيفية.. إن بلدنا يحترق، يا رفيق محمود، ولا بد أن نعمل شيئا لننقذ شرف الوطن والشعب من الحريق الكبير..

سكتنا، ثم قلت لمحمود الذي جاء ليجلس على فراشنا الذي وصفنا مكانه:
- يساق كثر من الناس إلى الموت يوميا.. فإذا كانت ظروف الثورة لم تنضج بعد، ومعالجة عبد الكريم قاسم تخفف من غلواء القتل والسحل والإعدامات، لماذا لا يقوم أحد بذلك!؟
كنت أقول هذا كأنني أتساءل مع نفسي، في الوقت الذي أتساءل موجها الكلام لمحمود..
كان محمود في ذلك الوقت عضوا قديما في الحزب، أو عضو قيادة فرقة، فيما كنت نصيرا في الحزب.. وبعد أ، حان وقت ترحيله إلى موقف آخر، ودعني، وعانقني، وقال:
- بماذا توصيني؟ قد يطلق سراحي قبلك.
- سلّم.
تبسم، وخرج..

كان أحد أفراد الشرطة يمسك بمجمع المفاتيح.. جاء وفتح الباب، مستعجلا محمود بالحركة، وكان ينتظر خروج الوجبة إلى معتقل آخر، ليقفل الباب وراءها، و لا بد أن يكون محمود قد خزن كل هذا في ذهنه، هو وذكرياته وانطباعاته عندما كان معي في معتقل السراي..

كنا نترفه قليلا عندما يخف عدد المسجونين معنا، حيث يزداد اهتمام الشرطة بطلباتنا التي غالبا ما كانت متواضعة، وتخفّ عصبيتهم إزاء الموقوفين، لأن سيطرتهم بالنظر ومواجهة مخاطر الهروب تكون أفضل.. ومن الطبيعي أن أقول إن هذا المعتقل لم يكن فيه حتى ولو حمام واحد للاغتسال، وإنما مرفقان صحيان فحسب، وكان حالي أفضل من حال غيري، فقد كنت لا أواجه صعوبة كبيرة مثل

الآخرين الذين لم يكونوا يستطيعون أخذ حمام في العراء بالماء البارد.. عدا خالي مال الله الذي تعلمنا منه ذلك، والذي كان لا يستحم بماء دافئ، وإنما بماء بارد فحسب، حتى أنه، عندما كنا في بنت النهر، كان يملأ وعاء بالماء، ويتركه في ليل الشتاء في (الحوش) المكشوف ليكون الماء الذي فيه جامدا من سطحه العلوي في الصباح، فيسكر سطح الماء الجامد بـ (الطاسة) ويستحم به..

كنت أخرج يوميا، أو بين يوم ويوم، لأستحم في باحة السجن المكشوفة من حنفية ماء في ركن من أركان الباحة المبلطة بالكونكريت، وكان يكفيني تدبير (طاسة)، بالإضافة إلى قطعة (صابون رقي) في الأغلب، وأستحم هناك.. وكنت أستحم حتى في كانون الثاني وشباط.. وبعد أن رتبنا علاقات طيبة مع الشرطة، صاروا يتساهلون معنا، ويسمحون لنا بزيارة خالي وعمي وهما فوق السطح، وكنت أفعل هذا عندما تزوره العائلة، يرافقها خالي عبد اللطيف.. الذي لم يجرِ توقيفه، أو أن أزور خالي حتى لو لم تكن العائلة وخالي عبد اللطيف ضمن من يزوره.. إذن، كنا كثيرا ما نحضر مع خالي لتناول طعام الغداء معه هناك، في الغرفة التي على السطح، وكان الطعام يجلب لخالي من البيت، بل صار ضباط الشرطة والشرطة مع طول الزمن، وازدياد نقمة الشعب والجيش على الشيوعية والشعوبية، وعبد الكريم قاسم، ومهم شرطة أكراد، جاءوا بهم ابتداء ليشددوا علينا بسبب صعوبة التفاهم، حيث حرصوا على أن لا يكون أحد منهم يتقن العربية، أقول مع لازمن بدأ بعضهم يتفاهم معنا، ولو بصورة بسيطة.. وصار الشرطة الأكراد يعرفون ما نحتاجه مما تعلموه من اللغة العربية، إضافة إلى لغة العيون المعبّرة عما في القلوب، مع أنهم تعلموا بضع كلمات فحسب!؟

كنا نصعد فوق السطح، ونجلس في الشمس، وكان الفصل شتاء، أو ربيعا، ونتناول طعام الغداء هناك.. وكان ضابط الشرطة الذي نوهنا عنه أعزب، ويبدو أن لديه صديقة عزّ عليها أن لا تكون وفية ومخلصة لعلاقتها معه، بعد أن صار نزيل السجن.. كانت تحضر هي الأخرى لتقابل ضابط الشرطة.. في زاوية من زوايا السطح، وهل هناك من يدبر ذلك أفضل من الشرطة في هكذا ظرف!!؟

وكان هناك شخص من الذين نوهت عنهم، يحب النساء وكل ما يتعلق بهن، إلى الحد الذي لم يكن يفوّت على نفسه التمتع بهذا، حتى لو كان في سجن.. كان صاحبنا هذا، إذا ما جاءت تلك المرأة لتقابل ضابط الشرطة المعتقل، ومثلها أخرى تقابل أحد الشيوخ الذين كانوا معتقلين في قاعتنا لأمر غير سياسي، يأخذ الفضاء طولا وعرضا، وهو يتمشى و (يكرّ) حبات مسبحته، ونحن نتندر عليه فيما بيننا، وخاصة من كان منا قريبا من عمره، أو أكبر منه سنا، أما أنا، فلاعتبارات كثيرة ما كنت أشاركهم، إلا بما هو خفيف من التندر أو التعليق، خاصة وأنني كنت الأصغر سنا بين المجموعة الموقوفة معي على نفس القضية، وكان بين المعتقلين في موقف شرطة السراي مجموعة من الأشقياء وتابعيهم.

- نعم، وتابعوهم، أليس لكل الأشقياء تابعون؟
أجاب صاحبي على من تساءل عن الموضوع.
- انظر إلى عالم اليوم، ألا ترى للدول الكبرى والعظمى في العالم أتباعا للذوات فيها، وخدما وأتباعا لأتباعهم؟
مرة أخرى تساءل صاحبي وهو يجيب:

- أليس التابع ذيل صاحبه!؟
تساءل المتسائل:
- ألذيل الشقي.. والأشقياء خدم وأتباع أيضا!؟
- نعم، وهم مرتبة أخرى غير الأشقياء التابعين للذات الأمريكية أو السوفيتية أو البريطانية، إنهم أتباع ذيولهم.. وبالتوصيل الحراري أو الخاصية الشعرية، يتواصلون مع أسيادهم، على أساس حكمة يتداولونها مفادها: من يخدم ذيل الكبير كأنه خدمه.. انظر إلى الوطن العربي، كصورة قريبة من العالم.. ترى التابعين (الذيول) وتابعي التابعين (ذيول الذيول).. مع أن في وطننا الكبير نفسه، ثوارا ومجاهدين ومناضلين وأبطالا، ولكن مثلما هي الطبيعة، أليس فيها جبال شم، وحضيض ومهابط لا يعرف الهواء الصحي سبيلا إليها؟. أليس من المياه ما هو زلال، وذو طعم تهواه النفس، كالماء في دجلة والفرات والنيل وبردى، ومنها ما هو ملح أجاج؟.. بل أليس فيها ما هو نقي وآسن، جارٍ ومستنقع؟ وفي المخلوقات الغرير و (الجربوع)، وفيها الظبي والأسد، وفي النباتات ورد وشوك، وما هو سام يقتل، أو يشفي الجروح، ويطيل العمر، ويفيد الحياة الجنسية للتابعين و تابعي التابعين، الذي لا همّ لهم غير أنفسهم.. وأنفسهم فسحب؟ وهل غيرهم من يرى أن ما يهمه من الحياة، هو ما يتصل منها به وبمصلحته، وما يمتد منها إلى عمره، ولا شيء يعنيه بعد ذلك؟ أليس دعاؤهم لبعضهم حتى بالهداية، أو تعزيز الإيمان في نفس من آمن واتقى.. في الوقت الذي يتمنى له العمى وعثرة الموت، ليحل محله، بمن في ذلك، لو كان ابنا لأب يتقدمه في العنوان والكرسي..
قال صالح: كان صاحبنا هذا أستاذ جامعيا اعتقل لأنه قومي (قذر)، هكذا كان الشيوعيون والشعوبيون يطلقون الأوصاف على كل، وأي، قومي مؤمن شريف لم يفصله عن أمته ضغط الظروف وأحداثها، ولا التهديد بالموت.. وعلى أساس ما لدى أساتذة الجامعات، كل وفق اختصاصه، من ثروة ثقافة، ولأن صاحبنا هذا كان مختصا في الفلسفة، ويعطي محاضرات أحيانا في التاريخ العربي، فقد (فات بالموضوع عرضا وطولا)، كما يقول المثل العراقي الدارج.
عاد صاحبنا أستاذ الجامعة ليقول:
- بل حتى الإنسان نفسه، أليس لديه أنف يرمز إلى الرفعة والشمم في مفاهيم العرب، ويشار إليه في الشعر العربي، بل حتى إن بعض التابعين وتابعي التابعين، يقبّلون أنوف من يقدرونه، على خلفية هذه المعاني، من غير أن يستذكروها في الفكر والفعل، وإنما ورثوا المظهر دون أن يتساءلوا عن الأصول، وفيه ما هو عورة..!؟ واسترسل ليقول: ولدى الإنسان (مخ يعقل)، تعبيرا عن مستواه بين الكائنات الحية، ولديه قلب وضمير ليشعر.. ويحس بالآخرين.. وفيه (بول)..و.. وتوفق لينفث (حسرة) طويلة عميقة ويقول: نعم، يا صاحبي، هناك من هو تابع، وتابع تابع.. أما التابعون فهم (البول).. وأما تابعو التابعين، فهم.. وكاد ينطقها، ولكنه اكتفى بالإشارة أو الدلالة المستخرجة مما يجاورها. قال ذلك وهو يقهقه..

****

" تكثر الطفيليات في الماء الراكد، ويتناقص فيه الأوكسجين.. فجدد ماءك بالحركة والجريان، واحفظه من التلوث"..
إذن كان معنا عدد من الأشقياء وتابعيهم، على حد وصف الأستاذ الجليل.. وبذلك اختلط في مكان واحد

بحكم الظرف القاسي، مجاهدون ومناضلون، يجاورهم، ولا يفصل عنهم إلا بضعة أمتار، مجرمون وأشقياء، لا يعيشون على كدهم الحلال الشريف، وإنما على حصيلة ما تأتي لهم به مهنة الشقاوة..

وكانت أسماء شقاة (شقاوات) مثل محمود قرداش، وماجد ابن السورية، وأسماء أخرى غيرهما، تتردد على ألسنة البعض في نفس القاعة التي كنا معتقلين فيها، وكان معهم شقي إيراني مقيم في العراق اسمه فاضل ويكنّى (أبو لزكه، يخدم الأشقياء العراقيين داخل السجن في كل شيء، بما في ذلك، أنه كان يحمل الوعاء الذي يتبولون فيه ليرمي به في الخارج، صباح كل يوم، وينظف ما حول أفرشتهم.. الخ..

وكان هذا الإيراني، أو الفارسي، لا يرتاح إلا بعد أن يتناوبوا عليه بالضرب.. كان دميم الخلقة، متوسط الطول، أسمر البشرة، يحلق شعر رأسه حتى لا يبقى للشعر إلا جذوره. وكان كبير الرأس، يزحف شعر رأسه على مقدمة جبينه، حتى لا يترك جزءا منه.. وكان يرتدي جلبابا قذرا عريضا نوعا ما، وينتعل (نعالا) أصغر من قياس قدميه، حتى أن ثلث قدمه يكون خارج النعام عندما يمشي، أو يذهب إلى المرافق الصحية.. وكانت عيناه صغيرتان، وتبدوان كأنهما مطفأتان، لا بريق فيهما، وكان لا ينظر باستقامة أو بصورة أفقية، وكان نظره لا يبتعد عن قدميه إلا قليلا، وربما صارت عيناه على هذا الوصف لكثرة ما كان الأشقياء يضربونه على رأسه، وكان لا يمنعهم، ولا ينفصل عنهم، وهل يمكن لذيل التابع أن ينفصل عن التابع!؟..

كانوا يضربونه بقسوة، كأنهم بهذا أرادوا أن يرهبوا ويروضوا الآخرين، وكان كثر من المعتقلين غير السياسيين، وبعض السياسيين، يضحكون على هذا المنظر، وعندما يحاول أحد، ولو بطريقة خفيفة، أن يحجز بينه وبين من يحاول ضربه، كان الفارسي يحتج على ذلك.. ويقول:
- اتركونا وشأننا..

كنت أتألم له، وأمتعض من هذا المنظر المقرف، وكان الشقاة يتفننون في إيذائه، حتى أنهم كانوا يستخدمون لضربه على رأسه أحذية تبرز من كعوبها مسامير ثلاثية الرؤوس، كان كثر من العراقيين يستخدمونها في أحذيتهم كي لا (تسوف)، نعم كان البعض يضعها على كعب الحذاء من الجهة التي تلامس الأرض، كي (لا تسوف)، أي لا تتآكل كعوب الأحذية، ويبدو أن أولئك الأشقياء أكثروا استخدام هذه المسامير في أحذيتهم، لا ليحموا الحذاء من التآكل، وإنما لضرب الفارسي على رأسه، وكانوا يضربونه بالتناوب بمثل هذا (النعال)، وعندما يبالغون في ضربه، كان يبكي، وقبل ذلك يحاول أن يضع يديه على رأسه ويصرخ:
- لا.. لا.. مو هيج.. (لا.. لا.. ليس كذلك).
وعندما يشتد الضرب، يكبر الألم على تحمله، فيبكي، ولكنه قبل هذا، كان يتحرش بهم، ولا يرتاح إلا عندما يضربونه بالنعال.. وكان من يضربه يلتفت نحونا، عندما يرانا مشمئزين، ويهز كتفيه ويقول:
- ماذا نعمل معه؟ انظروا، إنه لا يرتاح إلا عندما يأخذ استحقاقه.. ثم يقهقه.

كنت أتمزق ألما عليه، وعندما كانت نفسي تضغط عليّ لكي أحميه.. كنت أقول مع نفسي: إنه لم يطلب حماية مني.. ثم إنه صديقهم، أو خادمهم وفق ما رأينا ونرى الآن.. وماذا لو تدخلت، وقال: أنا لم

أطلب معاونة منك؟ ثم أعود لأقول لنفسي: وهل يعرف كل مظلوم أنه مظلوم؟ وأعود لأقول: أليس من واجبنا كبعثيين أن نحمي الإنسان حتى من نفسه لو ظلمها، أو ظلم غيره؟ أليس من واجبنا أن نقاوم الظالم حتى لو لم يشعر المظلوم بعد بأنه مظلوم!؟

كنت غالبا ما أكون بين نارين، وإجابتين بعد تساؤلين، أو أكثر مع النفس ثم أقول: هل يليق بي أن (أتعارك) مع مثل هذا المستوى!؟ وإذا ما منعتهم من ضرب هذا الإيراني، و(تضاربنا)، هل يكفي أن أقول لهم أنني انتصرت ضد العدوان، بغض النظر عمن وقع عليه!؟ وكيف سأمحو عني تهمة قد تضعني بنفس وصفهم؟.. أنا مجاهد ومناضل، ولست شقيا مثلهم، وقد يؤدي نضال وجهاد المناضل والمجاهد، دفاعا عن النفس والشعب، عندما يستهدفان، إلى أن يتصرف برد فعل، أو بفعل مصوّب، وليس ما يستوجب استخدام السلاح ضد من يواجه الرأي بالرأي، والحجة بالحجة، ويعطي الشعب والوطنيين هذا الحق على أسس متكافئة، والوقوف على خط عرضي بالنسق، ليكون الجميع أمام فرصة متساوية.

- ولكن ماذا لو لم يكن الحال على هذا الوصف؟ - قال الأستاذ- وماذا لو استبد صاحب الرأي برأيه، وحول رأيه إلى قانون، أو جعل من رأيه طريقة لتبوء موقع عالٍ في الشعب، بغض النظر عما يمكن أن يكون عليه رأي الشعب؟ بل والأكثر خطورة، ماذا لو أصم الحاكمون آذانهم، وأغلقوا منافذ تفكيرهم، واستعانوا بالأجنبي على الشعب، وجعلوا السلاح بدل الحجة أسلوبهم في المواجهة؟ ألا يجعل أمر كهذا حال الشعب وقواه الوطنية أشبه بحال البلد المحتل من أجنبي؟ وماذا يعني الاحتلال غير إحلال رأي ومصالح وقرار وإرادة الأجنبي محل رأي ومصالح وقرار وإرادة الشعب؟.. وعندما يكون البلد، أو جزء منه، محتلا من أجنبي، ألا يكون مشروعا لابن الشعب، وجيش الشعب، أن يستخدم ضد الأجنبي كل أنواع الوسائل والأسلحة التي تجعله يغادر البلد، أو الأرض المحتلين لصالح أهلهما الأصليين، بما في ذلك استخدام نعال ذي مسامير ثلاثية الرؤوس، على قفا ورأس من يستحق ذلك من العملاء الحاكمين أعوان الأجنبي؟

- صدقني، يا صاحبي – وجه الكلام إليّ، متجاهلا ذاك الذي كان يسأله- إن النعال ذا المسامير ثلاثية الرؤوس ضروري لبعض من هم على هذا الوصف، وبعضهم قد لا يكون بعيدا عنا كثيرا، مثلما هو ضروري، على رأي جماعة فاضل ذاك، وهم يزيدون ضربه بالنعال على رأسه.
أجبت الأستاذ:
- فيما يتعلق باستخدام السلاح، نعم هذا صحيح، يا أستاذ، على أن استخدام السلاح بين أبناء البلد الواحد، بغير الافتراض الأخير الذي قلته، يعتمد على ما إذا كان من يريد استخدام السلاح يبحث عن ذريعة وغطاء، أو عن حجة شرعية، من غير هوى..
قال الأستاذ:
- نعم، هذا صحيح، يا أستاذ صالح..
هكذا قال أستاذ الجامعة وهو يوجه الكلام إليَ، كأنه أراد أن يطريني ويشير إلى أنه يثق بي وبأفكاري بمستوى صفة الأستاذية التي أضفاها عليّ وهو يحاورني أمام عدد من الأقرباء والمعارف داخل سجن السراي، تعبيرا عن الهواجس والإرهاصات ومستوى الصراع الذي سجله حال العراقيين بينهم وبينه من دفعهم الأجنبي، أو زين لهم أمرهم، فطارت شرارة من موقدها، لتواجه بلهيبها التحدي الذي أراده

عبد الكريم قاسم، وحلف الشعوبيين مع الشيوعيين، بتسيير قطار من هذا الخليط العدواني إلى الموصل.

ورغم أن العقيد عبد الوهاب الشواف، آمر موقع الموصل، حاول بكل الطرق أن يثني من يعنيه الأمر، ومنهم عبد الكريم قاسم نفسه، ولكن جهوده وجهود غيره ذهبت أدراج الرياح، بينما كان أهل الموصل معبئين لمنع قطار الشؤم هذا، أو قطار الموت، أو قطار الاستفزاز، كما أسموه، ورغم أن أهل الموصل كانوا مصممين على منعه، فقد جاءهم قطار التحالف الشعوبي الشيوعي في ليل طويل، وحلّ في الموصل مع الصباح.. جاء قطار التحدي المشؤوم إلى الموصل الحدباء حاملا من أصروا على التحدي، كأن عبد الكريم قاسم بهذا أراد أن يفجر لغما لم يتبين أين هو، ولكن بأقدام غيره، ليتحدى، بالإلحاد، إيمانهم بالله، وبكتبه ورسله واليوم الآخر، ويتحدى قوميتهم ببعض من حملهم القطار للعرب والعروبة.. فقدح الزناد، وشبت نار في مدينة الموصل، ولم يتوقف مسلسل القتل والتعليق على أعمدة الكهرباء، والسحل بالحبال، رجالا ونساء، شيوخا وشبابا، مما قام به الشعوبيون والشيوعيون، بعد أن أعلن العقيد الشواف الثورة في الموصل من إذاعة ساعد في إيصالها إلى الموصف القوميون في سوريا ومصر.. بعد أن فشلت شرارة الثورة التي اندلعت في الموصل ضد الحكم، لم يتوقف مسلسل القتل بأبشع صوره، بل امتد، بمراحل زمنية متعاقبة، إلى كركوك والبصرة.. وكانت مذابح كركوك، التي نشرت صورها على أوسع نطاق، واحدة من ذاك المسلسل، إن نسيت، فلن أنسى منظر الشهيد (أنس) وهو يهتف للبعث والقومية العربية، عندما ربطوه بالحبال، وسحلوه في البصرة حتى فارق الحياة.. أو منظر الماجدة الشابة حفصة العمري، التي هاجموا بيت أهلها، وقتلوها، وعلقوها على عمود كهرباء، بعد أن قاومتهم بالسلاح.

نعم، لم يتوقف ذلك المسلسل إلا بعد أن ارتوى الأشرار من الدماء، وذهب ضحية هذا قروم قوم ومناضلون، وفشلت ثورة الشواف لأسباب كثيرة، منها الخوف والأنانية، وعدم إعلان من يعضدها من الجيش خارج الموصل.. وهل يمكن أن تتكرر تجربة عبد الكريم قاسم الذي انفرد بالثورة ضد الملكية، بعد أن وجد مثل آخرين غيره، أن إمكانية التنسيق مع كل الكتل، واختيار توقيت بعينه، والاتفاق على كل التفاصيل، قبل بداية الخطوة الأولى الحاسمة لتغيير نظام الحكم، غير ممكن؟ وهل بإمكان قائد الفرقة الثانية العميد ناظم الطبقجلي، أو مدير الاستخبارات العقيد رفعت الحاج سري، أن يؤيدا العقيد الشواف أمام الأمر الواقع الذي حاول أن يفرضه عليهما وعلى غيرهما، لأسباب تكتيكية وعملية، لم يجد الشواف بدا من أن يدخلها في اعتباره، ويبدأ الخطوة!!؟

ما إن فشلت خطوة الشواف تلك، حتى سنحت الفرصة التي أرادها الشيوعيون والشعوبيون وعبد الكريم قاسم، ليغرقوا العراق في بحر من الدم، مع الصرخات الهستيرية التي كانت تطوف شوارع بغداد ومدن العراق الأخرى، وخاصة شوارع مراكز الولايات القديمة التي كانت أعمدة الدولة العراقية في عهد ازدهار الدولة العربية الإسلامية، أو ما مثلت صورة بقاياها في العهد العثماني، ونعني بذلك بغداد والموصل والبصرة.

كان منظر التجمعات والتظاهرات الشعوبية والشيوعية، وهي تطوف شوارع هذه المدن، ومدن العراق الأخرى، وهي تردد: اعدم، اعدم.. جيش وشعب وياك.. مخيفا، وترتعد له أوصال من لا يذكر ربه

بيقين، ويستقر على مبادئه بثبات. وقد انتشر في الصفوف الخلفية نوع من أنواع الإحباط بسبب فشل ثورة الشواف، ولكن الإحباط لم يستطع أن ينتشر ويعم الصفوف كلها، بل لم يستطع حتى أن ينتقل من حيث هو في الصفوف الخلفية أو الوسطية، ولكن الحزب الشيوعي أبرز كل ما كان يخفيه ضد القومية العربية، وركز هو والشعوبية على من كان يمثل القومية العربية تمثيلا فكريا ونضاليا متيقظا ومنظما، وهو حزب البعث العربي الاشتراكي.. وكان الحزب يقظا فعلا، بالإضافة إلى صفاته الأخرى، ويمثل القومية، والجماهير القومية، وأمته، تمثيلا نضاليا وجهاديا فريدا، ولذلك ركزوا عليه، وكانت تهمة (فلان عفلقي) نسبة إلى المرحوم الأستاذ أحمد ميشيل عفلق (مؤسس الحزب)، أو فلان (بعسي) التي يطلقها من لا يجيد لفظ الثاء، هي التهمة الأعلى في قاموس الاتهامات التي كانت توجه إلى أي وطني حر شريف، وقومي مؤمن بالله والوطن والأمة، وكانت اللعنات تنهال، مع هذه التهمة، بما هو أقذع مما عرفه العرب عن تاريخ صراعهم مع الشعوبية، ابتداء من الدولة الأموية، مرورا بالدولة العباسية، وما شهدته ساحات الدولة العربية الإسلامية من واجهات ومسميات للصراع من القرامطة حتى الحشاشين والبابية والبهائية..

كان منظر الأسنان المكشرة لتلك الفعاليات والتظاهرات، التي غالبا ما كان يختلط بها، لأغرضا الإغراء المقصود، وكطعم لمن يستهويه ذلك، عدد من الفتيات، وهن في وضع خليع متهتك لم يعتد عليه العراق قبل هذا.. كانوا في تظاهراتهم في شوارع بغداد ومدن العراق الأخرى، عندما يصيحون ويهتفون، كأن أسنانهم تقطر دما بعد الفتك بفريستها، أو كأنها أفاعٍ تنفث سموما على من يحاولون عليها.. وصار نظر الكلاب المسعورة والذئاب الجائعة تلك، وهي تنطلق من الشعاب القصية على فرائسها العزلاء، ملوحة بالحبال، وكل ما يلقي الرعب في قلوب الناس، منظرا يوميا في الشوارع والأزقة، وحتى في القرى.

انتشرت المقاومة الشعبية التي شكلت في بداية الثورة، وكان الضباط القوميون والوطنيون يدربون الناس فيها، تهيؤا واستعدادا لكي يقاوم الشعب الغزاة لو حاولوا كما فعلوا عند استرجاع النظام الملكي بعد ثورة عام 1941، وقد تدربت فيها بضعة أيام، وكانت تقتصر على التدريب على استخدام البندقية الإنكليزية التي كان الشرطة يستخدمونها، وأحيانا على الغدارة (استرلنك)، التي كانت السلاح الفردي للجيش آنذاك، ولأنني أساسا أتقن استخدام السلاح فقد اكتفيت بعدد من الأيام، ولكن ما إن ابتعد خطر التدخل الأجنبي، وعاد الشعب، ومعه الوطنيون والقوميون، ومنهم البعثيون، إلى أعمالهم، حتى تسلل الحزب الشيوعي، يسنده الشعوبيون، إلى المقاومة الشعبية، ومع تطور الصراع استبدل الضباط القوميون والوطنيون النزيهون بالضباط الشيوعيين والشعوبيين، أو من صاروا، بسبب كرههم للقومية، على المذهب الشيوعي.

انتشرت (المقاومة الشعبية)، وهذا هو اسمها الرسمي، ولكن الشعب يجل عن ترصفها وصفتها، فقد كان يسميها (المقاومة الشيوعية أو الشعوبية)، وبانتشارها في كل عقدة طريق، راحت توقف المارة والسيارات، لتفتش عن (المتآمرين) على (الزعيم) عبد الكريم قاسم من بعثيين وقوميين تحت عناوينهم الأخرى، وكان من لديه غرض، أو يريدها غطاء ليخلص شيئا ممنوعا في سيارته، يكفي أن يخرج رأسه من السيارة ليحيي الحزب الشيوعي ملقا، أو يشتم البعثيين رياء، لكي يسمحوا له بالمرور دون تفتيش، وكان بعض من تطاوعهم قلوبهم، ممن يريدون الإفلات من مخالبهم، يقولون

نفس القول (تقيّة)، ليمروا من غير أن يفتشوا، أو تطلب منهم هوية..
كان هذا المنظر المرعب في كل مكان.. وطمع الشيوعيون أكثر، عندما توهموا بأنهما صاروا في الساحة، هم وعبد الكريم قاسم فقط، وعندها طرحوا شعار (الحزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيم)، وكانوا في حقيقة الأمر إنما يسيطرون على أهم الحلقات الأساسية في الحكم، ولكنهم كانوا يقصدون السيطرة الكاملة والرسمية..

في مثل هذه الأجواء انتخى البعثيون للشعب، للأمة، للتاريخ، للدين والحياة، بل كأنهم، بعد أن أمدهم ربهم بما أمدهم به من إيمان، كانوا ينتخون للسماء والأرض معا.

كانت قيادة الحزب قد توارت عن الأنظار والحركة العلنية، وكانت تقود الحزب من أوكار العمل السري، ولم تغرِ البعث وتنظيمه المكين، بل الحديدي، أجواء الأشهر القليلة التي تلت ثورة **14** تموز ليكشف تنظيماته، مثلما فعلت تنظيمات أخرى، ولذلك ما إن عاد العمل السري، حتى بدا كل شيء مهيأ ليغطس تحت الأرض، في الوقت الذي كان يقود الجماهير، ويسند أي صف يضعف، ليمكنه من الصمود قبل أن يتداعى.. وهكذا صار حزب البعث العربي الاشتراكي من الناحية الواقعية، مثلما تشهد ميادينها، فارس الساحات والرايات، يسنده الشعب العظيم، يصطف خلف قيادته كل الصناديد و الماجدات الذين آمنوا بربهم، بمعاني مبادئ أمتهم، وبالصلة العميقة التي لا انفصام لها بين القومية المؤمنة والوطنية النزيهة الصادقة، في الوقت الذي تراجعت، أو انسحبت، كل العناوين التي برزت إلى السطح بعد أشهر من الثورة، أو التي كانت لها جذور قبل الثورة، ولكنها جذور سطحية لم تمتد عميقا في الأرض، وبدأ نجم البعث يزداد إشراقا، مع مستوى ما كان يقدمه من تضحية.. وازداد دوره القيادي تألقا، وصار الناس الذين يقفون خلف قيادته يسعون للانتماء إليه تنظيميا، وليس جماهيريا، ومصيريا، وليس كموقف في مرحلة..

نعم كان هذا هو الإحساس الوطني والقومي العام، وكانت هذه هي مظاهره، ولكنه لأمر طبيعي أن تكتنف هذا الإحساس فجوات بعينها، وكل حالة ضمن وصفها المعلوم.. وكان هذا الإحساس على المستويين الشعبي والرسمي هو الإحساس الطاغي منم أقصى العراق إلى أقصاه.

الجزء السادس عشر

"الحصاة التي لا تتحسب لها، ولا تبالي بها، قد تشج رأسك"..
كنت في سجن السراي أتابع ما يجري في الشارع، وأعرف تفاصيله يوميا ممن يزورونني بشأن طبيعة نشاط حزبنا وفاعليته بشكل عام، ومن خلال زيارة من يزور خالي من أصدقائه والمثقفين، والمتعاطفين معنا، باعتبارنا من أوائل ضحايا المد الشيوعي والشعوبي الذين كانوا يعانون هم منه خارج السجن، ومن الأخبار التي كانت تصل إلى السجن، حيث امتد بنا الاعتقال هناك مدة ستة أشهر.

بعد فشل ثورة الشواف، صعد ضابط شرطة برتبة عقيد إلى السطح، وكان موقوفا في نفس الموقف الذي كنا فيه، ثم نكس رأسه إلى الأرض، وقفز من فوق السطح، بعد أن انتابته هستيريا من الهلع والخوف على مصير عائلته ومصيره، بعد فشل ثورة الشواف، وتعاظم المد الشعوبي، ذلك أن أعصابه لم تتحمل تلك الأخبار والمذابح، وانكسرت رقبته ورأسه ومات فورا..

ولنفس الأسباب، كان سلطة وهاشم يزراننا في السجن، وكانا طالبين في مدرسة الصناعة الرسمية، وكانا يبقيان معنا مسجونين داخل القاعة بإرادتهما، بعد أن نلتمس ذلك من الشرطة التي صارت لنا علاقات طيبة معهم، وتحول قسم منهم من موقفهم السابق المتشدد الذي كان يوحي بأنهم يؤيدون عبد الكريم قاسم والشيوعيين، إلى موقف جديد، بعد أن عرّفتهم الأحداث، ونوع الصراع، وطبيعة ما يجري بالحقائق التي كانوا يجهلونها قبل ذلك.. أو لأنهم وقعوا تحت تأثير خديعة الحزب الشيوعي الذي حاول أن يجعلها تنطلي على البسطاء من أبناء شعبنا من المذهب الجعفري، عندما روج أن الشيوعي هو الشيعي، وأن الشيوعية تعني الشيعة، حتى اضطرت هذه الفرية بعض أعلام الإفتاء الجعفري لأن يصدروا فتاوى تكذّب هذا، وتكفّر الشيوعيين.. واستخدم الشيوعيون مع الأكراد فرية أخرى تقول إن العرب ضد الحقوق الثقافية، وما يتصل بالهوية الكردية، ضمن شعب العراق الواحد.

صار الحزب الشيوعي، أثناء احتدام محاولاته للسيطرة على الحكم كليا ورسميا، يسيطر على محكمة المهداوي.. التي صار الشعب يطلق عليها هذه التسمية، بعد أن كان اسمها في بداية ثورة 14 تموز (محكمة الشعب)، وكان اختصاصها محاكمة رؤوس العهد البائد، ثم تحولت مع تحول، بل انحراف مسيرة الثورة وشعاراتها، إلى محكمة لمحاكمة الوطنيين، ومنهم محاكمة الرجال الذين ثاروا ضد الانحراف والشيوعية والشعوبية في الموصل.

كان الحزب الشيوعي يدفع إلى سحب قضيتنا من المجلس العرفي العسكري، الذي كان فيه عدد من الضباط الذين اختيروا بديلا أو رديفا للمحاكم الاعتيادية بعد ثورة تموز، وكانوا إما قوميين بالاتجاه العام، أو حياديين في السياسة، مثلما كانوا يسمون أنفسهم، لذلك، فرغم أنهم مجلس عسكري، لا تخضع أحكامه للاستئناف أو التمييز، فقد كان أهون علينا من محكمة المهداوي، لأنهم في المجلس العرفي العسكري، يستعينون بالقانون، أو بالأحرى كانت المواد القانونية دليلهم في إصدار الأحكام بوجه عام، بعد أن يجتهدوا في ما يجتهدون به، وكان المدعي العام في هذه المحكمة ضابطا من خريجي كلية القانون، وكانت محكمة المهداوي تدخل زمر الحزب الشيوعي، ومعهم زمر الهتّافين واللعّانين، إلى داخل فناء المحكمة، وكان أعضاؤها ورئيسها والمدعي العام من الشعوبيين والشيوعيين الحاقدين على العروبة وكل عربي، وكان رئيسها، رئيس محكمة الشعب، العقيد العميد فيما بعد، فاضل عباس المهداوي، ابن خالة عبد الكريم قاسم، وبالإضافة إلى صفته السياسية التي تفترض الانحياز المسبق في أمر كالذي سنحاكم عليه، كان المهداوي والمدعي العام ماجد، أكثرهم سوءا في الحقد وقلة الحياء، بما كانوا يفعلون في مهرجانهم الخطابي، يعضدهما الهتافون الشيوعيون والشعوبيون، وهم يلوحون بالحبال لإرهاب من يتقدم إلى تلك المحكمة، وحتى أثناء المحاكمة، ومكان يلاحظ ذلك من على شاشة التلفاز، كان كأنه يقرأ في الأدب العالمي عن الأحداث التي رافقت (كومونة) باريس في القرن الثامن عشر، بل وأقسى من ذلك كثيرا..

ورغم أن المحاكم العرفية لم تكن معروفة بالدقة في ما تحكم، وأن قضيتنا كانت قد أحيلت إلى واحدة منها، بدفع من الحزب الشيوعي أيضا، باعتبار أن المقتول شيوعي، والمتهمين بعثيون، وفق ما كانوا يقولون، مع أن المنظمين فينا آنذاك ليس إلا أنا فحسب.. رغم كل ذلك صرنا نتمنى بقاء قضيتنا أمام واحدة من هذه المحاكم.. بعد أن راجت أقوال مستندة إلى ما هو حقيقي عن نية الشيوعيين سحب قضيتنا من أمام المجلس العرفي العسكري إلى محكمة الشعب (محكمة المهداوي). وقد دفع رئيس المحكمة العرفية، وهو ضابط برتبة عقيد، باتجاه التمسك بالقضية، باعتبار أن تحويلها إلى محكمة المهداوي، طعن في أهليته، وانتزاع للثقة به، مع أنه مخلص للزعيم، كما قال عندما قابل عبد الكريم قاسم، وقد تنفسنا الصعداء عندما صدر قرار عبد الكريم قاسم بإبقاء القضية أمام المجلس العرفي العسكري الأول، وكان مقره في معسكر الوشاش (حديقة الزوراء الآن)..

كنت قبل ذلك، تحسبا لاحتمال أن تحال قضيتنا إلى محكمة المهداوي، قد أقنعت شقيق ضابط الشرطة، الذي اعتقل مع خالي، واسمه عوني، وكانا من نفس المدينة التي ولدت فيها وهي مدينة بنت النهر، بأن يهيئ لي مسدسا، ويدخله، بعد أن يلفه في كيس (نايلون)، داخل أواني الطبخ، عندما يأتي لشقيقه ضابط الشرطة مهدي، الموقوف معنا في نفس السجن، ويناولني إياه بعد ذلك.. وقد كلفته بهذا، ليس لشجاعته فسحب، وإنما لنفوذه بين الشرطة أيضا، حيث هو شقيق مهدي، الذي كان آمرهم قبل وقت ليس بطويل، ولأن مهدي لم توجه إليه تهمة بعد، مما جعل الشرطة يتوقعون عودته إليهم، ويتسابقون على نيل رضاه، ومن خلاله رضا شقيقه عوني وانطباعاته الجيدة عنهم لينقلها إلى مهدي.. بالإضافة إلى أن كثرا من الشرطة كانوا (يودون لنا طرف) وفق التعبير العراقي، وكنت أقصد أن أستعين بالمسدس في اللحظة الحاسمة، وبعد أن نسيطر على من يفتح لنا الباب، نسيطر على حرس مدخل الباب النظامي، ثم نخرج كليا من السجن، وليكن ما يكون، بدلا من أن نبقى داخله، ونستسلم إلى محكمة المهداوي. ولكن إرادة الله كانت أقوى، وهي أقوى دائما، فدفع النار بالرمضاء، وهكذا أجلنا تنفيذ الخطة، وأجلنا إدخال سلاح إلى داخل السجن...

انشغل المهداوي بمزهلة المحاكمات، وبدلا من أن يحاكم رجال العهد البائد، أو أن تحل محكمة المهداوي، نشأت لها مهام جديدة لمحاكمة المناضلين والمجاهدين، أبناء الشعب والوطن الخلّص لدينهم وأمتهم وأرضهم وشعبهم وتاريخهم ومبادئهم، ومن ذلك المباشرة فورا بمحاكمة ثوار ثورة الموصل، وكان هذا العام هو العام 1959، وكان أكثر الأعوام حراجة ودموية بين أعوام حكم عبد الكريم قاسم، بالتحالف مع الثنائي الشعوبي والشيوعي، الذي انحرف عن مسار وأهداف ثورة 14 تموز 1958 الوطنية...

كان تلفزيون العراق يعرض محاكمة المهداوي للثوار، ولم يكن الذين عرضوا من على شاشته هذه المرة عملاء للاستعمار البريطاني، وفق ما كان يعرض في بداية الثورة، وإنما أبناء العراق، قادة جيش ومناضلون، وضباط من مختلف الرتب، بينهم قادة وآمرون، ضباط مشاة، وطيارون، ومن مختلف الصنوف.. ناظم الطبقجلي، رفعت الحاج سري.. ونافع داود الذي سملت عيناه، عندما قصفت طائرات عبد الكريم قاسم مقر عبد الوهاب الشواف في الموصل.. والذي كانت خطيبته قد أقسمت على أن تبقى على العهد وتتزوجه، إذا فلتت رقبته من حبل المشنقة أمام إصرار المهداوي وسيده عبد

الكريم قاسم على إعدامه..

فاضل الشكرة، شاب من الموصل، مليء بالغيرة الوطنية والقومية، وكان مسؤول فرع حزبنا هناك.. وواحد من أبرز الثوار. وكان دوره، بالإضافة إلى إدارة الإذاعة، تكوين ظهير للجيش من الشباب لإسناد الثورة.. وكان أولئك الرجال والشباب عكس ما كان عليه رجال العهد البائد، لا يتوسلون بالمهداوي، ولا بذاك غير الماجد وغير الأمين (ماجد محمد أمين)، الذي كان دوره مدعيا عاما، ولكن بدلا من أن يمارس واجب الإدعاء العام، كان يلقي خطبا سياسية مليئة بالشتائم والسباب، لتضاف إلى المهزلة التي كان المهداوي يمثلها بنفس الاتجاه، وإذا أراد المهداوي، أو ماجد محمد أمين أن يسيئا إلى أي من الذين تجري محاكمتهم أمامهما، كانوا يوقفونهما عند حدهما.. حتى أن ماجد محمد أمين عندما أراد أن يسيء إلى فاضل الشكرة بكلام خشن ضده، تكلم فاضل الشكرة بقوة ليوقفه عند حده، مذكرا إياه بأنه ليس كفئا له ليكلمه.. وما عليه إلا أن يحترم الرجال أصحاب المواقف العالية، وغير ذلك، مما جعل ماجد محمد أمين يلوذ بالصمت ولم يعد يسيء إلى فاضل.

كان فاضل الشكرة مفخرة ليس للبعث فقط، وإنما للشعب كله، بصلابته وتمسكه بمبادئه، وكان يعرف أنه صائر إلى الموت لا محالة، وكانت صلابة (نافع داود) مماثلة أو قريبة من ذلك.. ومعهم، أو بعدهم العقيد رفعت الحاج سري، وعموما كل الذين سيقوا إلى محكمة المهداوي من ثوار ثورة الموصل أبناء شعبهم وجيشهم، ومحل اعتزاز الشعب والجيش بموقفهم.. ولم يطلب أحد مهم رأفة الزعيم به مثلما كان إمعات العهد البائد يفعلون.. وأمر طبيعي أن لا يتساوى أهل المبادئ، أبناء الشعب الغيارى، مع أهل الذمة المدنسة، سقط المتاع الذين باعوا أنفسهم للأجنبي، وتخلوا عن كل ما هو مشرف ووطني، ولم يحفظوا الأمانة..

كانت أمام الشعب صورتان، واحدة كالتي عليها أهل العهد البائد، ويا لها من صورة مخزية بالموقف الذي كانوا عليه عندما كانوا حكاما، وعندما أصبحوا في قفص الاتهام أمام محكمة الشعب، قبل أن تتحول إلى محكمة المهداوي!! إلا واحدا نذكره لنكون منصفين للتاريخ وللرجال، بغض النظر عن رأينا بخلفيات مواقفهم السابقة، وكان هذا الرجل الذي اختلف موقفه عن الجميع، والذي كان صلبا بما يناسب صفته كرجل، هو سعيد قزاز، الذي كان وزيرا للداخلية، بعد أن كان متصرفا (محافظا) لبغداد.. وقد أعجب شعب العراق بموقفه الصلب ذاك أمام المهداوي، وهو الشعب الذي يحب للرجل، أي رجل، أن يتمسك بمستلزمات وشروط أن يحتفظ بصفة الرجولة تحت كل الظروف والأحوال، ولعل ذلك، والمقارنة بين ما كان عليه موقف كل واحد من العقداء الأربعة أثناء محاكمتهم عن ثورة 1941 ضد الإنكليز، وما تربى عليه البعثيون ليكونوا، وما علم الآباء أبناءهم ليحافظوا على معاني وقيم الرجولة والعروبة، كلها كانت حاضرة أمام أولئك الرجال والشباب، الذين وقفوا بصلابة وشمم أمام محكمة المهداوي، وقد باءت كل المحاولات التكتيكية بالفشل لجعل أي منهم يلتمس متهالكا (الزعيم الأوحد)، وهكذا كان عبد الكريم قاسم يلقب.. بل رفضوا هذا، بعد أن نطلق المهداوي بالحكم الذي لم يكن هناك من يتوقع غيره.. حيث صدر حكم الإعدام رميا بالرصاص وشنقا حتى الموت بالمدنيين والعسكريين الأبطال.

****

كان استياء ورد فعل الشعب والجيش شديدا على الحكم الذي صد ضد ثوار ثورة (الموصل)، أو من أتهم بالتعاطف أو الاتفاق معهم.. سواء لهذه المجموعة، أو لمجموعات غيرها في محاكم أخرى، ومع ذلك كان هناك من يعتمد على حسه ووجدانه لينطلق منه متصورا أن اللامعقول سيبقى" لا معقولا"، وأن المعقول هو الأساس في تفكير الإنسان، بغض النظر عن صفته، وما درى أن للحكم والحكام رأيا آخر في المعقول وغير المعقول، وأن من ينعزل عن الشعب، لا يعتبر المعقول سبيله للتعامل مع الشعب، ومعرفة نبضه ورأيه وموقفه.

كنا في سجن السراي.. وكان رئيس محكمة المجلس العرفي العسكري مترددا في البت في قضيتنا، لأنه يعرف أن لا مستمسكات يستند إليها للحك معلينا، ولكنه لا يستطيع أن ينطق بما هو مقتنع به.. وهل يستطيع كل واحد أن يصدر حكما في ظروف كالتي وصفناها، حيث يكفي أن يجمع أحدهم نفرا من الغوغاء الشعوبيين والشيوعيين ليصيح بهم ضد شخص يبيت له مكيدة: إنه بعثي، وضد الزعيم. ليهجم عليه أولئك، ويقال عنه بعد ذلك (رحمه الله).

في كل مرة نذهب إلى المحكمة.. كانت المحاكمة تؤجل، ونعود أدراجنا، ويبدو أن ذلك العقيد، العميد فيما بعد، حسنا فعل عندما كان يؤجل محاكمتنا، فقد كان يرى أنه غير قادر على أن ينطق بالحق على أساس القانون، مثلما يريد، إذ لو أجرى محاكمتنا، ربما سحب نفسه، أو سلم لمن يضغط عليه في مساومة لا يمكن أن تكون قانونية أبدا، ولا يمكن إلا أن تكون على حسابنا، أو في الأقل، على حسابي، حيث شهد ضدي ثمانية وعشرون شاهد زور، إلا واحدا، ولكن أي واحد منهم لم يقل إنه كان حاضرا في مكان الحادث، ورأى صالحا يطلق النار على الشيوعي، وإنما كان بعضهم يقول إنه سمع صالح يتوعد، وبعضهم يقول إن صالحا بعثي نشط، والبعض الآخر سمع أن المتوفى، بعد أن وجد مرميا على الأرض إثر سماع الإطلاقات النارية، قال إن صالحا هو الذي قتله.. إلا واحدا قال: إنني كنت في الساعة (كذا) أمشي في المنطقة التي وقع فيها الحادث، وما إن سمعت الإطلاقات، حتى وجدت القتيل على الأرض، ولما يفارق الحياة بعد، ثم جاء زوج أخته (فلان) بعدي، وعندما حاول أن يسند رأسه على صدره سأله:

- من أطلق النار عليك؟

- أشك أن صالحا، هو الذي أطلق النار..

وعندما حاول زوج أخته، أن يقول له:

- بل هو.. هو..

- بل أشك ولا أجزم، لأن الذي أطلق النار عليّ كان ملثما، ولم أتبينه.

كانت هذه الإشارة التي أدلى بها فارس في شهادته هي الحاسمة، فعندما لا يكون هنالك دليل مادي يسند الشك، ويثبته على كرسي اليقين، يبقى الشك شكا في محله، ويبقى اليقين يقينا في مكانه هو الآخر، وليس بينهما جسر مشترك..

وعندما سئل صالح..

- بماذا تعلق؟

- أقسم بالله العظيم، بأن كل الشهود الذين جاء بهم الحزب الشيوعي كاذبون، إلا واحدا تقدم بالشهادة بدافع من نفسه ولم يطلب منه ذلك، وهو فارس، الذي قال إنه حضر أولا، ولم ينفِ أحد من الشهود أنه أول من حضر، ولم يسبقه أحد.

كان فارس هو الشاهد الوحيد الذي شهد بالحق، وغيره لم يشهد إلا بالباطل والهوى، وما أوعز به الشيوعيون إليهم، وأهم دليل على ذلك هو أن عددا منهم أغمي عليه عندما كنت أناقشهم، قال صالح، وهنا أتذكر طرفة:

- كان أحدهم أميا، وقد لقنوه أن يربط بين مجيء عبد السلام عارف، الذي عيّن سفيرا للعراق دون رغبة منه في ألمانيا الغربية، في بون، وعاد للعراق من غير رغبة عبد الكريم قاسم. وقيل إنه جاء ضمن مؤامرة مدبرة، وفق ما قاله الشيوعيون وعبد الكريم قاسم، ولم نر شيئا منها.. وكان مجيئه يوم 4/ تشرين الثاني من عام 1958.. لقن الشيوعيون هذا الغبي قصة ترتبط بهذا الحدث، كي يثبتوا أن مقتل الشيوعي من قبل المتهمين، كان جزءا من مؤامرة شاملة تنفذ في اليوم التالي لوصول عبد السلام عارف إلى بغداد، وذلك في 5/ تشرين الثاني، وتستهدف الزعيم عبد الكريم قاسم، مثلما كانوا يقولون، ومن الطبيعي أن لا يتقن ذاك سرد هذه القصة، إذ بالإضافة إلى صفته التي ذكرنا، كان يعرف أن قصته مرتبة وغير حقيقية، وبما أنه فوجئ بأنني أناقش من يدلي بإفادته، وأنه لم يسبق له أن رأى حكاما ومحكمة وعقداء يجلسون خلف منضدة، وأن الجندي أرعبه وهو يقول، بصوت قوي: محكمة. معلنا بدء المحاكمة، وفوق كل هذا كانت إرادة الرحمن الرحيم، لذلك ما إن جاء دوره ليدلي بإفادته أمام المحكمة وهو فلاح أمي، حتى صار يردد خمسة وعشرين.. ويكرر خمسة وعشرين عدة مرات وهو يتلعثم ويمسح عرقه المتصبب، رغم أننا كنا في شتاء، وعندما سأله رئيس المحكمة:

- ماذا تعني بخمسة وعشرين؟..

- خمسة وعشرون؟

وعندها قلت لرئيس المحكمة:

- إن الأخ ملقن على ما يبدو، ليربط بين موضوعنا الذي نحاكم عليه، وبين 5/ تشرين، اليوم الذي تلا عودة عبد السلام عارف من بون، وما قيل عن مؤامرته.

وعندا سقط مغشيا عليه، وهو يردد بشكل هستيري بائس (خمسة وعشرين.. خمسة وعشرين) وحمل إلى خارج المحكمة.. وهكذا سقط آخر.. وآخر كلما شددت عليهم الخناق في المناقشة، وكلما سقط أحدهم كنت أقول:

- (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) صدق الله العظيم.

فيزداد شأننا، ويتدنى شأن المفسدين في الأرض من الشيوعيين الذين ما رسوا ما مارسوا من زور وبهتان، بالإضافة إلى جرائمهم ضد الشعب والجيش والوطن..

بعد إجراء محاكمتنا، واتضاح كل شيء، كان لا بد من اتخاذ قرار، حيث بقي رئيس المحكمة (شمسي) مترددا في اتخاذ القرار، وبعد أن استفسر محامينا منه، قال له بصريح العبارة:

- إن أي دليل على قول الشيوعيين واتهامهم الجماعة لم يثبت عليهم أبدا، وعندما أنطق بقرار لا بد أن أنطق بالحق وبالعدل..

- نعم، بارك الله فيك، يا حضرة الرئيس.. انطقها..

يهز رأسه ويقول:

- إن نطقتها سأوضع في السجن في اليوم نفسه، إذا لم (أسحل)، أو أقتل، خلف مكتبي هذا.. مشيرا

بيده إلى مكتبه الذي كان يجلس خلفه..
وعندما يقول له المحامي:
- لا أعتقد أن ذوي القتيل يفعلونها.
يقترب منه بعد أن يميل برأسه ناحيته، ويحرك كرسيه الدوار ليكون قبالة المحامي الذي يجلس قربه:
- لا أقصد ذوي القتيل، يا أستاذ، وإنما حزبه، أولئك المجرمون.. هل باستطاعة أحد أن يخلصني منهم، لو أرادوا؟..
يتابع المحامي:
- ولكن، ماذا يكون عليه موقف (الزعيم)؟!
يجيبه رئيس المحكمة (هامسا):
- عبد الكريم (خلاص) صار منهم، إن لم يكن منهم أساسا، وخدع القوميين ليثوروا معه..
(يفرك) المحامي جبينه، وكأنه يشحذ ذاكرته، ويحرك رباطه ليكسب الوقت، بأمل أن تحضر فكرة في ذهنه، ولكنها لم تحضر، لذلك قال، ووجهه مطرق إلى الأرض، ورأسه يميل باتجاه رئيس المحكمة:
- ولكن يا حضرة رئيس المحكمة، الجماعة أبرياء.
وحين نطق كلمة (أبرياء) لمعت في رأسه فكرة، كأنها أنقذت الموقف كله، وأنقذتنا، وأنقذت رئيس المحكمة.. بإذن الله..
- لدي فكرة.. قال المحامي..
سأله رئيس المحكمة بلهفة، وهو يقرّب كرسيه من المحامي أكثر فأكثر، كأنه يبحث عنها أيضا:
- ما هي؟
- لماذا لا تأخذ إجازة، ويتولى عضو اليمين العقيد حسين العاني النطق بالقرار في غيابك، وبذلك ننجز الموضوع، و (نخلص).
عندما قال كلمة (ونخلص)، بدا كأنه قال في نفسه:
- لو أرجعت الخمسين دينارا، أجور المحاماة، واعتذرت عن القيام بواجبي، مثلما فعل عبد المحسن، من قبل، عندما اشتد عليه ضغط الشيوعيين في نقابة المحامين، لكان أفضل.
أخذ شمسي، رئيس المحكمة، إجازة، وصادف، أو كأن العميد شمسي أراد ذلك بالاتفاق مع العقيد حسين، أن النظر في قضيتنا والنطق بالحكم قد حان بعد يومين أو ثلاثة من إجازته، وفق الجدول المقرر للمحكمة.. وقد استدعينا إلى معسكر الوشاش.. وكنا في قلق شديد مثلما في المرات السابقة، عندما نخرج من السجن ونتجه إلى معسكر الوشاش لنحاكم في المحكمة العرفية هناك.. ذلك أن الموت صار منا قاب قوسين أو أدنى، ونحن في السيارة المخصصة لنقل المعتقلين، وكانت سيارة (بيكب) خضراء اللون، على جانبي حوضها الخلفي مصاطب من خشب مصفوفة بصورة متقابلة من الجهتين، ويغطيها قفص مشبك من جوانبها، ومن الأعلى، يتيح للمعتقل فيها أن يرى من الداخل ويراه الآخرون من الخارج، وصادر أن مرت سيارتنا في شارع الرشيد، الذي كان مقررا أن تجري فيه فعاليات للحزب الشيوعي في ذلك اليوم، وقد جمع أنصاره ومؤيديه من كل أنحاء العراق، رغم أن قيادته قالت بصحيفة (الشعب): إن الجماهير التي ستشارك في الفعاليات من بغداد فقط.

صرنا تقريبا في منتصف شارع الرشيد، وقبل أن نستدير باتجاه جسر الشهداء إلى معسكر الوشاش، حيث المحكمة العرفية العسكرية، صرنا وسط التظاهرة الشيوعية، وقد تجمع علينا أصحاب الوجوه الكالحة، وهم (يشبون) يقفزون على سياج السيارة، ويسألون الشرطة المسلحين الذين كانوا

يجلسون إلى جانبنا:
- من هؤلاء؟ وهم يشيرون بأيديهم إلينا.. أهم ضد الحزب الشيوعي؟ أهم ضد الزعيم؟ ما هي قضيتهم؟
وراحت القلوب تدق مسرعة، كأنها هي الأخرى تحاول أن تفر من أقفاصها مثلما كنا نحاول، لو أتيحت أمامنا في تلك اللحظة فرصة الهرب من قفص السيارة، لأن واحدا فقط من بين تلك الحشود لو عرفنا، لمتنا شر ميتة.. ولكن الله، سبحانه، لا يغفل، ولا شيء يحجب نظره عنا وهو في عليائه، ومع إيماني بالله، وضعت عيني على سلاح الشرطي الجالس قربي، كي أنتزعه منه، أو أستأذنه لأخذه منه، عندما يهجمون علينا، لنأخذ حقنا منهم، قبل أن نموت، لذلك تبادلت النظرات مع المتهمين، وخاصة مع ياسين وكريم.. ولكن الضابط بأمور الدورية التي تتولى حراستنا إلى حيث المحكمة قال:
- إنهم، وكان يقصدنا، من عشائر الجنوب، وقد تقاتلوا فيما بينهم، ومتهمون بقتل.
فتركونا وانصرفوا، وما إن تحركت مظاهرتهم مبتعدة عن السيارة باتجاه الباب الشرقي، حتى استدارت بنا السيارة منعطفة إلى اليمين، واضعة المتحف البغدادي، الذي يضم صورا عن جانب من حياة بغداد والبغداديين إلى يمينها، هو وسوق السراي، وسوق القماش إلى يسارها، إلى حيث جسر الشهداء.. وما إن صرنا فوق الجسر، حتى تداعت في مخيلتي أحداث الجسر، وكيف استشهد عليه من استشهد بتلك المقاومة الباسلة للطلاب عام 1952، حين كان صالح جبر رئيسا للوزراء، وما زالت (هوسة) أهزوجة جماهير بغداد تتناقلها الألسن حتى الآن (نوري سعيد القندرة.. وصالح جبر قيطانها)، وذلك الفعل الإجرامي الدموي الذي وجه ضدهم من النظام الملكي العميل، بنصيحة، بل بتوجيه من سفير بريطانيا (العظمى)، من مقر السفارة الكائن في الصالحية.. وعندما تتلاشى من أمامي صور الشهداء وإطلاق النار عليهم، تحلق مخيلتي وأنا فوق الجسر إلى سوق الجديد، ومن بعده إلى خضر إلياس، حيث جدتي وخالاتي وعدنان، وحيث عابدة أيضا..

اطمئني فكلُّ سرٍّ مصونُ
فبقلبي حفظتُهُ وجفوني

كيف لي أن أبوحَ سراً عزيزاً
هو عندي أعزُّ ما في شؤوني

أنتِ في الصدرِ لي حضورٌ بهي
وعلى الأفقِ أنتِ صوتُ سنيني

أنتِ دمعي وبهجتي وشجوني
أنتِ حصني وأنتِ كلُّ حنيني

أنتِ من كلّما أطلّ على الكونِ منها
فيكِ روحي وخافقي وعيوني

لأرى فيكِ كلّ ما أتمنى

كاملَ الوصفِ رائعَ التكوينِ

لا رعى الله عاذلاً لو ثناني
عنكِ واستبدل الهوى بالظنونِ

ثم أعود بعد ذلك إلى نفسي، وخالي، وابن عمي، وعمي إبراهيم، وابن عم والدتي، وإلى ما سيؤول إليه مصيرنا، حين تنطق المحكمة بالحكم بعد سماع دافع المحامي هذا اليوم.. ثم أتساءل: أي حكم سيكون؟ وعندما أستعرض حيثيات المحكمة، وإفادات الشهود، لا أجد ما يقلق فيها، ولكن هل يكون الأساس حيثيات موضوعية في محكمة عرفية عسكرية في الظروف التي أوضحناها، ثم أعود لنفسي، فأقول إن رئيس المحكمة والأعضاء، العقيد حسين فرحان، عقيد في الجيش، ولا بد أن يكون كل عقيد شجاعا، ألم ينتمِ الشهداء، العقداء الأربعة، الذين ثاروا على الإنكليز في عام 1941، إلى نفس الجيش الذي ينتسب إليه العقدي حسين فرحان!؟.. وعندما أجيب: نعم، تحلق روحي كطير يرفرف جناحاه فوق خضر إلياس، وأرى أحلامي تتحقق بأن أنجز دراستي، وأكمل الثانوية..

ثم أتساءل مع نفسي: أي كلية سأدخل؟ فأقول بإصرار: الكلية العسكرية.. ثم أجفل عندما أستعرض الوضع السياسي..

لأقول: وهل سيمكننا من هذا حكم عبد الكريم قاسم والشيوعية؟ ثم أعود بذاكرتي.. وأتذكر أنه لم يقبلوني أنا وعدنان في كلية القوة الجوية من قبل، بحجة أن نظر عيني عدنان لم يكن (6/6)، ورفضوا قبولي بحجة نقص في وزني قدره ثلاثة كيلوغرامات، وأعطوني مهلة أسبوع واحد لأزيد وزني، وهم يعرفون، ولعلهم لا يعرفون أن شابا في مرحلة نمو، حيث لا (نستله) ولا حلويات تؤكل، وفق ما يشتهي الإنسان، مثل بعض الناس الآن، يصعب عليه أن يزيد وزنه ثلاثة كيلوغرامات في أسبوع واحد.. وإذا كانوا لم يقبلوني، ولم يقبلوا عدنان،قبل أن أتهم بهذه التهمة، فكيف لهم أن يقبلوني بعد هذا، حتى لو نطق رئيس المحكمة العسكرية العقيد حسين بالبراءة؟ ثم أعود لأقول: ألم يقبل عدنان في الكلية العسكرية، بتسهيل أمر قبوله من القوميين والبعثيين، رغم أنني وعدنان لم نقبل في كلية القوة الجوية؟.. إذن يمكن أن يدبر البعثيون والقوميون قبولي أيضا.. ثم أعود لأتساءل: وماذا لو لم يحصل هذا؟.. وما هي الكلية التي سأختارها؟.. وقبل أن أتوقف عند هذا التساؤل، أعود لأجفل مرة أخرى.. وأنا أستذكر رئيس المحكمة الأصلي قبل التمتع بالإجازة.. فأقول: أليس شمسي عقيدا، ومع ذلك كان خائفا، ولم يستطع أن ينطق بالحكم؟ إذن، ليس كل عقيد عقيدا!!..

ومن أجل إنصاف العقيد شمسي، بغض النظر عن دوره ودور حسين فرحان، أقول إن العقيد شمسي كان محقا في هواجسه، ذلك أننا سمعنا بعد انتهاء المحاكمة، التي سيأتي ذكرها، بعدد من الأيام، أن الشيوعيين هجموا عليه وهو في بيته الكائن على مقربة من شارع عمر بن عبد العزيز في الأعظمية، ورغم أنه حاول أن يستنجد بالانضباط، وربما اتصل (بالزعيم) عبد الكريم قاسم أيضا، وكان العميد في الجيش يسمى (زعيما)، ومن هذا اشتقت صفة الزعيم التي أطلقها الشيوعيون والشعوبيون على عبد الكريم قاسم، أي اشتقت من رتبته، التي كان عليها عندما قامت ثورة 14/ تموز.. ورغم أن العقيد شمسي اتصل بالجهات العسكرية المعنية، ولكن أحدا لم يأتِ لإنقاذه، وإنقاذ عائلته المهددة

بالسحل والقتل، وهنا تذكر صفته العسكرية، ورتبته كعقيد في الجيش، وحمل عليهم ببندقيته، وأطلق النار عليهم، فولوا هاربين من أمامه، وبذلك خلّص عائلته وخلّص نفسه، وهكذا يمكن القول إن رتبة العقيد وما هو فوقها، أو أدنى منها، عندما تفعل فعلها على أسا سمعناها، تخلص من تخلصه من الخطر، وتحقق مثابتها في خدمة معاني الجيش، وفي الدفاع عن الوطن..

توقفت دواليب السيارة، محدثة صوتا بكوابحها.. وإذا بنا أمام الغرفة نفسها (2.5× 3 أمتار)، وهي غرفة مخصصة للحراسة أصلا، وأنا أعرفها.. وقلت في نفسي لقد خزّنا بها مرات، ونحن ننتظر وقوفا حتى نستدعى إلى المحكمة، وها نحن نخزن في هذه الغرفة مرة أخرى أيضا.. ولكن جاءنا من يقول إن النطق بالقرار مؤكد هذا اليوم، ولأن الشيوعيين كانوا يحضرون في قاعة المحكمة وخارجها، فقد أنفذنا إشعارا إلى بعض أعمامنا ليحضروا إلى هناك تحسبا لأي طارئ.. وقد حضر جمع من أعمامنا إلى هناك فعلا، وحضر عدد من الشيوعيين يتقدمهم محامون، منهم من كان من قياديي الحزب الشيوعي، بينما كان لنا محامٍ واحد، مثلما ذكرنا، لأن الثاني خاف وانسحب..

- محكمة..

الجزء السابع عشر

- محكمة..
صاح الجندي المخصص لذلك، ولكن قلبي لم يخمشني عندما صاحها.. كنت مطمئنا إلى أن القرار سيكون إلى جانبنا، ومثلما يحتاج الحق لأهله، بعد الله، لكي يظهر، فإن القانون يحتاج لأهله لكي يطبق، من غير أن تأخذهم في تطبيقه وفق ما يرون لومة لائم..

بدأ حسين فرحان المرافعة بالقول: على كل من هم داخل فضاء المحكمة، وليس لهم عمل قانوني، أن يخرجوا.
وصار واضحا لي ولغيري أنه يمهد ليقول قراره من غير تشويش، ولكن إلى أين سيتجه قراره؟ لا أحد يعرف، إلا أن كل من كانوا داخل أو خارج القاعة انشغلوا في التخمين الأقرب إلى هواجس أو هوى كل منهم، وربما انخفضت درجة الحرارة في بعضهم، فيما ازدادت لدى آخرين، ولكن لم يتثاءب أحد مثلما حصل في مرات سابقة.

ضرب رئيس المحكمة حسين فرحان منضدته بالمطرقة الخشبية، كأنه يقول بحزم: أن اقطعوا الكلام.. ولا يتكلم أحد..
صار أي صوت يسمع من الجميع بعد ذلك، بل.. حتى المتهمين في قفص الاتهام..

وبعد أن قرأ ديباجة الحكم قال: قررت المحكمة بإجماع أعضائها الحكم.. وقبل أن يضيف كلمة (ببراءة) بعد قوله الحكم.. بدت الفاصلة كأنها دهر، وكان ظننا في تلك اللحظة أنه سيصدر علينا حكما

محددا، وحبست الأنفاس في الصدور، كأنها أبت أن تخرج منها، لأننا لم نكن نعرف أن الحكم سيصدر بالبراءة أو الإفراج، أو بالإدانة أيضا.. وعندما قال ببراءة: مال الله، إبراهيم، أحمد، ياسين، عبد الكريم، سليمان، سكت لحظة، فعاد النفس لينحبس في صدورنا لأنه لم يلفظ اسم صالح بالبراءة، وعادت الهواجس والظنون بأنني سأكون ضحية، وثمن مساومة أفدي بها احتمالات الخطر عن رقاب أعضاء المحكمة، أو ما يمكن أن يصيبهم من أذى.. ولكن ما هي إلا لحظة، وإن كانت ثقيلة وطويلة، حتى قال: وحكمت على صالح.. وتوقف الزمن مرة أخرى، أو هكذا بدا لنا.. وصار بين عبارة (حكمت على).. وبين النطق (بالإفراج) كأنه دهر، وعندها هتف خالي مال الله: يحيا العدل.

قد تعالى اللهُ في قدرتهِ
نحنُ في قدرتهِ كنّا ازدهينا

إن سعى الناسُ إلى جنتيهِ
فلعليينه نحنُ سعينا

كان حسين فرحان رجلا جديا في منظره وفي تصرفه، وكان في حوالي الخامسة والأربعين من عمره، يحلق شعره على طريقة العسكريين بأن يلح في حلاقة شعر جوانب رأسه، و(يعيل) عليه، ويترك في أعلى رأسه شعرا لا هو بالطويل، ولا هو بالقصير جدا.. وكان الشيب يعلو فوديه، بما يجعله على لون شعره الأسود..

لقد نطقها حسين فرحان، ولم ينطقها شمسي.. ومع أن من نطقها حسين وليس شمسي، فقد أحيل شمسي إلى التقاعد قبل حسين.. ومع أنهما أحيلا إلى التقاعد، والتقاعد ليس سهلا على الضابط، ولكن فخر حسين بموقفه كان أعلى من فخر شمسي بموقفه.. وإذا كان لكل درجة اعتبار مستواها بمستوى ما يقدم صاحبها من التضحية مثلما في قوانين القادر العظيم، فهي كذلك أيضا وفق نواميس الحياة!.. نعم، حتى نمط البصمة التي يتركها كل إنسان للتاريخ تتشكل على هذا الأساس، بل أكاد أقول حتى قبور الناس، إنما ترى فوق الأرض، أو تعرف ويهتدي الناس إليها، ليقرءوا سورة الفاتحة على أصحابها، بمستوى ما قدم كل واحد منهم من تضحية، بما في ذلك لو اقتصر تاريخه على فعل أو قول الخير فحسب، من غير هامش يضع الروح أمام الاحتمالات الأخطر.. أليس عمل الخير للآخرين تضحية؟ وإذا كان كظم الغيظ فضيلة، استدعت أن يطريها الله، بعد أن حثّ عليها في قرآنه الكريم (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) وعلى أساسها أعطى الناس الإمام موسى صفة (الكاظم) وصرنا جميعا ننعته به، ونسميه (موسى الكاظم).. فإن عمل الخير معروف أيضا..

إن النطق بقرار كهذا لا بد أن يلقم العتو والفساد في الأرض حجرا، ويجعل المؤمنين يعلون اسم الله فوق الأرض مثلما هو عالٍ، تعالى ربّ العالمين، ويمحق كيد الكافرين.. وهكذا، دخل حسين فرحان التاريخ بنطقه بذلك القرار، وصار رمزا عاليا في القضاء العراقي العادل والحازم.. ونطق معه كثر من

القضاة بقراراتهم، دون الالتفات لهوى الشيوعية والشعوبية، فكانوا أبناء بررة للعراق العظيم، وصورة مشرقة للقضاة، بوجه من صاروا مطية، أو وسيلة للشعوبية، وأزلاما لعبد الكريم قاسم، بحكمهم على الأحرار بما يوافق الهوى..

كان العراق يغلي بعد الحكم بالإعدام على مجموعة ناظم الطبقجلي والعقيد رفعت الحاج سري.. وكان عددهم في تلك الوجبة اثنين وعشرين فحلا مجاهدا.. وكان الغضب تحت هذا العنوان شبه ملجوم تحت القول: ربما يعفو عبد الكريم قاسم عنهم.. ولكن آخرين كانوا يطلقون العنان لخيالهم بالقول إن ثورة الموصل ربما جعلته يصحو على الواقع، ويعرف أن الشعوبية والشيوعية ورطتاه بما جعله يكون على طرفي نقيض هو والشعب والجيش.. ثم راح كلّ يروي رواية حسب خياله وهواه.. فمنهم من يقول، ربما يعفو عنهم، ولا ينفذ حكم الإعدام، بعد أن سمع صوت الشارع العربي الذي جاءه ببرقيات احتجاج، تضمن بعضها تحذيرا بأن لا يفعلها، وينفذ حكم الإعدام بالأحرار..

هذه الأرضُ التي ما إن نموتُ
تحتوينا لهفةً أن لا نعود

فلقد منها خُلقنا ولقد
تكرمُ الأجسادُ فيها بالخلود

حقها عيناً علينا إننا
نرخصُ الأرواحَ إن لاقت جحود

****

ولكن الصدور كانت تغلي في الداخل، وبدأ نشاط حزبنا المنظم يأخذ مدى أبعد بين الجماهير، وداخل الجيش أيضا.. في هذه الظروف، وبعد خروجي من السجن، جاءني مسؤولي الحزبي ليقول لي.. إن محمود الذي التقيته في سجن السراي يريد أن يراك لأمر بعينه، وقد كلفه الحزب بذلك.. وأن كلمة السر (.......)..

جاءني محمود، وبعد أن تعانقنا، ورحبت به، وقال لي: الحمد لله على السلامة، لما واجهته من ظروف صعبة.. بل لعلها محنة حقيقية.. قال:
- أتذكر الأيام التي قضيتها معك في سجن السراي، وأتذكر أنك.. قلت لي أن ليس من حل يفتح الطريق أمام الشعب والجيش إلى نوع جديد من الحياة إلا بإزاحة عبد الكريم قاسم..
عندما قال ذلك، عرفت أن محمود خزن ما جمعه عني من صور واستنتاجات و تقييم، عندما كان معي في سجن السراي، ولا بد أن يكون قد أفضى بهذا إلى من اتصل بهم من الحزب، وعلى أساسه جاءني بتكليف من الحزب لدور ما..
فقلت له:
- أجل.. قلت ذلك وأتذكره.
قال بعد أن تأخر قليلا:

- لقد رشحتك لدى الحزب لعمل فدائي ضد عبد الكريم قاسم، وسأكون معك في هذا العمل..
ودون أن ينتظر جوابي، سألني:
- فماذا تقول؟
قلت، بعد أن نظرت إليه وأنا أبتسم:
- وهل بعد قول الحزب قول!؟..
قال الرفيق محمود:
- نعم.. على قاعدة ما هو مثبت في النظام الداخلي، تعبيرا عن قيمة رأي الفرد، في ظل العمل الجماعي والقرارات الصادرة باسمه، من غير أن يوقف العمل، أو يغيّر القرار: (نفذ ثم ناقش)..
قلت له مازحا وأنا أبتسم.. وكان واضحا أن المسرّة، بل السعادة غمرتني، وأفصحت السعادة عن نفسها بحيث لاحظها محمود:
- عندما ننفذ، إن شاء الله، يحق لمن يريد مناقشة قرار القيادة أن يناقشه. ولكن، أبعد كل هذا التكريم الذي منّ الله به عليّ وعلى أهلي، بأن أوحى للقيادة أن تختار صالحا من بين آلاف البعثيين لهذه المهمة المشرّفة، وتريدني أن أناقش؟ الحمد لله على كل شيء، وأشكرك، وأشكر القيادة على تكريمكم وتقييمكم لي بهذا المستوى.. وأنا جاهز لهذا، يا رفيق..
قام محمود من فوره، وعانقني.. اتفقنا على الخطوة اللاحقة.. ثم ودعني، وانصرف..

****

" من لا تحمّر عينه غضبا ضد انحراف، يسهل تسوّر داره، ومن لا يسعى لعمل صالح لكسب ود الآخرين، بعد رضا الله، صدّوا عنه، واستغنوا عن رضاه"..
استمرت الحياة السياسية والأمنية تتدهور، واستمر الحزب الشيوعي والشيوعيون يضغطون على عبد الكريم قاسم، ليتوغلوا أكثر وأكثر داخل السلطة والجيش، واستمر القوميون، بوجه عام، يقودهم البعث، في موقفهم الأصيل..
أبلغني محمود بأن أكون جاهزا في صباح اليوم التالي، عندما زارني في أحد الأيام، وقال إن واجبنا الآن أن نذهب، مع ما تم تهيئته من أسلحة، إلى منطقة ما خارج بغداد، لنتدرب عليها في أرض خلاء..
قلت له:
- أنا أجيد استخدام الأسلحة..
قال:
- ليس الرشاشات طبعا..
قلت:
- من يجيد استخدام الأسلحة، يجيد استخدام الرشاشة..
- مع ذلك لا بد من التدريب..
- نعم، ولكنني أردت أن أطمئنك على أنني أجيد استخدام السلاح..
- أعرف ذلك..
ثم تبسم، وانصرف بعد أن اصطحبته إلى الباب، وودعته هناك.

التقينا في صباح اليوم التالي، بعد أن تجمعنا في مكان محدد، وهناك عرفت رفاقا آخرين، هم المجموعة الفدائية التي قررت القيادة أن أنضم إليها لتنفيذ الواجب.. قدمهم لي مسؤول المجموعة، بعد أن قدم نفسه باسم عبد الرحمن.. هذا محمود وأنت تعرفه.. وهذا سمير.. وحاتم.. وسليم.. وعبد الوهاب.. وسلمت عليهم واحدا واحدا.. وقال لهم عبد الرحمن: إنه (ويقصدني) فدائي جديد من رفاقنا، وقد تكونون مطلعين على أخباره.. إنه صالح..

توجهنا في سيارتين، إحداهما دوج موديل 1956 على ما أتذكر..
كان عبد الوهاب دليلنا إلى نقطة ما في المحمودية، وهناك، كان أبو طارق بانتظارنا على الشارع العام.. وكنا قد.. خبأنا أسلحة التدريب تحت (كشنات) السيارة.. وكن أحمل مسدسي الشخصي بحزامي..

توقفنا، بعد أن خرجنا قليلا عن حافة الشارع اليمنى، بعد المحمودية مباشرة، واضعين بغداد مسندا لظهورنا، وكان دليلنا، أبو طارق الذي ركب في السيارة الأمامية، وبعد المحمودية بمسافة ليست ببعيدة، انعطفنا إلى اليمين، وصرنا نسير على طريق ترابي، وتوغلنا في عمق صحراء قاحلة.. كان الوقت صيفا.. وصلنا إلى نقطة معلومة، أرادها أبو طارق مكانا للتدريب حسب خبرته.. ترجلنا وأخرجنا البنادق والعتاد..

كان العتاد محدودا، ومع ذلك كان كافيا بالنسبة لمن يجيد استخدام السلاح، ويريد أن يعرف خواص الرشاشة التي يستخدمها فحسب، والطريقة التي يضمن استقرارها غريزيا على الورك، عند الرمي على الهدف، صليا ومفردا.. ولأن المهم هو الرمي صليا، حيث المجال لا يتسع للرمي المفرد في مثل هذه العملية.. فقد ركز على هذا الأمر من بدأ يشرح لنا ذلك..

بدأنا نسدد على نبتة (شوك) كانت على الأرض، أو شجرة (صريم) نشرنا فوقها منديلا أو قطعة قماش.
باشرت الرمي مفردا، ثم (صليا)، ولم أعد أتذكر من أصاب الهدف ومن أخفق.. وكيف لنا أن نعرف هذا من خرقة منشورة على نبتة (شوك). ما إن توجهت إليها النيران حتى التهمتها!! وبقينا نطلق على بقاياها.. كان الكل متحمسين للواجب، وصار بعضهم كأنه يستعجل ممثل القيادة، الذي التقى بنا فيما بعد، على الإسراع في تنفيذ العملية قبل أن تكشف..

عدنا من هذه السفرة إلى بغداد، وبعد أن أوصلني الرفاق إلى رأس جسر الشهداء من ناحية الكرخ.. ذهبت مشيا إلى خضر إلياس، بأمل أن نلتقي في اليوم التالي.. وهكذا صارت لقاءاتنا متقاربة..

****

لم ينفذ عبد الكريم قاسم حكم الإعدام بالضباط وبفاضل الشكرة، المدني الوحيد بين تلك المجموعة المؤلفة من قادة عسكريين وآمرين وضباط برتب متباينة، ويبدو أن الضغوط العربية، جعلته يتردد في هذا، وربما لاعتبارات أخرى أدخلها في حساباته الخاصة.. ومع عدم تنفيذ حكم الإعدام، بلغنا بأن

الحزب أجلّ تنفيذ العملية إلى إشعار آخر.. كان السبب الأساس لقرار التأجيل هو انتظار ما يمكن أن يسفر عنه الضغط العربي الشعبي والرسمي، بأمل أن يؤدي إلى استبدال حكم الإعدام بحكم أخف.
كان قرار القيادة تأجيل تنفيذ العملية ثقيلا علينا بوجه عام.. وربما كان ثقله عليّ هو الأكبر.. ومع ذلك لم أضجر، أو أبدِ أي ملاحظة على القرار..

****

في أحد أيام صيف عام 1959، وربما في بداية خريف عام 1959، نفذ عبد الكريم قاسم حكم الإعدام رميا بالرصاص في الضباط الأبطال في منطقة أم الطبول، حيث موضع الجامع الحالي، ومعهم البطل فاضل الشكرة..
خرجت تظاهرة حاشدة حزينة غاضبة، أعد لها الحزب، انطلاقا من الأعظمية، حيث بيوت بعض القادة العسكريين، ومنهم ناظم الطبقجلي، ورفعت الحاج سري.. وكان حجم مشاركة العنصر النسوي فيها كبيرا.. وكانت النساء يلبسن السواد، ومع الهتافات التي كانت تعلو في كل مكان.. كانت النسوة يلطمن الخدود، ويولولن على الأبطال الذين أعدموا.. وكان من ينظر إلى تلك التظاهرة التي اتجهت إلى وزارة الدفاع، حيث مقر عبد الكريم قاسم، يتصور أن بغداد خرجت كلها في ذلك اليوم، الذي كان يوم حداد وغضب، ولأول مرة يفصح العراقيون من خلال جماهير بغداد بشعارات تدعو إلى الثورة ضد عبد الكريم قاسم.. وتتعالى الهتافات..
يا بغداد ثوري ثوري
خلّي قاسم يلحق نوري

والقصد هو الثورة على عبد الكريم قاسم، ليحلق ميتا بنوري سعيد، الذي قتل في ثورة تموز 1958 من قبل.. وقد حشد عبد الكريم قاسم القوة التي كان يأتمنها، وهي قوة الانضباط العسكري، التي حوّل واجباتها من قوة انضباط في الجيش (شرطة عسكرية مثلما تسمى في بعض الجيوش العربية) إلى قوة لمكافحة التظاهرات، وجزء من أمن عبد الكريم قاسم.. وكان على رأسها العقيد عبد الكريم الجدّة العميد فيما بعد..
أحاطت تلك القوة بالتظاهرة من كل جانب، إضافة إلى ما تحشد معها من قوة الشرطة.. ولكنها لم تضرب التظاهرة، وقبل أن تصل التظاهرة، ونحن فيها، جسر الحديد، كانت مدرعات عسكرية تقطع الشارع وتتهيأ لإطلاق النار.. وعندما تيقنت قيادة التظاهرة التي كان الحز قد أعد لها وقادها، بأن لا أمل في الوصول إلى وزارة الدفاع، وأنها إذا ما أصرت على ذلك، كان الموت في انتظار هذه الحشود الغفيرة من الناس، رجالا ونساء، شيوخا وصبايا وصبيانا، توقفت التظاهرة عند الحاجز العسكري الذي كان يبعد بضع مئات من الأمتار عن وزارة الدفاع، حيث مقر عبد الكريم قاسم، وتفرقت بعد أن أسمعته صوت الغضب الشعبي..

****

" من لا يحسب حسابا لغضبة الآخرين دفاعا عن حق.. خاف منهم"..

كان تنفيذ حكم الإعدام في أم الطبول بضباط الجيش وأحرار العراق على ثلاث وجبات في 1959/4/5 و 1959/8/25 و 1959/9/20، هو الحد الفاصل بين أي أمل في إمكانية إصلاح عبد الكريم قاسم، وبين سقوطه إلى الهاوية، وهو يحاول مثل ثور أو بغل يدور على محور دوار، يخرج الماء مع حركته بالدلاء على (سربس)، فعندما يخطئ التقدم ويحرن، يسقط في البئر الذي يسحب الدولاب الدوار منه الماء بالدلاء.. ويسحب معه عند السقوط كل الدلاء، وربما الدولاب الدوار أيضا، إلى قعر بئر مظلم..

صار سقوط عبد الكريم قاسم مؤكدا ونهائيا بإعدامه الأحرار، تنفيذا لرغبة الشعوبية التي لبست ثوب الشيوعية، وكأنه بهذا أراد إحراق العراق من غير أن يترك له أثرا إلا بقايا رماد.. وبماذا يمكن أن يوصف نظام الحكم الذي يخضع للشيوعية، التي تدعو إلى الإلحاد والرذيلة، والتخلي عن المعاني الأصيلة للشعب، والتي إذا حكمت يكون قانونها قانون الأشياء التي تنعدم فيه أي ولاية للرحمن الرحيم، وقانون الميكافيلية الغربي، الذي يقوم على فكرة الغاية تبرر الوسيلة أو الواسطة، وأن المادة وقوانينها هي ما يعترف به فحسب، وليس أي حال آخر؟ وما الذي يمكن أن ينتظر من حكم تحرّكه نوازع الشعوبية المعادية للعروبة والأمة العربية، غير مزيد من الشر والأذى، اللذين يعقبهما انحداره إلى الهاوية؟

ماذا يكون بعد حال كهذا لو تحقق بمداه غير أن يحترق العراق، عندما يحترق أكثر من 1400 عام من تاريخ العراق، وعندما تحترق روح بغداد، التي تأسست عليها، حتى صارت منارة ضوء للإنسانية كلها، ودليلها في الليل البهيم والتصحر!؟

ماذا يعني هذا، لو حصل، غير القول إن العراق يحترق؟ وماذا يعني هذا غير الانسلاخ عن جسد الأمة، بعد أن تنتزع روحها من أرض العراق، فيتحول العراق من دور الهادي للأمة، وجمجمة الحكمة فيها، ودرعها وسيفها، إلى دور الضائع الضال الذي لا يترك مجالا لمن يهديه إلى حيث ينبغي، بعد أن يتخلى عن دوره الطليعي القيادي عندما ينسلخ عن أمته، ويتمرد على روحها، ويغترب عنها وعن نفسه؟ ولو حصل هذا، لا سمح الله، هل كانت حدود تأثيرات الحزب الشيوعي ستبقى على نطاق ضيق، مثلما كانت في اليمن الجنوبي (اليمن الديمقراطية)، وبين صفوف الأقليات، والتيارات الشعوبية المحدودة في لبنان وسوريا، وأجزاء من الوطن العربي الكبير، أم يوقع ثقل العراق الواقعي والتاريخي آخرين معه في وهم الشعوبية وخداعها، فتنقسم الأمة، وتحترب إلى أن يشاء الله، حاميها؟

للشعوبية جذور عميقة وقديمة في العراق.. ويمتد وجودها ونشاطها إلى بداية نشوء الدولة الأموية، وقد لعبت دورا في تقويض هذه الدولة، ليس كرديف نشط للأسباب الأخرى، وإنما كانت أحيانا الأساس، والأسباب الأخرى محض غطاء أو أغطية لتخفي أغراض وأهداف حركتها. وفي كل الأحوال، كانت رديفا جاهزا ونشاطا لكل سبب تجد في مرافقته والتأثير فيه ما يحقق لها أغراضها.. وعندما سقطت الدولة الأموية، سقطت بسقوطها أي فرصة لتوسع الدولة العربية الإسلامية، عدا تثبيت ما حصل عبر البحر الأبيض، حيث أسس الأمويون في الأندلس، عبره دولة جديدة، ووضعوا بينهم و بين الدولة العباسية بحرا، وبقي تأثير الدولة العباسية في المغرب العربي ومستوى إحكام قبضتها هناك

مرتبطين ومتأثرين بما يمكن أن يؤثر على ولاء المغرب العربي وهو يحتضن فتحة جبل طارق، التي تقع على طرفها الآخر دولة مناوئة، هي الدولة الأموية، التي أسسها صقر قريش، مثلما وصفه باستحقاقه غريمه أبو جعفر المنصور، فأنصفه وأنصف نفسه في التاريخ..

ولكن الشعوبية في العراق لم تلق السلاح بسقوط الدولة الأموية وبتولي العباسيين السلطة بدلا عنهم، ذلك أن أطماعها لا تتوقف باستبدال عربي بعربي، حتى لو كان أناس شعوبيون رديف من هم في السلطة من العرب، مثلما كان أبو مسلم الخراساني على عهد أبي العباس السفاح، وإنما بإلغاء دور العرب القيادي، فاستبدال عربي بعربي ليس غير تكتيك ضمن مرحلته، لإضعاف حكم العرب المؤمنين، وإضعاف دورهم وتأثيرهم القياديين، وإشغالهم ببعضهم بما يقربها أكثر فأكثر إلى حيث ينبغي أن تسدد لتطلق.. ولذلك لم تكتف بما سجلت من انتصار حيث التأثير الواسع للبرامكة على عهد هارون الرشيد، والذي ابتدأت بدايته مع تأسيس الدولة العباسية على عهد أبي العباس السفاح، وإنما سعت إلى إقصاء العرب نهائيا عن مراكز التأثير والقيادة، وإذا كانت قد احتاجتهم كغطاء مهلهل لمرحلة عبور إلى شاطئ آخر، فلم يكن ذلك إلا دورا وسلطة شكليتين، مما جعل هارون الرشيد، يعضده العرب، ينقلب عليهم في القصة المعروفة..

إذن، رغم مواجهتنا تحالفا شيوعيا شعوبيا مع عبد الكريم قاسم في العراق، فقد كانت الشعوبية في حقيقتها قاعدة الشيوعية، ولولاها لما وجد في العراق حزب شيوعي واسع العدد والتأثير في أوساط بعينها.. ولولا الله، ودور البعث العظيم، لانتصرت الشعوبية، ولسلخ الوجه العربي للعراق وروحه معا..

****

"من يترك كلبته وقت التلاقح من غير أن يربطها، تلد له جراء لا يعرف أباها.. والكلب الذي لا يربيه ولا يعتني به صاحبه، قد يلغ في اللبن الخاثر في الإناء"..

نعم إن الحركة الشيوعية في العراق حركة شعوبية بوسائل جديدة دفعت بها تيارات الشيوعية الأممية آنذاك، مع الإبقاء على نشاطاتها تحت واجهات أخرى رديفة لما يراد له أن يكون أساسيا في كل مرحلة من مراحل الزمن، ولذلك، كانت الشيوعية في العراق، في جانب من جوانب تأسيسها وفكرها وتنظيمها ونشاطها، حركة شعوبية هدامة، مثلها مثل أي حركة شعوبية مسيسة، من حيث النوايا أو الفعل، وهي تنطلق أساسا من نية وتصميم مؤكدين لهدم لحمة وسدى القومية العربية، والتراث والتأريخ العربي الإسلامي العظيم، الذي شكل عقيدة العرب المسلمين، وامتد به العرب، لأول مرة، كنشاط إنساني عظيم وواسع المدى والتأثير من خلال دولته، إلى محيطات أمم وشعوب خارج محيط العرب، وهكذا مارست دولة العرب الإسلامية لأول مرة في تأريخ الإنسانية، قبل أكثر من (1400) ألف و أربعمائة عام، دورا إنسانيا مجيدا في محيط الإنسانية، وحيثما وصلت في تأثيرها وقدرتها، ولم يسبقها إلى هذا أي دين وأية أمة، وبعد هذا الزمن الطويل، بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام أيضا، تحاول دول غربية أن تتحدث بشعارات ذات شكل إنساني بوجه عام، ولكنها تخفق من ناحية النية والتطبيق في أن تقنع أحدا بجديتها في هذا.. وإنما هي محض أغطية لفعل يراد به خدمة أهدافها الإمبريالية فحسب!.. فهل يستحق ذلك تراث العرب الإيماني المجيد، وفكرهم القومي الحضاري

العظيم، وإيمانهم الذي أخرج الإنسانية من الظلام إلى النور، يوم كانت بغداد مشعلها وعقلها وضميرها ورمحها الطويل الذي ما وجد سبيله إلا في قلب الباطل دفاعا عن الحق؟.. وهل يستأهل هذا التراث والفكر.. أن يهدما!؟

وإذا كان الجواب: لا.. فهل الشيوعية في بلادنا، وكل الحركات الهدامة الأخرى، إلا حركات شعوبية في قاعدتها الفكرية، وفي منهجها العملي!؟
هذا ما واجهته جماهير شعب العراق، و حركاتها وقواها السياسية الأصيلة المؤمنة بقيادة البعث العظيم..
وبعد أن انتخى البعث لواجبه القومي المغمس بعمق التراث، وأريج الرسالة المؤمن، ومع أي خطوة حالفها التوفيق من الرحمن الرحيم أولا، وكانت جماهير الشعب سببا لها وعونا في الأرض، يفهم شعبنا المجيد في العراق، وعلى مستوى الأمة ككل، أي دور مشرّف وكبير هذا الذي نهض به البعث ليخلّص الأمة والشعب من تلك الغمة، التي ألمت بشعب العراق، ومن بعده ما يمكن أن يصيب الأمة!! ولولا البعث، بعد رعاية الرحمن، لكان للأمر شأن وتأثير لا يعرف فيه مستوى الظلام الذي سيدخله العراق، والأمة من بعده.. فهل سبق للعراق أن سجل صعودا على قمة استحقاقه، من غير أن يضيء ضوءه للأمة كلها؟ وهل سبق أن خيّم ظلام عليه، من غير أن يسود الأمة ظلام دامس، وتنكفئ دلالها، وتطفأ نار مواقدها، ويجف حليب ضرعها، وتكسر سيوف فرسانها، أو تسبى نساؤها!!؟

في ظروف كهذه، وبعد أن يأس البعث من إمكانية إصلاح عبد الكريم قاسم، وبعد أن صار انحرافه عن مبادئ ثورة 14 تموز واضحا، قررت قيادة الحزب، ثأرا لكل المعاني العاليات، ودفاعا عن النفس، وعن الشعب و الأمة، وكجزء من تمنيات أو خطط لم يشهد الضوء منها إلا الجزء الذي كلفنا نحن بتنفيذه.. قررت القيادة المباشرة بمهمتنا، لتوجيه نيران أسلحتنا على عبد الكريم قاسم، بعد أن كانت قد أجلت تنفيذ هذه المهمة من قبل، بحثا عن أمل الحد الأدنى في الإصلاح، ولكن التمني لم يجد فرصته، بعد أن أعياه فتح نافذة على عقل وضمير عبد الكريم قاسم، الذي مات عقله وضميره، مع موت عقل وضمير الشعوبية، وواجهتها الجديدة: الحزب الشيوعي العراقي..

استدعينا كلنا لأحد بيوت الكرادة.. وحضر الاجتماع ممثل قيادة القطر إياد، وبعد أن سلم علينا، جلس، وأفرد ورقة عريضة نسبيا، تحتوي على مخطط لمعالجة سيارة عبد الكريم قاسم، وسيارة الحماية خلفه، مع التركيز بوجه أساس عليه مباشرة، وأن يقوم عبد الرحمن من مجموعتنا بفتح باب سيارته بعد ذلك، ليطلق عليه النار، وهو داخل السيارة، لتكون الضمانة أعلى بأنه مات فعلا، بعد التوكل على الله، وفق ما وجهنا بهد مندوب القيادة.. وفي الوقت الذي نتلقى إشعارا بتوجه عبد الكريم قاسم إلى المكان الذي نكمن فيه، تتهيأ سيارة سليم، وهي بيوك موديل 1956، تقف على مقربة من رصيف الشارع بالاتجاه الذي سيسلكه عبد الكريم قاسم، وهو قادم إلينا، وحين يقترب منا، وقبل أن يمر أمامنا، يفتعل سليم، وهو خلف مقود السيارة، بما يفسر بأنه ارتبك أو ما شابه ذلك، ليصطدم بسيارة (عبد الكريم قاسم)، من الجهة القريبة إليه، على أن يكون تماس السيارتين في أقرب نقطة لمقدمتيهما، بما يفرض التوقف على سيارة عبد الكريم قاسم.. وفي كل الأحوال، ينبغي أن يقطع سليم الشارع بسيارته على سيارة عبد الكريم قاسم، لتكون بعد ذلك هدفا أسهل على الرماة ليصيبوه.

هذا ما قاله مندوب القيادة.. وحدد الواجبات بالأسماء: فلان وفلان واجبهما الرمي من الأمام، بعد أن يتركا الرصيف، وينزلا معا إلى جزء من الشارع، وفي الوقت الذي يكون فلان وفلان مهتمين بالتركيز والرمي على عبد الكريم قاسم شخصيا.. يتولى محمود إلقاء قنبلة قبل الانسحاب.. والتفت إليّ وقال: ويحمي صالح الرفاق الذين يقومون بمهمة الإطلاق على السيارة، وهم يستديرون بظهورهم على المارة في الشارع، ليكونوا في وضع أمين من أي جهة تستهدفهم من الشارع، ولا تنسحب من الشارع إلا بعد أن يكون آخر واحد من المجموعة قد دخل في مدخل الشاعر الفرعي الرابط بين شارع الرشيد ، وشارع الجمهورية، وتوغّل فيه..

ومن غير أن أنطق بكلمة واحد، أو أسأل، وبعد أن تفحص تعابير وجهي، قال الرفيق إياد، عضو القيادة:
- إن مهمتك صعبة، يا رفيق صالح، وليست سهلة أو فرعية، فأنت ستكون آخر من يترك مكان التنفيذ، وستكون عليك مهمة حماية رفاقك، وإطفاء أي مقاومة راجلة لو حصلت.. وعليك أن تحميهم أثناء التنفيذ، وتحميهم أثناء عبور الشارع بعد التنفيذ، لو كان التنفيذ من الجهة الأخرى المقابلة لشارع الانسحاب الفرعي.. وفي كل الأحوال، عليك أن تحميهم من البداية حتى وصولكم إلى السارة المخصصة لنقلكم بعد التنفيذ في نهاية الانسحاب، حيث شارع الجمهورية.

قال الرفيق إياد ذلك وهو يتبسم، كأنه عرف ما كان يدور في فكري من تمنيات أن أكون أول من يطلق النار على عبد الكريم قاسم، ليس لكره شخصي له، وإنما إيمانا بأنه على باطل، وأن الشعب والجيش وحزبنا على حق.. بل حتى بعد تنفيذ العملية لم أكرهه وأحق عليه، وإنما كرهت أعماله فحسب.. وقد أشعرت الرفيق إياد بأنني أفهم مهمتي ودوري.. ولم أسأل أبدا.. بينما سأل رفاق آخرون ما سألوه بمن فيهم من سأل: وماذا بعد، على المستوى السياسي، والإجراءات الأخرى، لتكون عمليتنا جزءا من ثورة شاملة، وإن شكلت فيها رأس النفيضة، وشرارة الإشعار بأن ابدأوا؟.. ولكنني لم أسأل.. بل كنت أتضايق في داخلي ممن كانوا يسألون، خشية أن يتصور عضو القيادة خطأ بأن سبب الأسئلة يستند إلى قلق الرفاق، وربما يقول إنهم خافوا، وعندها قد تقرر القيادة إرجاء المهمة، وإما لمزيد من الإعداد النفسي، أو استبدال مجموعتنا بمجموعة أخرى.. ولو حصل هذا، لا سمح الله، كان امتياز التأريخ، ووشاح الشعب، وشهادة الإيمان ستفلت من أيدينا، أو هكذا تصورت.. نعم لم أسأل، وتضايقت في داخلي من الذين سألوا عضو القيادة، ولكن القيادة لم تستبدل أحدا منا..

الجزء الثامن عشر

" من لا ينظف بئره دوما، يقل ماؤها.. ومن لا ينظف صدر ساقيته، لن يتمكن من إرواء الأرض البعيدة عن الصدر"..

انتقلنا في اليوم التالي إلى شقة تطل على شارع الرشيد، قبالة عيادة الدكتور حازم، أعدت خصيصا للعملية.

كان عضو قيادة آخر هو الرفيق مدحت، يوصلنا بسيارته أحيانا، وفي أغلب الأحيان كنا نستخدم سيارة يقودها عبد الرحمن، أو نأتي فرادى، ونخرج فرادى، وهو ما فضلناه، لكي لا تكشف حركتنا عندما ندخل الشقة في تلك العمارة المتواضعة، أو عندما نخرج منها، خاصة وأن بابها لصيق بأقرب دكان إليها في شارع الرشيد..
صالح طالب ناجح، في الصف الأخير من الإعدادية، وعبد الرحمن طالب في الصف الثاني في كلية الطب.. وحاتم طالب في الصف الأول في كلية الحقوق (القانون حاليا)، وسليم في الصف الأول أيضا، ومحمود لم يكمل الثانوية.. وسمير في الصف الأول في كلية الحقوق أيضا، وممثل القيادة المسؤول عن الأسلحة، مدحت سنة ثالثة، كلية الآداب، وعبد الوهاب خريج كلية الآداب ولما يعين بوظيفة بعد، وإياد ممثل القيادة، المسؤول عن متابعة عملية التنفيذ خريج كلية التجارة حديثا.. وأي منهم لم يتزوج.. ولم يكن موظفا في الدولة..

كان هذا هو الوصف العام للمجموعة، وكلهم أعضاء في حزب البعث العربي الاشتراكي، إلا صالح الذي اكتشف فيما بعد، أو أن الحزب كشف له ذلك، أنه عندما نفذ هذا الواجب، كان نصيرا في الحزب، أخّر منحه العضوية وجوده في السجن، وعدم الانتباه إلى هذا بعد خروجه من السجن وتكليفه بالمهمة، وهل يمكن أن لا يكون شباب الأمة، ودماؤها الحارة المؤمنة، في الميدان!؟.. ومن ينتخي لشعبه وأمته غير شباب الأمة، عندما يكون الحق مهددا بالباطل، أو يستخدم الباطل بندقية على الشعب والأمة والحق!؟

نعم، كان الجميع في مقتبل العمر.. ومثلما الورود والزهور تحمل الندى، وهي تتفتح لتستقبل شعاع الشمس، وكل منها يأمل أن ينتشر ضوعه ليدل عليه، ويجذب الفراشات والنحل، لتنتقل من تاج وكأس إلى تاج وكأس لأوراد وزهور أخرى، فتستمر الحياة، حيث يتولى النحل والفراشات، عند انتقالها من زهرة إلى أخرى، كما الهواء عندما يهب تلقح الورود والزهور والأشجار والنباتات.. ألم يكن أولئك الشباب نبت الأرض؟ وهل يرسل نبت الأرض ظله إلا على أرضه؟ وهل يفوح شذاه إلا في هوائه، وهل يمكث بذره إلا في أرضه؟ وهي يعيش إلا بماء؟ وإذا مات، هل يموت إلا بأرضه؟ وعندما يموت ميتة عالية المعاني، ألا يمنحها، هي وماءها وهواءها، الحياة؟ ألم يكن حال أولئك الفتية (الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى) على هذا الوصف؟ ألم يكن لكل واحد منهم آماله وتطلعاته الشخصية؟ ولكن ما هي قيمة أي تطلع شخصي، وإيمان، وسعي من غير وطن معافى، وشعب عزيز مستقر، آمن على نفسه، وأحفاده من بعده؟ والأهم أن يضمن أن البذرة التي يبذرها لا يلتقطها (زرزور)، وأن (الفرخ) الذي يودعه عشه لا يأكله غراب.. وأن الماء الذي يهيئه لأطفاله، لا تشربه الهوام.. وأن الماجدات.. نعم الماجدات.. نعم الماجدات.. لا يمزق ملابسهن عن أجسادهن، ولا يغدر بعفتهن، عاتٍ زنيم أجنبي، أو دخيل ماجن شرير.. وأن الهواء الذي يتنفسه هواء طلق نظيف صحي، ليس فيه مرض، وأن مبادئه وقيمه ودينه في حرزٍ أمين!

نعم هكذا، وعلى هذا، كان وضع كل أولئك الفتية، بعد أ آمنوا بربهم فزادهم هدى.. وضعوا كل آمالهم الذاتية إلى جانب، وانشغلوا بآمال وآلام وتطلعات وحاضر ومستقبل الأمة والشعب، بل لعلهم ما كانوا يرون آمالا لهم تتحقق، من غير أن تندمج وتتسامى مع آمال الأمة، ولن يكون لهم إحساس، ويروا

في الماء الذي يشربونه ما هو مريء من غير أن يكون شعبهم معافى، وأمتهم سعدية، ذلك لأنهم أناس مؤمنون مرهفو الحس والضمير.. ولم يكونوا جرادا، ليديموا الحياة وفق قانونها البدائي فحسب.. عندما يضع بيضه في باطن الأرض، وعلى عمق ما منها، ليفقس جرادا في السنة التي بعدها، ويقولوا عندها، كما لجراد، أو الحيوانات الأخرى.. حسبهم أنهم ماتوا بعد أن خلفوا من جنسهم.. لا، إنهم مناضلون، وإن أساس قانون الحياة بالنسبة للمناضل والمجاهد الأصيل هو القانون الذي أراده الرب للإنسان في أرضه، ومن ذلك أن يكون مجاهدا، دفاعا عن الحق والوطن والشعب والعرض.. وعندها فقط، يكون قد خلف ما أراده الله لمن أرادهم أن يسعوا في الأرض.. وفي هذا، يخلف كل واحد على هذا الوصف، رجالا كانوا أم نساء، مثابته وشهادته في الدنيا والآخرة، وهي ابنه، وقنديله ليرى، وبذره ليبقى في الأرض، وضوعه وشذاه في الهواء، بعد أن تكون روحه في السماء. وبغير هذا لا يكون في الأرض ولا في السماء، وقد لا يكون على الأعراف بين الجنة والنار.. ولذلك حتى لو استشهدوا قبل أن يتزوجوا، لكانت (خلفتهم) حسنة ودائمة، تتناقل الأجيال صفاتها ومعانيها، إنهم سيكونون في كل (خلفة) للآخرين، تتربى على طيف فعلهم ونضالهم وجهادهم والمعاني التي من أجلها يستشهدون، وستكون مكافأتهم عظيمة ومتميزة هناك في رحاب الرحمن، وفسيح جناته.. ولذلك، فلا شك أن لكل واحد من أولئك الفتية، أو لأغلبهم، من تحبه من العراقيات الحلوات، ولكن أياّ منهم ل يلو هذا همته وعزمه ليقوم بواجبه.

كان صالح يتساءل مع نفسه: هل لرفاقي من يحبونهن مثلي؟.. وهل يحببنهم مثلما تحبني عابدة؟ وماذا عساهم يقولون الآن؟ هكذا كان يقول وهو يراهم منصتين صامتين، لا يتكلمون وهم ينتظرون أن يصيح عليهم طه من أسفل الشقة بكلمة (محمود) أو (شكري)، في ذلك الوكر التاريخي على رصيف شارع الرشيد الخالد، متلهفين لمرور سيارة عبد الكريم قاسم، ليكون ما يريده الله بعد ذلك. ألا يمكن أن يضعف أحدهم بسبب ذلك، ليس خوفا على نفسه، وإنما تعلقا بمن يحب؟ ثم يجفل صالح من هذه الهواجس، والسؤال الذي يترتب عليها، ويقطب حاجبيه، ويقول: وما قيمة الحب، إذا سيطر الشيوعيون على العراق بصورة نهائية؟

ألا يدفن الشريف نفسه حيا، إن لم يقاوم، ويموت شهيدا؟ فهذا أشرف له من أن يرى المهانة والذل!؟ لا.. لا.. لا أعتقد أن يضعف أحد من رفاقي في هذه الكوكبة الغراء.. أليسوا بعثيين؟ أم أنهم مجرد حزبيين!!؟.. إذا كانوا بعثيين، كيف يمكن أن يضعف من يدعو إلى الوحدة والحرية والاشتراكية.. ومن يناضل ويؤمن بإمكانية إعادة وحدة الأمة، بعد أن صارت اثنين وعشرين جزءا؟.. لا. البعثي لا يضعف، والعراقي الأصيل، والعربي المجيد لا يضعف، لأنه ابن من أراد لهم ربهم، أن يكونوا أسيادا أعزة بعد أن آمنوا.. لذلك لن يضعف أحد في مجموعتنا.. قال صالح ذلك جازما مع نفسه، ولكي يطمئن نفسه إلى أن استنتاجه صحيح، يعود ليقول: ألا أحب عابدة؟ وعابدة تحبني؟ ألا ينتظر أهلي أن يكون جهدي، بعد أن أدخل العسكرية جزئيا؟ ألا ينتظر إخوتي، وكلهم صغار، أن أكون ربانهم ليعبروا إلى ضفة حياة جديدة، تنقطع فيها وراثة الشقاء التي جاءتنا من عمق شجرتنا بعيدة الجذور في التاريخ والمجتمع؟ إذا كانت هذه هي صورة حياتي الشخصية.. فلا أعتقد أن أحدا منهم يعيش ما هو أثقل منها، وحتى لو كان أي منهم يحب من يحبها، أو تحبه من تحبه، فلن يكون هذا الحب أعمق وأعرق من حبي لعابدة، ومحبتها لي..

ثم يردف: بل حبها لي..
لم يدرِ ما عطرُ الحياةِ ونارُها
إلا فؤادُ الفارسِ المغوارِ

والحبُّ لا يدري به إلا الذي
قد شمه كالوردِ والنوارِ

أو عبّهُ عبّاً وقد ثملَ الهوى
حتى بدا متحيراً ذو الثارِ

ثم يعود صالح ليقول: إذا كانت هذه هي إرهاصات وصور حياتي الشخصية ومشاعري، ومع ذلك قلت قولي الفصل، ولم أسأل، أو أستشر أحدا، من أول كلمة قالها محمود حول تكليفي بالمهمة.. بل لعلي قررت قبل أن ينطقها، ومن أولى كلماته التمهيدية.. ولم، ولن يهتز لي جنان ليخفق متعارضا مع أحلام شعبي وأمتي. كيف لي أن أتصور، أو أن أتساءل مع نفسي عما يمكن، وكيف يفكر رفاقي؟ ألا أظلمهم بمجرد التساؤل مع النفس؟ ترى، هل يمكن أن يضعف أحدهم؟ ولأنني لا أحب أني قع ظلم عليّ، وأرفضه، فعليّ أن أقلع عن التفكير بهذا، لكي لا تظلم هواجسي أحدا من رفاقي.. وعندها دخل طه إلى الشقة، فأنقذ نفسي من تساؤلاتها.

دخل طه الشقة مرتبكا، وما كاد يسترجع أنفاسه قليلا وجزئيا حتى طلب سيجارة من أحد رفاقه.
قلنا له: ها، ماذا وراءك؟
قال، بعد أن استرجع أنفاسه جزئيا:
- (شكري)، وكانت هذه هي كلمة السر التي كان على المكلف أن يقولها للرفيق طه بهاتف الدكتور حازم، بعد أن نسق معه لكي يبقى في العيادة.. وكانت كلمة السر (شكري) تعني أن عبد الكريم قاسم متوجه من الباب الشرقي، سالكا شارع الرشيد بعد أن يغادر بيته في الكرادة، متجها إلى وزارة الدفاع..

قال له أحدنا:
- يعني عبد الكريم قاسم متجه إلينا من الباب الشرقي..
قال:
- نـ.. عم، متقطعة بسبب ارتباكه..

قفز كل واحد منا، وهو يخفي بندقيته الرشاشة تحت السترة التي يضعها على يديه والرشاشة تحتها، كما هي عادة العراقيين في فصل الصيف، أو حتى في الخريف مثلما كنا آنذاك، وكنت أخفي رشاشتي تحت سترة طويلة، أخذتها من دولاب الملابس العائد لخالي عبد اللطيف من غير أن أستأذنه بأخذها، ذلك لأن خالي عبد اللطيف كان أطول مني، وأن سترته طويلة على القياس الكلاسيكي آنذاك، وهي على هذا مناسبة لإخفاء بندقيتي أفضل من سترتي.

نزلنا الدرج (السلم).. مسرعين، وسقط مسدس أحدهم من حزامه، وتدحرج إلى أسفل الدرج الذي ينتهي بالشارع، ولكنه التقطه وأعاده إلى حزامه.. ولم يكن وضع الشارع، ولا طبيعة إخفاء الأسلحة يشجعاننا على الركض، لأننا لو فعلنا ذلك، نكشف نيتنا قبل أن نطلق النار، وعندها نحمّل أنفسنا مشقة أن نصطدم برجال الأمن، قبل مرور عبد الكريم قاسم من أمامنا، لأن زرع الشارع بالشرطة السرية أمر متوقع..

قبل أن نصل إلى حافة الشارع، مرقت سيارة عبد الكريم قاسم. وقد يتساءل المرء: لماذا كان عبد الكريم قاسم يمر في شارع الرشيد كمنهج شبه ثابت في ذهابه وإيابه من والى مقره في وزارة الدفاع، ولا يستبدله بشارع آخر في حركته هذه!؟

ابتداء كانت الشوارع الرابطة المناسبة بين الباب المعظم (الأعظمية) وبين الكرادة محدودة آنذاك، كما أن شارع الرشيد هو الشارع التجاري الوحيد في حينه، إضافة للفروع التي تخرج منه، أو تدخل إليه من سوق الشورجة، وسوقي السراي والقماش. وعلى هذا الوصف، كان شارع الرشيد مزدحما بالمارة، مثلما هو مزدحم بحركة البائعين في محلاتهم والمشترين منهم.. وشارع على هذا الوصف لا يمكن إلا أن يسلكه من هو مثل عبد الكريم قاسم، بسبب ما آل إليه وضعه النفسي الذي هيأه له الشعوبيون بما جعله يصاب بداء العظمة، التي تعيش على الشكل، بعد أن تكون النفس والنية خاويتين، وشارع بهذا الوصف، وحيث يحشد الشعوبيون والشيوعيون من يحشدونهم في التوقيت الذي يمر فيه بعد الكريم قاسم، ليصفقوا له، ويرفعوا الشعارات، وينادوا بالهتافات التي تحرضه على القومية والقوميين، وتشجعه ضد الأمة والدين، بما يرضي نفسه، ويكسبه بصورة نهائية إلى جانبهم، بالإضافة إلى أن ظهورهم في الشارع هكذا يوهم عبد الكريم قاسم بأنهم وحدهم في الشارع، بما يسهّل لهم الاستحواذ على السلطة، بعد أن يقع في حبائلهم.. نعود لنقول إن شارعا هذا وصفه، يعد بالنسبة لعبد الكريم قاسم، الشارع الأنسب، ذهابا وإيابا، في تنقله بين وزارة الدفاع وبيته، وهو بالنسبة لنا الشارع المناسب أيضا، بسبب ضيقه، إذ ربما لا يتعدى عرضه الستة أمتار، وضيق الشارع هذا يجعل الهدف أقرب إلى فوهات البنادق، ويجعل قدرة المناورة فيه محدودة.. ولذلك اتفق المناسب له مع المناسب لنا، وإن تقاطعت الأهداف والنوايا.

****

عدنا إلى الوكر، بعد أن أخفقت الفرصة في إيصالنا في اللحظة المناسبة إلى المكان الذي نكون فيه مستعدين لنطلق النار، وعدنا إلى حيث كنا، عدنا إلى الوكر.. في الشقة نفسها، في شارع الرشيد، وأعدنا الأسلحة الرشاشة إلى مخبئها في خزانة ملابس من الخشب، صممت بصورة خاصة لهذا الأمر، ولكن كأنها جزء من أثاث الشقة المتواضع.

خرجنا من الشقة وسط غضبنا ولومنا، بل سخطنا على طه، لأنه جاء متأخرا، وحاول من حاول أن يهدئ الوضع دون جدوى.. بين من يقول محتدا: يا أخي، لو صاح من الشارع، وفق اتفاقنا معه، لكنا استطعنا أن نصل في الوقت المناسب.. ولكنني قلت في نفسي: هل يمكن لشاب بعمر طه، عاش حياته

في بغداد، ولم يعش حياة الريف، أو تجربة، تقرّب له صورة واجبه من الناحية الواقعية، لتعده نفسيا لمثل هذا الأمر، أن يكون حاله أفضل من حال طه؟ ليس خوفا من طه ولا جبنا منه- هكذا كنا نقول أنا وحاتم- بل ربما عدم دقة في التنفيذ، أو عدم دقة في التقدير، وهو يتصور انه إذا قال لنا ذلك، بعد أن يصعد إلينا السلم مباشرة، أفضل من أن يقوله، مناديا من الشارع، بل ربما ما كان صوته يطاوعه ليقول ذلك، وهو في الشاعر ويجعل صوته مسموعا منا.. ويقول عبد الرحمن، ووجهه محمّر، وبعد أن دار حول نفسه حانقا، واحمرّت حتى أذناه الكبيرتان الشقراوتان: لا يا أخي صالح.. لا يا حاتم.. لقد جاء يرتجف – ويقصد طه- حتى أنه لم ينطقها، إلا بعد أن استفسرنا منه، وبدلا من أن ينطقها في لحظتها، راح (الأفندي)- هكذا قال عبد الرحمن- يطلب سيجارة ليداري بها ارتباكه، ولعله، أراد بالسيجارة، أن يلم أعصابه، بعد أن هربت من مكانها، وخرجت عن سيطرته..

يسكت حاتم على مضض، بسبب ما وضعه فيه طه من حرج، لأن طه ابن خالة حاتم، ولأن حاتم هو الذي رشح طه لهذا الدور، ورشح عبد الوهاب حاتم لهذا، مثلما رشحني محمود لدوري، بعد أن كان أحدهم قد انسحب، أو أبعده الحزب من المجموعة، وصرت بديله..

ثم أتدخل وأقول: هوّن عليك، يا رفيق عبد الرحمن (خيرها بغيرها)، قد تكون فرصتنا في المرة القادمة هي الفرصة التي اختارها الله لنا.. وعندها تكون فرصتنا لضرب عبد الكريم قاسم أفضل..
ويكون أداء طه، بعد أن نوصيه، وبعد خوضه التجربة، أفضل بالتأكيد، إن شاء الله، في المرة القادمة..
وقال عدد من الرفاق:
- آمنا بالله..
ثم يعود عبد الرحمن، ولكن بدرجة عصبية أقل: ليس المهم أن نكرر المحاولة، أو ننتظر فرصتنا فترة أطول.. وإنما أن لا ينكشف الوكر الذي نحن فيه، بعد أن بدأنا محاولتنا، ونزلنا حتى الشاعر..
لم أعلق بشيء، لأنني كنت أعرف أن ما يقوله صحيح..
ولكنني قلت:
- على أية حال، التوفيق من الله، ومنه القدرة، وبه نستعين.
لا أعرف لماذا مالت نفسي إلى حاتم، ربما لأنه هادئ ومتواضع، حتى أن حاتم طلب استبدال بندقيته بأخرى، لأنه لم يكن يثق بها، فغضب عليه عبد الرحمن، وصاح بوجهه من غير أن يستوجب الحال لذلك، وعندها انتصرت لحاتم وقلت كلاما، ربما يسمعه عبد الرحمن لأول مرة، رغم أنه مسؤول المجموعة المباشر، تلك المجموعة التي كنا أنا وحاتم ضمنها، ومن ذلك اليوم صار حاتم صديقي، وبقي حتى الآن.
بعد لحظة صمت قال عبد الرحمن:
- يا الله، يا رفاق، لنذهب الآن، ونعود غدا.
قال أحد الرفاق:
- ما رأيكم لو تناولنا العشاء معا في مكان مناسب..
قلت لهم:
- إذا أردتم (أكلة شعبية)، فعليكم بـ (باجة) ابن طوبان.. إنه يقدم رؤوس غنم وكوارع نظيفة مع الثريد (والباجة ربما أكلها مع البصل من يريد التخلص من هم وإرهاصات اليوم بالنوم، وهي من

الأكلات المحببة لأصحاب الكروش).
قلت ذلك وتبسمت، وضحك كثر من الحضور معلنين موافقتهم، إلا حاتم، فقد اكتفى بأن تبسم قليلا، ولكن بصورة كافية لتظهر ثنايا أسنانه الأمامية، وقد تباعد بعضها بما يشير بوضوح إلى أن أحد أسنانه سقط من مكانه في حادث، ولم يبق ما يظهر كاملا منه..

خرجنا من الوكر.. وصدورنا تغلي بسبب الفرصة التي ضاعت.. وقد ظهر ذلك في كلام بعضنا، وكتمه آخرون، ولم يظهروه.

توقفت سيارتانا، ومعنا مدحت عضو القيادة، الذي كان مكلفا بأن ينتظرنا في مكان بعينهن ليقوم بنقل أي شيء يتعلق بالواجب إلى أمين سر القيادة. وما إن وصلنا مطعم ابن طوبان، الذي كان يقع في سوق الجديد في الكرخ، قريبا من مدرستي، ثانوية الكرخ للبنين، وجلسنا خرج المحل، نظرا لأن الطقس كان جيدا في فصل الخريف.. حتى تعالى صوت أحدهم، وهو ثمل يشتم البعثيين والقومية العربية وعبد الناصر، ويحيي عبد الكريم قاسم والشيوعية.. وكان هذا الشخص يقوم بهذا، رغم علمه أ،ه في محلة تعتبر واحدة من قلاع القومية العربية، وقائدها البعث، وقد تمادى أكثر، ملتفتا إلينا وهو يقول:
- إنني بهذا، إنما أرحب بالجماعة، وأحتفي بهم.
قال مدحت، وهو يبتسم، ليبرد أعصاب ذاك (المستهتر):
- شكرا لك، يا أخ..
ولكنه بقوله هذا، كأنه وسع فرصه (استهتاره) ضدنا من غير قصد، وراح المستهتر الشعوبي يكيل الشتائم على عبد الناصر والقومية والبعثيين، وكنت أكثر رفاقي حرجا، لأن سوق الجديد لصيق بمنطقة سكني في خضر إلياس، وأنا في هذا، كما لو كان عليّ حق ضيافة رفاقي، طبعا لمعنى أن الحق في هذا على صاحب الخطوة الأقرب في المكان..
كنا نجلس على كراسٍ من حديد، لم أقدّر أنها جعلت ثقيلة هكذا من صاحب المطعم، كي لا تستهلك بسرعة.

نهضت بهدوء، بعد أن قلت لرفاقي هامسا:
- استمروا في أمكانكم، وكأنني لست منكم.. وإنما جمعتنا الصدفة.
قبل أن يتعرفوا على نيتي، سحبت الكرسي الذي كنت أجلس عليه، ولكنني وجدت أثقل من أن أهوي به على رأس ذاك الشرير (المستهتر)، ولكن هل يكون الثقل مانعا أمام عزم من يقرر وهو في سن الشباب؟
رفعت الكرسي عاليا، وهويت به على رأس ذاك (الكلب) وشججته، وتركت المكان، من غير أن أنطق بكلمة، ومن غير أن ألتفت ناحيته، وهو ممدد على الأرض، ولا ناحية جماعته، الذين ما إن هوى صاحبهم على الأرض بسبب ضربتي، حتى صاروا كالنعاج، وعرفت فيما بعد أن جماعتي ساعدوه في تضميد رأسه.. وقالوا إنهم لا يعرفونني، وإنما وجدوني جالسا قبلهم، وأنهم جلسوا معي لضيق المكان، وعدم وجود كراسٍ فارغة..
على أية حال، أفرغت فيه انزعاجي على الفرصة التي فاتت علينا جراء تصرف طه.. ولأنني لم أقل ما

قاله رفاق آخرون، معبرين عن غضبهم وحنقهم، وكان التنفيس عن خاطري بضرب ذاك المستهتر بعد أن أساء، وكأنه، بإساءته تلك قد وفرها فرصة لي أو جرّني إليها.

****

في اليوم التالي التقينا، في التوقيت الذي اتفقنا عليه في الوكر.. وتناولنا غداءنا في الوكر أيضا.. وكنا قد كلفنا أنفسنا بأن يخرج أحدنا بصورة شبه دورية لتسوق لحم بقر معلب (بيف)، وسمك سردين، أو ما شابهه من الأسماك المعلبة.. أو رقي وعنب وجبن (كرافت)، بالإضافة إلى (الصمون) أو الخبز.. ولأول مرة أكل جبن (كرافت) ولحما وسمكا معلبا، حيث إن حياتنا لم تدلنا على هذه الأكلات.. وإنما نشأنا على الطبخ الاعتيادي، والكباب الذي يأتي به (مهدي)، وهو يدق بجرس دراجته الهوائية للعشاء أحيانا، بعد أن يكون قد سجّل طلبات من يطلب ذلك، ويعود محملا بالكباب في (صينية) من الصالحية، يضعها فوق رأسه، ويداريها بإحدى يديه أحيانا، في الوقت الذي يقود الدراجة الهوائية، ممسكان (السكان) المقود باليد الأخرى، ولا نعرف كم مرة واجهه عارض وأسقط الصينية من على رأسه، ليلّم بعد ذلك ما يقع منها على الأرض، ويعيده إليها!.. أعود لأقول إن الرقي والعنب والمعلبات والخبز والصمون هو بشكل عام ما كنا نتناوله من وجبات غذاء في الوكر.. وأحيانا قد يأتي أحدهم بوجبة كباب، وفق التسمية العراقية، و(كفتة) وفق التسمية المصرية، عندما يراد ترفيهنا.. أما الإفطار في بيوتنا فهو الجبن الأبيض الاعتيادي، والبيض والقيمر.. على أن لا تجتمع هذه المواد في وجبة واحدة، وإنما يقدم نوع واحد منها في وجبة الصباح، وكنا نضع العسل لنأكله مع البيض أحيانا، مثلما اعتاد خالي مال الله على هذا، وأحيانا، وبصورة محدودة، بعض أقراص الزبد المعلب مع مربى.. وعلى أية حال، لم يسبق أن أكلت ما هو معلب من الأصناف التي أكلتها في الوكر مما مر ذكره، غير البسكت أحيانا، وعلى نطاق ضيق، وبعض الأنواع الشعبية من الحلويات، أما الكعك فقد كان موجودا في بيوت بغداد، بينما صار البسكت حالة مستديمة في شقتنا، لأنه أسهل، ومتوفر لمن يريد أن يسد رمقه عندما يجوع..

جاء دوري لأشتري للمجموعة شيئا من المعلبات من المحل (الدكان) الواقع إلى اليمين من شقتنا، بالنسبة لمن ينزل منها، ويكون هذا المحل الركن (الزاوية)، أو ما قبل الركن المطل على شارع الرشيد، ووجدت فيه شريرا كذاك الذي صادفته في مطعم (باجة ابن طوبان).

كان صاحب المحل هذا، كلما ذهب أحدنا ليشتري منه – هكذا عرفت فيما بعد- ينهال بالسباب والشتائم على القومية العربية وحزب البعث وجمال عبد الناصر.. ويبدو أن هذا الأسلوب كان مشتركا بين الشعوبيين وواجهتهم الشيوعية.. لا ليدل على معدهم الرديء فحسب، وإنما وسيلة استفزاز لكل من لا يعرفون اتجاهه، ليعرفوا بعد ذلك اتجاهه، فإن شاركهم بحماسه فهو منهم، وإن لم يشاركهم، وضعوا عليه علامة استفهام، وإذا اعترض عليهم، كانت الحبال موجودة.. هكذا كانوا يهددون أعداءهم.. وعندما يشتمون. مهددين بالحبال، أو منوهين عنها، فإنما يذكرون من يحاول أن ينسى أو يتناسى، بأن مصير من يعارضهم الموت سحلا بالحبال، وعلى هذا كانوا يهتفون أمام عبد الكريم قاسم، أو في محكمة المهداوي، أو في شوارع بغداد، والموصل وكركوك، والبصرة وغيرها: (ماكو مؤامرة تصير

والحبال وموجودة).. أي أن (مؤامرة) لن تنجح طالما وجدت الحبال التي يسحلون (المتآمرين) بها، وفق وصفهم لأي صاحب رأي مخالف لرأيهم..

عندما بدأ صاحب الدكان ذاك (يرغي) ويسب، تمالكت أعصابي، ولم أعراضه بشيء، ولكنني سكتّ، وبان عليّ أنني لم أشاركه رأيه، لقناعتي المختلفة عنه، وعندما كنت أتميز غيظا عليه، وأضبط نفسي، كنت أقول: ليتك بالذات لم تكن هنا في المكان الذي ننصب فيه الكمين، وتقول هذا القول، لكنت جعلتك ترى نجوم الضحى، وتندم، أن لم تلعن نفسك، لأنك أسأت الأدب، ولكن الهدف الأكبر يستوجب صبر داعيته، أو صاحبه أمام أي حالة يبعد فيها الهدف الأصغر الهدف الأكبر عن النوال..

في ساعة بعينها، وفي لحظة ما، ينفتح باب السماء كبركان أمام الطاهرات: أمهاتنا، أخواتنا، جداتنا، وحبيباتنا أيضا، ليتجهن إلى رب العالمين، داعيات لنا بالتوفيق في مهمتنا، لو كنّ وكل العراقيات يعرفنا في تلك اللحظة..

الجزء الأخير

صاح طه من الشارع، هذه المرة:
- محمود.. محمود..
وكررها مرتين، وبصوت مسموع.
كنا متهيئين لهذا، ولذلك كنا نبقي شبابيك الغرفة مفتوحة بصورة شبه دائمية، لكي نسمع نداء طه..
وقد جاء النداء واضحا وقويا، كأنه نداء التاريخ كله.. بل نداء الحاضر والمستقبل، مثلما هو نداء السماء عبر الأثير، ونداء الأرض التي كنا نجلس فوقها ونعيش عليها.

محمود.. محمود.. وانتفضت القلوب، كأنها تريد أن تسبق سبابات أيدي الرجال إلى هناك، لتضغط على الزناد قبلهم..
ركضنا، وعندما وصلنا إلى الشارع، لم يكن موكب عبد الكريم قاسم قد وصل بعد.. عبرنا إلى الرصيف الآخر من الشارع، حيث أن القول (محمود) يعني أن عبد الكريم قاسم جاء من جهة الباب المعظم، مما يستوجب أن نعبر الشارع إلى الرصيف الثاني ليكون أقرب إلينا عندما يمر من أمامنا.. وهكذا فعلنا..

كان سليم قرب سيارته، وبعد أن توزعنا لاحظنا أنه بدلا من أن يركب سيارته ويتهيأ، بدأ يفتش عن شيء ليكسر به زجاج السيارة الجانبي، وعندما استفسرنا منه، قال إنه نسي مفاتيح السيارة في داخلها، وأن أبوابها لا تفتح إلا بكسر الزجاج الجانبي، وبينما كان يحاول كسر الزجاج بمساعدة أحدهم، منعته بحزم، وقلت له: اترك السيارة، ولا تلفت الانتباه. وتركها فعلا، وما هي إلا لحظات، وإن كانت بطيئة، بل ثقيلة.. ثقيلة جدا.. حتى تعالت أصوات المهرجين الهتافين من الشعوبيين بما ينبئ بأن الموكب المقصود اقترب.. وكان ذلك في حوالي الساعة السادسة بعد الظهر.

كان كل واحد منا يقف في مكانه المقرر، وكنت أقف في مكان يمر الموكب من أمامه، قبل أن يمر على الآخرين، وهكذا تعمدت أن أكون.. كان كل واحد منا ينظر إلى الآخر، وإلى الموكب، ولكنني لا أظن أن أي واحد منا قد نظر إلى الخلف أو إلى ما حوله..

كان الهدف يقترب، ومعه تضرب القلوب على جدرانها، محتشدة غاضبة، ولكن الهيأة العامة لكل واحد منا كانت هادئة.. أو، في الأقل، هذا ما كنت متأكدا منه بالنسبة لي، ولما أراه على مظهر رفاقي.. وما إن مرت سيارة عبد الكريم قاسم ببطء من أمامي، بسبب ازدحام الشعوبيين عليها، حتى دفعني عقلي وقلبي متصلين بمهتمهما معا، بعد الاتكال على الله القادر العظيم، فضغط قلبي وسبابة كفي الأيمن على زناد رشاشتي، لتنطلق رصاصاتها عن قرب في وجه الطاغية الشعوبي، وكان وجهه ورقبته أقرب إلى يديه من سلاحه أو أي شيء آخر، وغطاهما بهما.. وما إن ثار البارود من رشاشتي، حتى ثار عليه من كل من استطاعت على هذا بندقيته، ولكن بندقية حاتم أخفقت فينا في أن تثور، وأخفقت معها بندقية عبد الرحمن، وسقط عبد الوهاب شهيدا، بعد أن وجه بندقيته إلى الزجاج الأمامي لسيارة الطاغية، وأصيب سمير في صدره، وبعد أن أفرغت مخزني (شاجوري) على سيارته، سحبت (الشاجور) لأستبدله بـ (شاجور) آخر، وقبل أن أفعل هذا، سمعت أصوات إطلاقات من أحد أركان الشارع تنفجر باتجاهنا، وتبينته، فإذا هو أحد الشرطة يوجه مسدسه إلينا.. كان هذا الشرطي شجاعا، بغض النظر عن نواياه واتجاهاته.. وفي اللحظة التي استدرت ببندقيتي إليه، أطلق رصاصة من مسدسه، وأصابني في ساقي، وحاول أن يخفي نفسه بين السيارات المتروكة، التي كانت بعض محركاتها تعمل..

أطلقت عليه صلية قصيرة هي كل ما تبقى في مخزن الرشاشة، الذي أفرغت رصاصه على سيارة عبد الكريم قاسم.. فانطلقت منه رصاصتان أو ثلاث، هي كل ما بقي في ذلك(الشاجور(
حاول الشرطي أن يسقط، أو أنه سقط فعلا، متعثرا خلف إحدى السيارات، موحيا بأنه قتل، وهكذا تصورته أيضا، ولكن ما إن استدرت عنه، وأنا أسمع استغاثة سمير: (الحقوني سأموت).. وفي الوقت نفسه، استبدلت الشاجور المستنفد بشاجور جديد، حتى لمحت الشرطي يولي هاربا من المكان، ولأنه لم يكن هدفنا، لم أسدد عليه، رغم أنه أصابني بإطلاقة في ساقي، وربما كان هو الذي أصاب عبد الوهاب أيضا.

كان سمير في وضع صعب، وكنت أنا وعبد الرحمن نشجعه، لنصل إلى السيارة الواقفة في شارع الجمهورية، عبر الشارع الفرعي الضيق المخصص للانسحاب، والذي يربط بين شارع الرشيد وشارع الجمهورية، على ما ذكرنا من قبل..
كان الشارع مكتظا بالناس، الذين خرجوا من بيوتهم، بعد سماع دوي الإطلاقات، وانفجار القنبلة التي رماها محمود، بعد أن بدأ الانسحاب، وما تلاه من هرج ومرج في الشارع، وكان يكفي أن نقول لهم، أنا أو عبد الرحمن: ادخلوا، أو (أهوم) عليهم ببندقيتي، حتى يركضون مسرعين إلى بيوتهم..

وعندما وصلنا المكان المقرر، حيث يفترض أن ينتظرنا علي بسيارته التاكسي هناك، ليقودنا بعد التنفيذ إلى الوكر المخصص في الكرادة (عرصات الهندية/ دار 721)، و جدنا سيارة علي مقفلة، ولكننا لم نجده، وكنا نظن أن من كان في شارع الجمهورية يسمع صوت الرصاص الذي انطلق في

شارع الرشيد، لذلك تصورنا أن علي سيكون خلف مقود السيارة بانتظارنا، ولكن علي لم يسمع، وكان يشرب الشاي في المقهى القريبة من السيارة، على ما ظهر فيما بعد، لذلك لم نجده خلف مقود سيارته.

كان الألم الشديد يعتصر سمير، وكان الخوف من الموت، بعد أن صار حقيقة شبه واقعة، أو في طريقه ليكون شهادة لشاب في مثل عمر سمير، ليست له تجربة مماثلة مع الحياة، يبعث في نفس سمير نوعا من الأسى، حتى أنه لم يترك له مجالا ليفكر.. فكان يصيح:
- راح أموت، أنقذوني.. أسرعوا بي إلى المستشفى.
كنا على هذا الحال، وتحت ضغط مثل هذه الإرهاصات، مع إمكانية أن نقع في أيدي السلطة لو بقينا في مكاننا، بعدما حصل مع منظر سمير والدم ينزف من صدره، وجسمه يتهالك على عبد الرحمن، أو بالكاد يستطيع أن يتكئ على عمود كهرباء قريب من محل وقوفنا، ومع منظري وأنا متأهب، ممسكا ببندقيتي، ساحبا أقسامها، وأرقب كل صغيرة أو كبيرة بحساسية ذات صلة بكل هذا، سحبنا رشاشتينا، أنا وعبد الرحمن، على سائق كان يقودها ببطء قربنا، ليشارك من تجمع حولنا لمشاهدة سمير، وطلبنا منه أن ينزل من السيارة، ويسلمنا مفتاحها، وكاد يفعل ذلك، بعد أن أطفأ السيارة وفتح بابها، لولا أن جاءنا علي راكضا، وصار خلف سيارته، وبذلك تنفسنا الصعداء..

****

عندما انسحبنا من مكان الحادث، بعد إطلاق النار على عبد الكريم قاسم، صرت أمام ذلك الشعوبي الشتائم، الذي كان يشتم القومية والبعثيين وعبد الناصر والدين في دكانه، والذي كنا نتسوق منه ونحن في شقة الانتظار.. فتذكرت أنني قلت مع نفسي، وربما أمام رفاقي، أنني سأتولاه بعد أن نطلق النار على عبد الكريم قاسم، بأن أطلق عليه الرصاص، ونحن في طريقنا إلى شارع الجمهورية حيث السيارة، ولكن ما إن وجهت إليه بندقيتي، حتى تسمر على الجدار، رافعا يديه إلى الأعلى، مستسلما مرتعدا ويقول: (دخيلك).. وفي نظرة خاطفة كلمح البصر، وبعد أن رأيت منظره البائس، قررت أنه ليس هدفنا.. فقد أطلقنا النار على هدفنا.. ولا يجوز أن نطلق النار على غيره، إلا دفاعا عن النفس، ولأن هذا الجبان لا يهددنا، فلأتركه، إذن.. خفضت بندقيتي، وواصلت حماية سمير وعبد الرحمن..
(عندما نكتب هذا نحتاج إلى زمن، ولكن كل هذا الحوار مع النفس أمام منظر ذاك البائس الجبان، وداخل سيد (الكومبيوترات) الحاسوب الكبير: دماغ الإنسان، لم يستغرق إلا لحظات فحسب..(

****

وضعنا سمير في السيارة، وركبت في المقعد الخلفي، وأمام إرهاصات وتأوهات سمير، ودعوته لأن نوصله للمستشفى سأل علي:
- إلى أين أتجه؟
بل كاد يتجه فعلا إلى غير الاتجاه الذي كان يجب أن يتجه إليه.

فقال عبد الرحمن له:
- إلى المستشفى..
أو أنه فهم من حال سمير، وتعاطفنا معه، بأن المستشفى هي الاتجاه الصحيح، وما إن أدار علي مقود سيارته باتجاه المستشفى الذي كان يقصده، حتى لكزته بأخمص الرشاشة، وأنا أقول له كلاما لا يقبل إلا تفسير ما نطقت به فحسب:
- أعتقد أن لا سمير ولا أنا أصبنا (بزنابير المحية)، أو (ببوتازة) صبي طائش، رمى بوتازة فيها حصى، تطاير عندما انفجرت علينا كشظايا أصابتنا، أليس كذلك!؟ إلى الوكر..
ركز علي قليلا في عيني، وهو يهم أن يستدير، وفهم كل شيء من عيني وحركتي، وأنا أمسك الرشاشة محشوة، وأجلس خلفه..
كان ذلك لا يقبل أي تأويل الاتجاه إلى الوكر..
استدار علي بسيارته، وكان الاتجاه إلى الوكر فعلا..
كان رفاقي يتحدثون عن الوكر، ويشيرون إلى مكان وجوده، وكنت أظنه شيئا يختلف عن البيوت التي حوله، إن لم يكن في مظهره الخارجي، ففي الأقل من داخله.
وصلنا إلى شارع الكرادة، وبعد مسافة فيه قال عبد الرحمن:
- إنه هو..
وجدنا باب (الكراج) مفتوحا.. وكان باب السياج الخارجي، ويشكل مدخلا بعرض السيارة، في الوقت الذي يشكل المدخل الخارجي إلى فضاء الحديقة، ثم المدخل الخارجي الآخر للبيت، ومنه دخلنا إلى صالة، وجدنا فيها شابين بانتظارنا، هما خالد وحميد، وكانا على ما يبدو مكلفين بإقامة شبه دائمة في الوكر، وبعد ذلك تكامل الرفاق الذين لم يأتوا معنا في السيارة، حيث جاءوا راجلين.

كان الوكر بيتا عاديا، حديثا بالقياس ببيتنا في خضر إلياس، مع أن بيتنا يعتبر متميزا على أغلب بيوت خضر إلياس، حيث بناه صاحبه على الطراز البغدادي التراثي القديم (كبش كان)، ووضع فيه قواطع من خشب مع زجاج ملون.. الخ، أما فناء البيت (الحوش)، فكان من الطابوق الفرشي، وكل أرضية البيت الأخرى، إما من الطابوق الفرشي أو المفروش، أو من الخشب. (وكنا عند المقيل في ظهاري الصيف، نفرش فرشنا في فضاء مفتوح مطل على الحوش، بعد أن تغسله النساء بالماء قبل الظهر، ويغدو في حالة مقبولة قياسا بما كانت عليه غرف النوم الملتهبة بالحرارة في الطابق العلوي، وكانت لدينا مروحتان كنا نفرش أمام كل مروحة منها خيشة (كونية) مبللة بالماء البارد، مما يخلفه نصف (قالب) الثلج الموضع في صندوق خاص فيه خزان المياه المعدة للشرب.. نعم كان نصف قال الثلج يوضع فوق خزان ماء الصندوق المعد للشرب، وعندما يلامس هواء المروحتين المكان الرطب، يحمل معه هواء كنا نسميه لطيفا آنذاك(..

إذن، كان أهم ما يختلف فيه الوكر عن بيتنا في خضر إلياس هو أن صاحب بيتنا بناه على الطراز القديم، وبإمكانات قديمة، أما هذا البيت (الوكر) فقد بناه صاحبه حديثا، وبإمكانات متصلة بظرفه ومرحلته.. ولكن هذا الوكر لم يكن فيه (كراج) مغلق، ولم يكن أي من الذين دخلوه، أو كانوا في استقبالهم، يضع نظارات سوداء على عينيه، أو يتصرف كرجال عصابات من أولئك الذين كانوا يظهرون على شاشات السينما في الأفلام الأمريكية.. إنهم أناس عاديون في ابتسامهم أو غضبهم، في ألمهم، أو حزنهم.. مجاهدون.. مناضلون من أبناء شعبنا الطيب، ولكنهم مثلوا نخوته دفاعا عن شرفه

وحاضره ومستقبله.
لم يكن في داخل البيت أي شيء يدل على أنه بيت غير عادي، سوى غرفة الصالون (الخطار) التي تحتوي على طقم (قنفات)، ولم أعد أتذكر أي شيء آخر عن محتوياته، عدا الراديو الذي كان يلتصق به خالد، أو حميد، ليسمع أي خبر مفيد من الإذاعة.

****

عندما وصلنا البيت، لم أعرف خالدا هذا، وكان ذا جسم ضئيل، متوسط الطول، يرتدي (بيجاما)، ووجهه أسمر يكاد جلد وجهه يتطوى كأنه وجه (شايب) شيخ كبير في السن.. ولم أتصور أنه عضو في القيادة القطرية، وكان شابا بسيطا في مظهره وتصرفه، ذلك أنني كنت أكلفه بما يقتضي أحيانا، كأنني أتعامل مع رفيق من مجموعتنا، وكان يستجيب لطلباتنا، وكان التكليف بما يشبه الأمر أحيانا، ومع ذلك كان يستجيب من غير تثاقل أبدا، وكان حميد ينبئ بأنه غير عراقي من لونه الأشقر، وما يداخل لهجته البغدادية من نبرة ليست منها.. فقد كان بعثيا من سوريا يدرس في بغداد، وكلف بأن يكون في الوكر مع خالد..

كان البيت (الوكر) من طابقين، وكان الطابق الأول يحتوي على صالون (غرفة الخطار)، وغرفة جلوس (هول)، وغرفة طعام هي المحتويات الكلاسيكية للبيت العراقي، وكان مدخل الصالون أقرب إلى مدخل الدار، وفيه حمام ومطبخ، وفيه غرفة نوم..

انظرنا مجيء الطبيب الجراح، وكان طبيبا مشهودا له بالإمكانية في الجراحة، ولكنه لم يأتِ، ورغم أن منع التجول قد فرض، فقد جاء الدكتور تحسين، وكان طبيبا مبتدئا، ولكنه لم يكن جراحا، إذن، كان بالإمكان أن يأتي إلينا من يريد أن يأتي، خاصة وأن للطبيب امتيازات خاصة في الحركة إذا أبرز هويته، ولكن أرجو أن لا تلوموا من كان يحجم أو يتردد آنذاك، مستخدمين قياساتكم الآن، بل حاولوا أن تعودوا إلى قياسات تلك المرحلة ونوع الإعداد، وأن تستذكروا ما قرأتموه عن تلك المرحلة العصيبة، لكي لا تظلموا أحدا، ويكبر في عيونكم من يستحق ثناءكم في الوقت نفسه..

كان خالد يسألني بلهفة، وكن أحيانا يجلس القرفصاء على الأرض قريبا مني، وأنا جالس على (قنفة)، كأنه شخّص أنني أقرب من يمكن أن يعطيه الوصف الأدق عن حال عبد الكريم قاسم، عندما أطلقنا عليه نيران أسلحتنا، فيما قال الرفاق أنهم وجهوا نيرانهم على السيارة، ولكنهم لا يستطيعون عدا هذا أن ينبئوه بما هو إضافي، مؤكدين القول أنهم لم يلاحظوا أحدا خرج من السيارة بعد العملية، وأن السيارة توقفت تماما، مما يعني أن السائق والمرافق قد قتلا، أو أن إصابتهما بليغة، وأن السيارة صارت نقطة تقاطع نيران أسلحة من عملت بنادقهم..

كنا، بوجه عام، متفقين على هذا الوصف، ولكنني كنت أوضح للرفيق خالد أن عينيّ التقتا بعيني عبد الكريم قاسم، عندما سحبت الرشاشة من تحت السترة، وأنني كنت أول من فعل ذلك، وعندما أطلقت، أو قبل ذلك بلحظة، عندما رأى أنني صوبت البندقية إليه، قام بحركة خاطفة كرد فعل، فغطى وجهه

ومقدمة رأسه، الذي كانت بندقيتي مصوبة عليه، بحيث جعل كفيه يتقاطعان أمام، أو على وجهه ورأسه، وقد لاحظت أن رصاص بندقيتي قد (أكل) الزجاج الجانبي أمام وجهه، وأنني تابعت صورته حتى ارتمى على أرضية السيارة، ومثلما فعلت، فعل رفاقي بعدي بفارق لحظات من الجانب الذي أطلقت الرصاص عليه، ومن الأمام أيضا، وهم يطلقون رشاشاتهم، لذلك كنت أجزم بأنني أصبته، وأقول للرفاق وللرفيق خالد أنني أصبته، وقد أصيبت يداه فعلا، كانت إصابة إحداهما بليغة، وقد قتل السائق، وأصيب مرافقه، ولكن الله أراد له أن لا يموت في تلك العملية، وإنما في عملية أخرى أكثر شمولا..

****

" لا تزرع حنطة وشعيرا ودخنا وذرة بيضاء وزهر شمس، أو عنبا أو توتا (تكي) أو تينا في مدينة، لأنك إن فعلت ذلك، لن يكون بمقدورك أن تنافس العصافير عليها، ولا تترك مالك بلا حراسة، ذلك أن من يغويه الشيطان عليه، سيسبّك عندما يقع في قبضة العدالة.. وقد تأثم على فعلك هذا"..
جاءنا الدكتور تحسين، ولم يستطع أن يفعل شيئا سوى أنه مسح بـ (اليود) جراحنا، جرحي وجرح سمير، ولف عليهما (الشاش واللفاف) التقليدي..

وما هي إلا لحظات حتى قال المذيع: هنا بغداد، وبعد أن أوجز شيئا عن تعرض موكب (الزعيم) إلى إطلاق نار، وإصابته وإصابة المرافق، ومقتل السائق، وأنه يرقد في المستشفى الآن وصحته طيبة.. قال المذيع ذلك أو شيئا بهذا المعنى.. وما إن أنهى المذيع البيان حتى خيّم علينا الوجوم ما بين مصدق أو مكذب.. يا لبغدادنا من عاشقة متخيرة لفرسانها، ولكنها ليست ملكة نحل تغادر إلى الأعالي فلا يلحق بها إلا القوي المقتدر، الذي عندما يلقحها ليديم الحياة، إما أن تلسعه، أو أن يكون من شدة التعب بحيث ينزل متهاويا على الأرض!! ولكن بغداد، بدلا من هذا، تحتضنه، وتجعل من يصعد إلى حيث تريده أن يصعد جزءا من تراثها الخالد، وجزءا من روحها عندما تتذكر حضاراتها، والأولياء والصالحين الذين استشهدوا دفاعا عن الإيمان ومعانيه العظيمة، عبر الزمن الممتد من آدم، مرورا بإبراهيم الخليل حتى آخر الديانات، وخاتمتها، أو تتذكر رجالا قضوا، وهم يقومون بواجب بناء صرح الحضارات، وبغداد، بوصف آخر، أمنا الرءوم، تحب فرسانها كأم، وليس كعاشقة، أو ملكة نحل، ذلك لأن بغداد ملكة قانون الارتقاء للحياة، والأحياء، وليست وسيلة إدامة الحياة على قانون الخلق البدائي.. إنها ملكة الأرواح والقلوب، مثلما هي ملكة التاريخ والجغرافية.. إنها ملكة ومملكة الرجال الأشداء، مثلما هي ملكة ومملكة الماجدات البهيات، ومن غير روح العراق التي دخلت في بغداد، ودخلت بغداد فيها، ما كان يمكن أن يحصل مع ناسها تلاقح الفكر بالإيمان، ومن غير مكة وبغداد ودمشق ما كان ليحصل تلاقح إشعاع الإيمان، ليجعل الفكر، بعد ذلك، غزيرا نضاحا بالمعاني العالية، التي تجعل الإنسان في الأرض لا يذل إلا لرب السماوات والأرض.. وفرسان بغداد لا تنجبهم الصدفة، وإنما تنجبهم بغداد.. عاصمة أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد، بغداد وأي مدينة عراقية أخرى من تلك المدن التي لا تطاوعك نفسك على أن تدوس على ثراها لعمق تاريخها، وطيب شذى رائحتها، وعلوّ راياتها، بغداد التي لو جاءها العرب من خارج العراق، من الوطن العربي الكبير، لكان العراق أباها وهو أب معروف، وأولاده ثابتو النسب، وهكذا كان حميد، وإن ولد في سوريا، فأبوه العراق،

وأمه دمشق، بعد أن صار من العراقيين، حين أكل ما يأكلون، وآمن بما يؤمنون، وشرب من ماء دجلة، وتنفس هواء العراق.. إنه ابن العراق، في الوقت الذي أمه سوريا، إنه ابن الأمة العربية المجيدة وابن العراق، مثله مثل الشهيد عبد الوهاب وصالح وسمير وحاتم وعبد الرحمن وطه ومحمود الذين كان معهم في الوكر نفسه، ولو عاش أي عربي تحت نفس الظروف في العراق آنذاك، أو الآن سواء كان من مصر أو اليمن أو السودان أو كل بلاد الشام وشبه الجزيرة والخليج العربي، أو من أقطار الوطن العربي في المغرب، لصار ابن العراق، في الوقت الذي هو ابن البلد الذي جاء منه.. أليس العراق أول مركز حضارة في الأمة!؟ ألم يكمن أول إمبراطورية في الأمة!؟ ألم يكن أول مركز للأنبياء في الأمة!؟ ألم يكن أكبر مركز لمرابطة جيوش المسلمين وانتشارها إلى حيث الدفاع عن الثغور، والتوسع في التحرير إلى المشرق حتى الصين!؟

نعم، كان هذا الوصف، تعززه مبادئ البعث العظيم، صار العراق أبا وأما لكل عربي، مثلما صار أبناؤه ينظرون إلى كل جزء من الوطن العربي الكبير، بأنه أمهم وأبوهم، في الوقت الذي يكون العربي أخاهم..

ألا تحتاج أفكار العرب لأن تتلاقح مع أفكار وتجربة العراق، كما البرق الذي يغدو المطر مدرارا بعده!؟ إن الله، سبحانه، لو جعل زرعه ديماً، لما احتاج من يتولى الشأن وفق أوامره، ولما كلف الأنبياء والرسل، ومن بعد آخر الأنبياء صار واجبا على الإنسان أن يتولى ذلك، كأنه خليفة أو ظل للأنبياء في تجديد الحياة، فإذا أريد للحياة أن تتجدد، ينبغي، بل يجب، أن يتجدد الفكر والهمة والعمل، ولأن الفكر بحاجة إلى داعية، ونموذج مؤصل وموثوق ومتجدد، فليس من هو أكثر استحقاقا في هذا من أبناء بررة، يعيشون على منبت وهوى تراث أمتهم الخالد، وتصميمهم الذي لا يلين على تجديده بالجديد المضاف، وليس بالركود الذي قد يفضي إلى ما يجعل الماء غير صالح للشرب، والهواء غير صحي.. لقد اجتهد الإنسان في فرعيات تراثنا، واجتهد فيهما، ومن حقه، وفق ضوابط الأساس، أن يفعل ذلك، ولكن الأساسيات هي التي تمثل قاعدة روحه ووعاءها، وعندما ينطلق ابن الأمة الأصيل من أساسيات تراث أمته وروحها، فإن الجديد الذي يولد وسط مخاض أدماه الطلق الذي يسبق الولادة ويواكبها، سيجعل الولادة صحية وصحيحة، وها قد حصلت الولادة لفكر وتجربة جدية، ولكنها تحمل صفات أمها وأبيها، ولذلك، حري بالعرب أن يتفاعلوا معها، ليلقحوا أفكارهم، ويجددوا همتهم وعزمهم، ويسقوا الصلابة الموروثة بما هو جديد، ليكون العرب على طريق واحد، لتتحقق وحدة الأمة، وما ترى أنه يفيدها بعد الوحدة هو المنهاج الصحيح وكل فكرة مفيدة، عندما يكون الاختبار، ورأي الشعب المستقر على قاعدته الصحيحة، ميدانها، بعيدا عن تأثيرات الشعوبية، وأصحاب النظرة الضيقة لمصالحهم.

****

" من تكثر نعاجه، تكثر الذئاب حوله"..
استأذنت رفاقي، بعد أن ضمدت جرحي، وطلبت منهم أن يدلوني على غرفة لأنام فيها.. ألا ينام الجرحى؟ تساءلت مع نفسي، وقلت: بلى، إن الجرحى ينامون، ليساعدوا جروحهم لتندمل بسرعة، ويستجمعوا قوتهم لمهمة جديدة.

كان واضحا لي أن وجودنا في الوكر الذي نحن فيه وجود مؤقت، بل يجب أن يكون مؤقتا..

نمت في غرفة نوم في الطابق السفلي، وعندما قررت أن أنام، نمت كعادتي، مثلما أفعل في الأيام الاعتيادية الأخرى، بحيث لا يسبق النوم هواجس، أو تقليب لأمر ما بين الرأس والرجلين، أوبين جنب وجنب، وإنما نمت فحسب، طالما قررت أن أنام، وعند الفجر، قبل طلوع الشمس، نهضت من فراشي على ألم كأنه لسعات حادة في ساقي، ومع أنني أعرف نفسي وتحملي، ولكنني شعرت بأن ذلك الألم كأنه لسعات عقرب جعلتني لا أواصل النوم، بل ذكرني ذلك النوع من الألم بوجوب إخراج الرصاصة، وعدم انتظار مجيء الطبيب الجراح لأنه قد لا يأتي، مع أن الصباح بزغ، فماذا يمكن أن يفضي به غلينا مما حجبه الليل!؟ أليس من لا يكون أسدا في الليل لا يكون في النهار!؟ ومن يخاف الليل يخاف النهار!؟

ثم عدت إلى نفسي أتوسع في سؤالها: ألم يقطع جدي لأبي، مجيد، جزءا من لحم رجله بخنجره عندما لدغته أفعى؟ ألم يطهّر (يختن) نفسه بخنجره، عندما بلغ مرحلة الشباب، أو مرحلة الصبية!؟ ألم يكابر جدي لأمي، وتحمل آلام الطلقة التي اخترقت صدره وظهره ولم يتأوه، وتعالى على الألم أمام من حضر ليعوده، صديقا كان أم متشفيا، وهو على فراشه، ليعرف هل سيفضي (صوابه) إلى الموت أم لا!؟ وكيف ا،ه لم يقبل أن يبقى ممددا في فراشه دون عقال على رأسه، إنما طلب ممن حوله أن يجلسوه، ويضعوا الوسادات خلف ظهره، وهو يتكئ بظهره إلى الجدار، وأن يأتوه بالعقال ليضعه فوق رأسه، قبل أن يأذن لمن يأتي ليعوده بأن يدخل عليه!؟ ألم يبقَ خالي بعض الشظايا في جسده، بعد إصابته في مقاومته لجيش الإنكليز، في ثورة العراق الوطنية عام 1941!؟

ثم أقول في نفسي، وكأنني قررت بصورة حازمة ونهائية: إذا كانت هذه هي خلفية حياة أهلي، وموقفهم وتجربتهم في الحياة والنضال والجهاد، لماذا انتظر مجيء طبيب قد لا يأتي، وأعطل حركتي خارج الوكر على هذا الأمل!؟ فلأجري العملية بنفسي، وأخرج الرصاصة التي استقرت في ساقي، بعد أن اصطدمت بعظم الساق، ولم تسكره، وإنما انزاحت عنه لتستقر في عمق معين في لحم ساقي، على مبعدة من الفتحة التي تركتها، وفي كل الأحوال، لن تستعصي على الخروج، إذا فتحنا الجزء المصاب بموس حلاقة نظيف، و(ننبزها) بمقص أو مفك (درنفيس)، كما كنا نفعل أثناء قلع (نبز) الكمأ من الأرض بأداة تقليب القهوة عند تحميصها، وهي قضيب من حديد،طوله ذراع في الغالب، نهايته مطروقة دائرة أو شبه دائرية، وكنا نقلع الكمأ بها في الربيع، أو نقلعه بعصا سوّي رأسها على كيفية قريبة من ذلك!! نعم لأفعلها ولا أنتظر.

عندما غادرت غرفة النوم إلى الصالون، سألت عن حال سمير، وسألت: هل جاء الجراح أم لا؟
فأجابني خالد:
- لم يأتِ.. ولكنه قد يأتي في النهار..

عندها قلت لرفاقي:
- إن الرصاصة تؤلمني، وهي داخل جسمي، وقد تعطلني عن الحركة، ولو قلعناها من موضعها، سيكون الألم بسيطا، وسوف يسهّل عليّ المشي لمسافات محدودة، من غير أن يظهر على مشيتي ما

يلفت الانتباه إليّ، عندما أتحامل على نفسي.
تساءلوا جميعا:
- وكيف تقلعها؟
قلت لهم، بعد أن جردت ساقي من الضماد:
- نقلعها هكذا.. نحفر بموسى حلاقة علامة زائد على المكان الذي استقرت فيه الرصاصة مباشرة، على أن يكون الجرح عميقا بما يتيح أمامنا فرصة أن نضع في هذا المكان جسما صلبا، ونقتلعها كما الكمأة هكذا.
وكنت في هذا استخدم الإشارة بيدي وسبابتي بما يجعل كل شيء واضحا للرفاق.
قال أحدهم:
- ومن أين لنا بـ (البنج)- المخدر الموضعي؟
قال عبد الرحمن:
- لو كان لدينا (بنج)، ربما كان ذلك ممكنا، ولكن كيف يكون ذلك من دون (بنج)؟
قلت:
- بل دون (بنج(.
مرة أخرى، فغر الرفاق أفواههم، بمن فيهم سمير، الذي عاونه نقاشنا على هذه العملية البدائية في تخفيف ألمه، بعد تحول انتباهه للألم إلى الاستماع لـ (الدكتور الجديد(.
قالوا جميعا:
- لا.. لا.. إن هذا مستحيل وخطر، كيف يمكن أن تتحمل هذا الذي تتحدث عنه؟ ثم إن هذا قد يفضي إلى تسمم أو تلوث في جرحك، لات عرف نتيجته الآن..
عدت لأقول لهم:
- إن إخراج الرصاصة أفضل من بقائها، لذلك يجب أن نخرجها.
قال عبد الرحمن:
- وما يدرينا أي شريان أو عصب سنقطع، فإذا كانت الرصاصة لم تفعل ذلك، واستقرت في مكان غير خطير، ولم تكسر عظما، فقد نفعل ما هو أسوأ مما فعلته.
قال هذا وكأنه تذكر واجبه كطالب طب.
عدت لأقول:
- بل سوف نبطل تأثير الرصاصة وهي مستقرة داخل جسمي، وبإمكاني، بعد ذلك، أن أخرج من هذا المكان، بل أي واحد منكم ينبغي أن لا يبقى في المكان، عدا سمير ومن يتناوب على مراقبة وضعه الصحي، وتقديم ما يمكن تقديمه له من تسهيلات ومعاونة، إذا لم يكن لديكم مكان أفضل ننقله إليه، وحتى من يقوم بهذا ينبغي أن يكون وجوده الأساس في الشارع، تحت أي حجة أو عنوان يفتعل لهذا الغرض، ليكون في وضع قادر على مراقبة أي حركة مريبة وهو في الشارع، وفي الوقت نفسه يكون قادرا على الإفلات من قبضة السلطة إذا وشى واشٍ بوجودنا، أو إذا ارتاب أحد الجيران، فقد يكون بينهم شعوبي، أو شيوعي، ويخبر السلطة عن هواجسه ومكان الوكر، لأن خسارة واحدة أفضل من خسارة إضافية، إن لم نكن مضطرين إليها، بل إن وجود من يعاون سمير في الشارع، ويحضر إليه بفواصل زمنية محسوبة، ووجود سيارة قريبة منه، قد يمكنه حتى من إنقاذ سمير إذا لاحظ حركة يرتاب منها، وفي كل الأحوال، لن أبقى هنا، ولن أنتظر الطبيب الجراح، وعليه يجب أن أجري عملية فورية لساقي، وإذا لم تعاونونني سأقوم بذلك بنفسي، وإن كنت أفضّل أن يقوم بها أحدكم، لأنه

سيسيطر، وهو ينفذ العملية، بصورة أفضل مما لو قمت بها بنفسي.
- ائتوني بموسى حلاقة- قلت ذلك، قاطعا بحزم أي نقاش، أو اعتراض، أو حديث عن بدائل.

جاءني حميد بموسى حلاقة، قال إنه غير مستعمل، وبعد أن أخرجته من غلافه، قلت له:
- عقمه باليود، رجاء، وائتني به مع لفاف وشاش وقطن، وائتني باليود أيضا.
جاءني بكل ذلك.. وكان هذا جزءا من تجهيزات الوكر، قائما على تصور مسبق بأن منفذي العملية (نحن) قد يحتاجونه، وفعلا جاءت حاجته الآن، وقبل أن أهم بقطع مكان الرصاصة، وعندما وجد محمود أنني مصمم على هذا، تبرع بمعاونتي، قائلا:
- أنا أقوم بهذا، معاونة لك، يا رفيق صالح، ما دمت مصمما عليه، على أن أعمل وفق إرشاداتك.
وبعد أن عقمنا مقصا متوسط طوله (حوالي شبر)، قلت لمحمود:
- اقطع علامة زائد هنا.
وأشرت إلى مكان استقرار الرصاصة.. قطع مرة، ثم أكمل علامة الزائد من الجهة الأخرى بالموسى، وعندما كان يفعل ذلك، كان العرق لا يتصبب من وجهه فحسب، وإنما من وجوه الجميع، وتغيرت ألوان وجوههم، ومن الطبيعي أن أقول أن محمود عندما كان يقطع اللحم بالموسى، كان كأنه يقطع قالب جبن (طبعا لوني ليس كلون الجبن)!!
كنت متماسكا، ولم أعض على شفتي، أو شاربي.. وما إن أكمل، سألني، بعد أن مسح العرق عن جبينه:
- وماذا بعد؟
قلت له:
- (انبزها)، اقلعها كما تفعل بالعصا مع الكمأ في فصل الربيع. ولأنه من سامراء، وأرض سامراء الواقعة في منطقة الجزيرة تشبه أرض رمز القرى، أو بنت النهر، ويكثر فيها الكمأ في المواسم التي يهطل فيها المطر مبكرا، في تشرين الأول، فقد كان يعرف إشارتي وتوجيهي له.
نظر إليّ، وتبسم ابتسامة فاترة، وأخذ المقص من يدي..
قلت:
- أطبق المقص على بعضه، أي لا تترك جزئيه منفرجين، وإنما استخدمه كما العصا مع الكمأ..
وقد فعل هذا.
قلت:
- أغرزه في الجرح الذي فتحته بالموسى كعلامة زائد، وادفعه ليستقر أعمق من قاعدة الرصاصة لأبعد مدى.
وقد فعل هذا.
قلت له:
- اقلعها الآن، بحركة واحدة، ولا تتردد أو تتباطأ.
وقد فعلها أيضا.. وفي تلك الحركة، بدا كأنه قلع قلبي مع الرصاصة، وأغمضت عيني استجابة لإغماءة لم أتمكن من مقاومتها، ولأنني لو أبقيت عينيّ مفتوحتين، فقد أكون في حالة صعبة، خاصة وأنني لاحظت أن الأرض تدور بي، وأن الأشياء تفعل الشيء نفسه..
استجبت للإغماءة البسيطة، وأغمضت عينيّ، وتصبب العرق هذه المرة مثلما كان عليه حال رفاقي من حولين ولكنني لم أنطق بكلمة، أو أتأوه، غير أنني أرسلت زفرة واحدة بصوت أعلى من المعتاد،

فظن رفاقي أن أمري أصعب مما كنت عليه، وارتبكوا، وقد يكون أمري أصعب مما أحس به، كأن يكون الضغط هبط إلى درجة شبه خطيرة، أو خطيرة، ولكنني لم أكن أعرف ذلك آنذاك، إذ يكفيني أن أرى الرجل في وضع حي، ويفكر بصورة سليمة ليواجه الصعوبات، حتى أقول إنه قادر عليها.
نعم، كنت في شبه إغماءة، وأقول شبه إغماءة لأنني بقيت مغمضا عيني للحظات، ربما أقل من دقيقة، ولم أستطع أن أفتحهما، أو أن أجيب على رفاقي، ولكنني كنت أحس بهم، وأسمعهم.. رشوا ماء باردا على وجهي، وراح واحد منهم أو أكثر يضربني على وجهي بصورة خفيفة، وقبل أن أدعهم يسترسلون في ذلك، أشرت لهم بيدي: أن توقفوا.
وبعدها قلت:
- لا عليكم، لا تقلقوا، ليس في الأمر ما يقلق، وإنما هي إغماءة خفيفة، بل لعلها مطاوعة غير ضرورية للألم.
قلت ذلك وأنا أبتسم.
ضمد الرفاق جرحي، وصب محمود (اليود) على الجرح لنضمن تعقيمه وفق ما طلبت منه، ثم ارتحت قليلا، ولا أعرف ما إذا كنت شربت شيئا ما قبل أن أخرج، ولكن المؤكد أنني لم أتناول الفطور معهم، وكررت عليهم رأيي بأن يتركوا الوكر، واستأذنتهم لأغادر، بعد أن جاءني حميد ببنطال بديل لبنطالي الذي بدا كأنه غمس بدماء جرحي، وجف.. فلبست البنطال الجديد، وغادرتهم مودعا من قبلهم، بعد أن طبعت قبلة على جبين سمير، وربتّ على كتفه الآخر مشجعا..
غادرت الوكر، ولم أغادر المبادئ وطريقها، وبقي كثر من رفاقي الذين عرفتهم في تلك العملية الفدائية الجريئة على العهد، وفق ما آمنوا به عند خط البداية، واستمررت معهم في النضال، وآخرون، وهم قلة، اهتزت أمامهم صور، وأغرت نفوسهم وتفكيرهم صور أخرى، فحادوا عن طريق البعث، ولكنهم، بوجه عام، لم يحيدوا عن طريق القومية على سعة خطه ووصفه، لو وضعوا أما اختياري: اختيار الشعوبية، واختيار القومية. ولكن هل بإمكان القومية، من غير مجاهدين، ومناضلين مؤمنين ومنظمين في حزب ثوري طليعي، ويرهنون أنفسهم وأهليهم والبنين وكل ما يملكون في خدمتها.. هل بإمكان القومية بالشعارات العامة، وبالجماهير بمشاعرها العامة، وحركتها العامة غير المنضبطة على قاعدة بعينها، لتنطلق منها وفق مسارات معلومة، أن تنجز أهدافا محددة، تحتاج إلى حركة عميقة، تواجه صعوبات ومخاطر غير عادية بين خط البداية وحيث الأهداف!؟

إن الواقع قال إن عملا غير منظم، وغير منضبط، وبلا انتماء عقائدي عميق وأصيل، لا يحقق أهداف أمتنا، بما في ذلك هدفها في الوحدة، وإن لهذا شاهدا، بل شواهد في كل مكان، وفي كل قطر، بما في لك الحركة العربية، التي كان كثر من منتسبيها يريد وحدة الأمة في نضالها ضد سياسة التتريك العثمانية والاستقلال عنها، وحتى تجربة عبد الناصر، وما بعدها، وعلى مختلف مراحل الزمن، كلها أثبتت بما لا يقبل الشك، ويلغي أي التباس، أن التمني والنية الطيبة شيء، وما يراد كمستلزمات لا بد منها لأهداف عظيمة، وفي مقدمتها وحدة الأمة، لتتحقق في ظروف تحالف الصهيونية والغرب، شيء آخر، بل حالة أخرى تماما. وعندما تبلغ روح الجهاد قدرتها، تتحول بعد حين إلى دوحات من الشجر. وهكذا صرنا اليوم نرى أن روحية العملية الجهادية التي نفذها أبطال العراق، أبطال البعث العظيم، في 7 تشرين الأول عام 1959، والحجارات التي كان المناضلون من طلاب المدارس يرمونها على شرطة نوري سعيد، والحكم الملكي العميل في عامي 1956 و 1957، وأوائل عام 1958، استلهمت ما استلهمته مما قبلها، ولكنها، هي الأخرى، وما بعدها فرضت صورتها وروحها في العمليات

الاستشهادية، وروح ملاقاة العدو الصهيوني بالحجارة من قبل شعب فلسطين البطل.. وفي ميادين أخرى..

عاشت أمتنا العربية المجيدة، حرة واحدة..
عاشت فلسطين، حرة عربية..
عاش العراق كتابا، وراية، وسيفا..
عاش العراق، نورا يهدي من يريد الهدى، بعد أن يتكل على القادر العظيم، ونارا يحرق الظالمين، وأعداء الأمة من شعوبيين وعملاء، بعد أن أطفأ ماء دجلة والفرات، بإذن الله، وهمة المجاهدين، نار الشعوبية والشيوعية، ونار كل طاغية أراد أن يخرج العراق خارج رحم أمته، ويخرج أمته، لتكون كأنها غريبة عن صلبه.. أولئك المجاهدين الذين بذروا البذرة الطيبة، حتى أورقت وأزهرت، وصارت دوحة وارفة الظلال..
عاش العراق..
وعاش الجهاد والنضال..
وعاش الرفاق..
والله أكبر..